دماء غجرية

تأليف

د. نبيل راغب

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



دماء غجرية



١

فى عصر ذلك اليوم الدافئ من أيام فبراير انطلقت بهيرة بسيارتها البيضاء الصغيرة تتنازعها مشاعر شتى ، عجزت عن الفصل بينها . كان الدفء السارى مع الأشعة الذهبية التى أوشكت على الغروب ينتشر فى ربوع القاهرة ودروبها بعد زمهرير تربع على عرشها منذ أواخر العام الماضى . ومع ذلك كان إحساس النشوة المضطربة الساخنة فى دماء عروقها وهى تقود السيارة ، طاغيا على مظاهر الربيع المبكر . لقد عاد إيهاب ومعه الدفء برغم قدومه من تلك البلاد الباردة ، المتجمدة شتاء والمبتلة صيفا!

عرفت ميعاد عودته من آخر خطاب جاءها منه ، فأرادت أن تفاجئه باستقبالها له فى المطار دون مقدمات ، كى تغمرها أمواج الشوق واللهفة والحنين بعد أكثر من عامين من تبادل المكالمات الهاتفية والخطابات والصور والقبلات المطبوعة بأحمر الشفاه مكان التوقيع بعد آخر سطر . آن الأوان أخيرا كى تعقد خطبتهما السعيدة ، ويصبح رباطهما رسميا أمام الجميع برغم كل العقبات والسدود ! هذا الرباط الذى بدأ عندما استقرت عائلته فى الفيلا التى بناها أبوه الصائغ الثرى الشهير إلى جوار فيلتها على ربوة جبل المقطم ، حيث الهدوء والنقاء والصفاء ؛ حتى القاهرة نفسها بكل ضجيجها وصخبها وترابها ودخانها تبدو عند أقدام المقطم حلما صافيا رقراقا غارقا فى طيات الشفق ، أو سابحا مع أطياف الفسق ، أو متألقا فى وهج الظهيرة .

كان إيهاب فى ذلك الوقت فى السنة الأولى بكلية الآداب قسم الاجتماع حين دق قلبها الغض الأخضر له وهى فى السنة الأولى الثانوية ، برغم إلحاح أمها منذ صباها المبكر بأن وسيما لبهيرة ، وبهيرة لوسيم ابن خالتها ! لكن للقلب قوانين أشمل وأعم من قوانين القرابة والاقتصاد . فقد كان هم أمها الأكبر ألا تخرج ثروة زوجها إلى أسرة غريبة ، فالأقربون أولى بالمعروف خاصة إذا كانت أختها وابنها الذى فقد أباه الذى لم يحتمل تأميم مصنعه الكبير فقضى عليه السكر فى سنوات معدودة . وبرغم نشأة بهيرة

مع وسيم فإنها لم تر فيه سوى فتى مدلل ، فاشل فى دراسته ، يعيش مع أمه على اجترار أمجاد الماضى الذهبى الذاهب بلا عودة !

أما المستقبل فكان الشغل الشاغل لإيهاب . لم يعرف الفخر بثروة أبيه العصامى الذى بدأ حياته فى واحد من أكبر محال الصاغة ، يمتلكه يهودى من أصل أرمنى بدأ من الصفر أيضا ، ثم أتقن كل أسرار المهنة وخباياها حتى صار مليونيرا . وكبر معه أبو إيهاب حتى أصبح يده اليمنى لمهارته وذكائه وإخلاصه وصدقه وأمانته وطموحه الذى دفعه إلى التفكير فى إفتتاح محل خاص ، وهو التفكير الذى قاومه الخواجة طويلا ، تارة بالإغراء وأخرى بالضغط حتى وقع العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ، فأدرك اليهودى بحاسته التى لا تخيب أن مصر لم تعد ذلك البلد الآمن الذى طالما فتح أحضانه لليهود ، وأن فرعونا جديدا قد عاد ليجعل إقـامتهم مستحيلة ، وأن عليهم العبور مرة أخرى تحت قيادة موسى جديد ! لكن الخواجة اليهودى ، بدلا من عبور البحر الأحمر ، فضل أن يعبر البحر الأبيض المتوسط إلى مدينة انتويرب ببلجيكا حيث أقاربه تجار الماس والذهب ، وذلك بعد أن باع المحل لأبى إيهاب بسعر المحتاج للهروب بجلده ! وتحقق حلمه أخيرا وفتح المستقبل له أبوابه مع الأبواب المفتوحة للمحل الذى أصبح ملكه .

ولم يضغط الأب على أحد من أبنائه كى يعملوا معه فى المحل الكبير . علمته الحكمة التى اكتسبها من جامعة الحياة أن العبرة ليست بنوعية العمل الذى يختاره الإنسان ، وإنما بمدى حبه لهذا العمل ، وهو حب لابد أن ينبع من داخله دون أية ضغوط من الآخرين . ولذلك رحب بالتحاق ابنه بكلية الآداب قسم الاجتماع ليشق طريقه بعيدا عن عالم المجوهرات والمعادن النفيسة ، وهو يحمد الله الذى جعل اثنين من أبنائه يتخرجان فى كلية التجارة من تلقاء نفسيهما لينضما إلى قلعته الحصينة التى كبرت وتشعبت وذاع صيتها .

هبطت السيارة البيضاء تاركة شارع المقطم المنحدر وخلفها سحابة خفيفة من

الرمال الشفافة . لم تعبأ بهيرة بالسيارات المارقة إلى جوارها كوميض السهام . نظرت فى المرآة أمامها دون أن تتابع حركة المرور خلفها ، كانت تسأل المرآة عن مدى أناقتها وجاذبيتها وسحرها وجمالها ، فجاءت الإجابة مطمئنة للغاية . وها هو شعرها البنى الفاتح الناعم اللامع قد تركته يستطيل منذ عدة شهور عندما علمت بقرب وصوله ؛ فكثيرا ما قال لها عنه إنه أجمل إطار استطاع أن يحتوى أروع لوحة أبدعها الفنان الأعظم ! الوجه الأبيض المشرب بالحمرة ذات النمش الخفيف الذى يتناثر على الوجنتين والذقن بغمازته الدقيقة ، وهو فى استدارته كالبدر فى عليائه ؛ وميض العينين العسليتين الواسعتين كالبلور الصافى تحت إطارى الحاجبين ؛ الأنف الدقيق الشامخ إلى أعلى ؛ الأذنان اللتان تحاولان القبض على الخصلات المتمردة حتى يبدو القرط الذهبى على شكل هلال وليد . الشفتان المكتنزتان المنطبقتان على انفجار وشيك بعد أن عاد من أدمن خمرهما .

قالت المرآة أكثر من هذا . ودت بهيرة لو رأت فستانها الأحمر الذى انحسرت ألسنة لهيبه داخل نطاق الحزام الأسود اللامع العريض والذى رفع نهديها كفوهتى بركان فائر أو مدفع على وشك الانطلاق والتدمير برغم الخصر النحيل الدقيق الذى يحمله . لكن المرآة الصغيرة ضنت على بهيرة واكتفت بالحديث عن بعض أجزاء الوجه الجميل الذى تابع الطريق الممتد وسط الكثبان الرملية الصفراء ، والمنازل البيضاء والرمادية ، الصغيرة والشاهقة ، المتناثرة هنا وهناك . ولم يخل الأمر من صفير صادر من شفاه قائدى السيارات مع وقوع أعينهم على تلك الفاتنة التى تنافسهم فى السرعة كلما شعرت بقرب وصول الطائرة . فقد تحولت ساعتها الذهبية الدقيقة إلى سوط يلهب قلبها شوقا للقاء الحبيب الغائب العائد .

أخفت بهيرة عن أمها خروجها للقائه . لم تكن تحب نظرتها إليه أو كلامها عنه . وطالما أكدت لها أن الأصل العريق يأتى فى المقام الأول قبل الثروة الضخمة التى هبطت على أسرة إيهاب فى غفلة من الزمن ، ولولا عدوان ١٩٥٦ لما احتل

أبوه هذا المحل العريق الضخم ، ولولا أن مصائب قوم عند قوم فوائد لكان أبوه الآن مجرد صائغ مغمور فى دكان لا يزيد على متر مربع ! ومع ذلك لم تمنع هذه العنجهية أمها من التردد على نفس المحل لشراء ما يحلو لها من مصاغ ومجوهرات وبأسعار تقل كثيرا عن أسعار السوق إكراما لحق الجيرة والصداقة الذى يقدسه أبو إيهاب ! كانت ترتدى الحلى والمجوهرات التى تثير الإعجاب فتفخر أنها من محل المهرانى ، وعندما تخلو إلى ابنتها تؤكد لها أن إيهابا ليس من مستواها ، وأن الطيور على أشكال تقع ، وأن وسيما ابن أختها اسم على مسمى ، لطيف المعشر ، خفيف الظل ، أصيل العرق ، وغير ذلك من الأسباب التى تغفر له رسوبه المتكرر فى كلية الحقوق .

لكن بهيرة التى كانت فى سنة الامتياز بعد حصولها على بكالوريوس الطب بتفوق ، كانت تضع إيهابا مثلا أعلى لها . يكفى أنه كان الحافز الأساسى وراء تفوقها المستمر . أما الأصل العريق الذى لم تمل أمها من التشدق به بل والتمسح به بأن جدتها لأمها من أصل شركسى ، هذا كل ما فى الأمر ! أما الأب فرجل أعمال ناجح منذ أن تخرج فى كلية الهندسة وعمل فى مجال المقاولات والإنشاءات . و لم يكن لديه الوقت الكافى للاستماع إلى ثرثرة زوجته أو حتى للالتفات لشئون بيته . كان يعتبر نفسه مجرد منبع مالى لا ينضب للأسرة ، أما العلاقات العائلية فلم يكن لها مكان فى جدول أعماله المزدحم بالاجتماعات والمقابلات والسفريات والمشروعات . ولذلك لم تتأثر بهيرة بأبيها أو بأمها بقدر ما تأثرت بإيهاب الذى كان — ولا يزال — معلمها وحبيبها .

وبرغم أن أمها كانت تدرك أن كفة إيهاب هى الراجحة ، فقد واصلت مساعيها لربط عجلة ابنتها بوسيم لعل وعسى ، خاصة وأنها كثيرا ما لاحظت على وجهها سحابة الضيق التى كانت تغشاه كلما أصر إيهاب على تكرار قصة كفاح أبيه العصامى الذى بدأ حياته من الصفر . ذلك أن بهيرة لا يمكن أن تنسلخ من

أصلها بالبساطة التى يتصورها إيهاب الذى طالما تمنت له أمها الفشل فى دراسته حتى تملك ذريعة أخرى بالإضافة إلى الأصل المتواضع ! وكم حقدت عليه وهو يشق طريقه بمنتهى المهارة والثقة والكبرياء والفخر بالعصامية التى ورثها عن أبيه ؟! بل إنه تجرأ ذات مرة وقال أمام أمها فى إحدى زياراتها لمحل أبيه إن البشر يأتون إلى هذه الدنيا عرايا لا يملكون شيئا ، ولذلك فالمساواة هى القاعدة الطبيعية التى لابد أن ينهض عليها أى عقد اجتماعى ! لكن يلدز هانم لم تستسلم وردت له الصاع صاعين عندما أكدت أنه إذا كان المواليد متساوين لحظة قدومهم إلى الحياة ، فإن من أنجبوهم ليسوا متساوين سواء فى الأصل أو فى الملكية ! الأمير ينجب وكذلك الخفير ولكن هذا لا يعنى المساواة بينهما على الإطلاق !

لم يلتزم إيهاب الصمت وواصل إصراره على رأيه الذى كان فى نظرها مجرد وقاحة أو محاولة لتغطية عقّد النقص . قال إنه مهما اتسعت الفوارق بين البشر فى هذه الحياة فإنهم يعودون إلى المساواة المطلقة عند لحظة مغادرتهم للحياة ، ففى تراب المقابر لا يمكن التفريق بين جمجمة الأمير وجمجمة الخفير ! أما التفرقة بينهما فى العالم الآخر فستكون بناء على حساب الحسنات والسيئات وليست بناء على الأصل والملكية ! كظمت يلدز هانم غيظها عندما أعياها الرد ، ومع ذلك لم تتردد فى شراء خاتم ماسى فاخر بتخفيض كبير !

واصلت السيارة البيضاء الصغيرة انطلاقها ، وعمائر مدينة نصر ومنازلها تمتد على يمين الطريق الفسيح الذى تفترشه شمس الغروب التى امتزج دفء وهجها بذهب الرمال على مرمى البصر . انتاب بهيرة شعور القادم على امتحان عندما حاولت العروق الباردة حبس الدماء الساخنة عن الجريان المتدفق منذ هبوطها من المقطم ! تشاغلت بهيرة بالطريق الذى يشطر مصر الجديدة إلى نصفين وهى تنهب الأرض نهبا . حتى بلغت بدايات طريق المطار حيث اصطدمت أذناها بأزيز طائرة ضخمة يبدو أنها أقلعت منذ لحظات . متى تصل الطائرة التى تقل الحبيب ؟! هل

غيرت الغربة من سلوكه وشخصيته ؟! لم تنم خطاباته الأخيرة عن أى تغيير ! كانت كلها لهفة حارقة لساعة اللقيا !

وها هو فنار المطار يبدو على يسار السماء التى تنطبق على نهاية الطريق ، وها هى السيارات المارقة تحمل ركابها لعلهم يلحقون بطائراتهم التى لا تنتظر أحدا ! والغريب أن بهيرة لا تقل عنهم لهفة برغم عدم خوفها من أن تفوتها طائرة ! تزايدت دقات قلبها مع حفيف عجلات السيارة على قار الطريق حتى بلغت صالة الوصول . تركت السيارة وهى تصلح من خصلات شعرها التى تطايرت مع الهواء ، وبمجرد أن انضمت إلى موكب المستقبلين لمحت أبا إيهاب وأخاه الأصغر . ترددت قدماها فى الاقتراب منهما ، فلم يكن هناك من يتوقع ذهابها لاستقبال إيهاب ، لكن ترددها لم يطل عندما لمحها جميل الأخ الأصغر لإيهاب والذى يشبهه إلى حد كبير : نفس البشرة السمراء ، والأنف الحاد المدبب ، والعيون السوداء ذات الوميض النافذ إلى القلب مباشرة ، والشارب الدقيق فوق شفتين تميلان إلى اللون البنى الداكن ، والبروز المستدير المكتنز الذى يذكرها بشفاه الغجر الذين رأتهم مرارا فى شبين القناطر عندما كانت تقضى يوما أو يومين هناك فى عزبة أبيها . وكثيرا ما حاولت أمها أن تؤكد لها أن معبودها لابد أن يكون من سلالة غجرية بدليل شفتيه الممتلئتين ، وعينيه السوداوين الحادتين ، وشعره الأسود الفاحم بحيث لم يتبق سوى الوشم على أحد ساعديه أو كليهما حتى يصبح غجريا لا جدال فى غجريته ، لكن بهيرة كان تقابل تلميحات أمها وتعليقاتها إما بالتجاهل أو السخرية لأنها كانت تدرك ما ترمى إليه تماما .

تقدم جميل بنفس الابتسامة العذبة الجذابة ، وشد على يدها بحرارة متدفقة ذكرتها بالحبيب العائد :

— وهل يعرف إيهاب أنك قادمة لاستقباله ؟!

— أردتها مفاجأة له !

ضحك جميل ضحكته الصافية المجلجلة وهو يجذبها من يدها تجاه أبيه :

ـــ ستكون مفاجأة مثيرة لنا نحن أيضا !

ـــ تدفق الحماس من يد الأب وهو يسلـم عـليها:

ـــ لماذا كلفت نفسك مشقة المجئ؟!

نطق داخلها بأنها متعة مثيرة وليست مشقة ثقيلة على الإطلاق ، لكن وجهها لم ينطق سوى بابتسامة صامتة ارتفعت بالوجنتين ثم غاصت إلى قاع الغمازة الدقيقة .

تعلقت عيونهم بموكب القادمين من بلاد الله ، ويدفع بعضهم العربة المعدنية المكدسة بالحقائب ، فى حين تبادل البعض الآخر الأحضان الساخنة والقبلات الحارة وسط الدموع المنهمرة عند لحظة اللقاء ! وسرعان ما تخيلت بهيرة إيهابا وهو يحتضنها ! أعلنت اللوحة الجدارية الضخمة عن وصول الطائرة القادمة من لندن فى نفس اللحظة التى أكد فيها مكبر الصوت نفس الخبر ! تبادل ثلاثتهم نظرات زاخرة بطوفان من المشاعر المتلاطمة وقد تشبثوا بالسور الحديدى الذى يفصل المستقبلين عن القادمين بعيونهم الباحثة عن الأهل والأقارب والأحباب .

توالى الموكب وتثاقلت الدقائق ثم الثوانى و لم يظهر إيهاب ! سألوا بعض القادمين فعرفوا أنهم ركاب طائرة لندن ! لكن أين إيهاب ؟!لـمَ تأخر ؟ هل لديه متاعب فى الجمرك ؟! تأسف الأب لسهوه عن إيجاد من يوصى به خيرا !لكن ما الذى يمكن أن يعوق إيهاب فى الجمرك وهو ليس فى حاجة إلى شراء ما يستحق أية رسوم ؟! إنه يملك كل ما يرغبه فى مصر التى أصبحت تزخر بواردات قد لا يكون لها مثيلاتها فى إنجلترا من حيث الوفرة والتعدد ! هل يمكن أن تكون الطائرة قد فاتته ؟! ولماذا ؟! اللهم اجعله خيراً !

وسط خضم الضجيج الخارجى والهدير الداخلى بدا إيهاب بقامته المديدة التى ازدادت نحولا ، وإن كانت سمرة وجهه قد توارت فى البلاد التى لا تعرف الشمس إلا فى أيام يحتفل الجميع فيها بظهور طلعتها البهية ! انطلق جميل إليه ليحتضنه بحرارة ويتبادل معه كلمات ضاعت بين طيات الضجيج وموجات الهدير ، تولى عنه دفع العربة

المعدنية إلى حيث وقف الأب عند فتحة السور الحديدى ، وإلى حيث العناق والأحضان والقبلات ، وبهيرة تتابع بعينين حائرتين كادت الدموع أن تطفر من محجريهما ، لكن سرعان ما التفت الأب إليها وجذبها حيث تحول إيهاب إلى تمثال من النشوة الحالمة التى لا تكاد تصدق ما ترى !

التصقت خطواتها بالأرض ونظراتها بوجهه الحبيب فى حين انطلق ليحتضنها ويقبلها فى وجنتيها ، بل أوشك فى واحدة منها من الإقتراب من شفتيها . نظر إلى أبيه وأخيه فى امتنان شديد ، وذراعه فوق كتفيها :

— شكرا لا صطحابها معكما !!

قال جميل مندفعا فى تهدج :

— جاءت بمفردها ومن تلقاء نفسها !

وأضاف الأب بنبرات أصابها بعض الارتعاش :

— كان مجيئها مفاجأة لنا مثلك تماما !

التفت إيهاب إلى بهيرة بنظرات مست قلبها مسا كهربيا :

— لا أجد كلمات تعبر عما بداخلى !

كان كل ما خرج من شفتيها النابضتين بنبرات داخلية :

— حمدا لله على سلامتك !! حمدا لله على سلامتك !!

دفع جميل العربة المعدنية أمامه ضاحكا :

— لن نضيع الوقت فى الثرثرة التى تضيع معظم كلماتها وسط الضجيج !! هيا بنا .. سأضع الحقائب فى السيارة لأعود بها أنا وبابا فقط !

كان إيهاب على وشك أن يفتح فمه لكن الأب التقط رسالة جميل :

— سنلتقى فى البيت .. فلا يعقل أن تعود بهيرة بمفردها أيضا .. وطريق المطار شبه مظلم وموحش !

افترشت الابتسامة المترددة وجه إيهاب ، والحمرة المتوهجة وجنتى بهيرة فى حين انطلق الأب خلف ابنه تاركا إياهما فى صمت الضجيج ! أمسك إيهاب بيدها وقادها

إلى الخارج حيث زحفت طلائع الظلام دون بصيص من ضوء القمر ، وحيث انتشرت نسمة باردة تطارد الدفء الذى تركته الشمس الراحلة . أشارت بهيرة إلى سيارتها المرابطة أمام أول طوار :

ـــ أعرف أنك مرهق .. لن تمشى مسافة طويلة !

ضغط على يدها حتى كاد أن يعتصرها :

ـــ على استعداد أن أمشى معك إلى آخر الدنيا !

سرت دغدغة يدها بنشوة دافقة فى عروقها فاستسلمت لها تماما وهى تفتح له باب سيارتها . شعرت وهى تجلس إلى جواره بأنها تمتلك كنوز الأرض كلها ! أدارت المحرك وهى تتمنى أن تسير بهما العربة الهوينى لتصل إلى المقطم بعد منتصف الليل . لم تحتمل أن تضغط على البنزين بكل ثقل قدمها كما فعلت عند قدومها ، بل لمسته فى رفق بطرف أصبعها فى طريق العودة حيث بدت سيارتها كتلة من البطء المتحرك وسط السهام المارقة يمنة ويسرة . لم تكن تحب الظلام الموحش لكن قلبها عزف ألحانا من نوع أحال الدنيا الفسيحة الرائعة إلى عربة بيضاء صغيرة تتهادى كالبساط السحرى ! خرج صوته عريضا دافئا :

ـــ ظللت أحلم بك أكثر من عامين !! والآن أعيش واقعا أروع من أروع حلم ألف مرة !!

مد يسراه لتسترخى على ظهر مقعدها فقالت دون أن تنظر إليه :

ـــ آن الآوان لتحويل كل أحلامنا إلى واقع بعد أن تخرجت أنا وحصلت أنت على درجة الماجستير !

ربت على كتفها بحنان كاد أن يحتويها :

ـــ شرع بابا بالفعل فى بناء دور خاص بنا أعلى الفيلا !

ـــ رأيت عربات الطوب والرمل والأسمنت منذ أسبوع وهى تلقى بحمولتها فى فناء الفيلا الخلفى !

ـــ وهل لا يزال وسيم مصرا على مناوراته اليائسة ؟!

— إنه يتصور أن ماما قادرة على الضغط على أعصابى حتى أستسلم أخيرا ونطبق مبدأ زيتنا فى دقيقنا !

— لا أعرف من أين أتت بهذه الثقة البالغة بالنفس والقدرة على مواصلة الإصرار على بلوغ الهدف بهذا الشكل !

— الفراغ يا إيهاب !! بابا مشغول عنها بمشروعاته واجتماعاته ولجانه وسفرياته .. كما لا تنسى أننى وحيدتها ولا شاغل لها سواى .. لكن القرار .. كما تعرف .. قرارى أنا وحدى !!

— فعلا .. ليس فى استطاعتنا أن نصنع للناس أفكارهم !

ومضت ابتسامة بهيرة فى ضوء كشاف خلفى سطع فى المرآة :

— لكن الأمر لا يخلو من بعض الفخر .. فهى أحيانا تقول لبعض صديقاتها إننى سأسافر معك بعد زواجنا إلى إنجلترا للحصول على درجة الدكتوراه !

ضحك إيهاب فى اقتضاب :

— من فضلك .. الفخر فى هذه الحالة بإنجلترا وليس بالعبد لله .

شاركته الضحكات التى لم تخل من رنة سخرية :

— على الأقل هناك نقطة واحدة فى صالحنا !

— وحتى هذه النقطة يمكن أن تضيع منا !!

علت دقات قلبها الذى توجس خيفة :

— كيف ؟!

— أكد لى أستاذى الإنجليزى أثناء مناقشة الرسالة أن البيئة المحلية أصبحت الشغل الشاغل لعلماء الاجتماع بحيث تحولت النظريات العلمية إلى مجرد أدوات فى يد الباحث لتطبيقها أو مجرد استخدامها فى تحليل الواقع الفعلى .. وهو واقع لا يستوعبه أحد أفضل من أبنائه !!

فهمت ما يقصد إليه ومع ذلك تساءلت :

— أتقصد أننا لن نسافر ؟!

ـــ لا أعرف بعد .. وإن كنت قد اكتشفت فى إنجلترا أن فى المجتمع المصرى من الظواهر ما يستحق الدراسة والتحليل .. والدكتوراه من الجامعات المصرية لا تقل فى قيمتها بحال من الأحوال عن جامعات الخارج .. ولا يعقل أن نترك مجتمعنا للرحالة والمستشرقين والأجانب ليقوموا بدراسته ثم لا نملك نحن سوى الإعجاب بمجهوداتهم والتعجب لها !

لاحظ مسحة من خيبة الأمل تغلف نبراتها وتكاد تخنقها :

ـــ لا زلت أتمنى السفر .. فالبعد عن مصر فترة معقولة من شأنه أن يقنع الجميع بأن الثرثرة فى أمور لا تخصهم ولا تعنيهم شئ سخيف فعلا !

ـــ تقصدين البعد عن أمك ؟! لقد اتفقنا يا بهيرة من قبل على ألا نسمح لأحد بأن يتدخل ليؤثر على قرارنا ومصيرنا !

ـــ أنت لا تعرف يا إيهاب مدى الضغوط التى مارستها ماما علىّ فى غيابك .. بالإضافة طبعا إلى مناورات وسيم التى لا تتوقف .. لم أشأ أن أحكى لك كل التفاصيل فى الخطابات حتى لا أضايقك فى غربتك وحتى تركز كل همك فى الدراسة !

ربت على كتفها ومال قرب أذنها هامسا :

ـــ وهاأنذا عدت .. ولن يفرق بيننا سفر مرة أخرى !

لم تلتفت إليه بل ركزت عينيها على الطريق الزاخر ببعض المطبات ، فاسترخى فى مقعده مرة أخرى :

ـــ على كل حال موضوع سفرى للدكتوراه لن يحسم قبل تحديد موضوع الرسالة واستشارة أساتذتى فى جامعة القاهرة !

ندمت فى أعماقها على سماحها للمجهول بأن يطارد لهفة اللقاء . وعاودها بل واجتاحها طوفان الرغبة فى تقبيله واحتوائه . داعبته :

ـــ ليس هذا وقت الحديث فى مثل هذا الموضوع .. لم تقص لى شيئا فى خطاباتك عن بنات الإنجليز اللاتى اشتهرن بالسحر والحرية المطلقة !

ـــ لا أخفى عليك .. فقد أحبَبت كل البنات ذوات الشعر البنى الفاتح الناعم

اللامع !

ترك يده تجرى على شعرها فى سعادة غامرة :

— كما عشقت ذوات الوجه الأبيض المشرب بالحمرة ذات النمش الخفيف الذى يتناثر على الوجنتين ، والذقن بغمازته الدقيقة !

لمست أصابعه وجنتها المواجهة له وانحدرت حتى ذقنها :

— أما العيون العسلية الواسعة فافتقدتها كثيرا وسط العيون الزرقاء والخضراء والرمادية !!

استسلمت للمساته تماما لكن مع التشبث بعجلة القيادة بعد أن شرعت السيارة فى اختراق شوارع مصر الجديدة وميادينها المزدحمة بالمارة والعربات والأضواء والأبواق . واصل اكتساحه :

— أما عن الشفتين المكتنزتين فكنت أعد الأيام والساعات للحظة التى أستطيع أن أقدم فيها فروض الطاعة والولاء لهما ! فماذا يفعل الظمآن عند رؤيته لأول ينبوع من الماء الصافى النقى ؟!

غمرته أمواج ابتسامتها العذبة التى قتله الحنين إليها حتى كادت أن تنحرف بالسيارة وتلمس راكب دراجة بخارية إلى جوارها لولا أن إيهابا أسرع بتعديل عجلة القيادة وقد تحولت الابتسامة العذبة إلى ضحكة حرجة :

— القائد المحنك يستطيع أن يمارس كل ما يحب لكنه لا يسمح له فى الوقت نفسه أن يشتت انتباهه بعيدا عن المسار الذى اختاره نحو هدفه المحدد !

لم تستوعب بهيرة كلامه تماما فقالت وهى تتوقف عند الإشارة الحمراء :

— منذ بداية اليوم فقدت كثيرا من تحكمى فى دفة الأمور !

أطلق إيهاب ضحكة صافية مع انطلاق السيارة إلى مدينة نصر :

— يبدو أن أمواج الإثارة كانت أقوى وأعنف من اللازم !

اخترقت السيارة الشارع العريض ذا الأضواء الخافتة المتباعدة التى توالت بقعها على وجه بهيرة وابتسامته الوجلى المترددة . عادت أصابعه لمداعبة خصلاتها البنية اللامعة

فقالت ضاحكة :

ــ لن أنحرف هذه المرة .. يمنة أو يسرة !!

مد إيهاب ذراعه مستقيمة حتى لامست زجاج السيارة :

ــ إذاً .. هيا إلى الهدف مباشرة !

تساءلت فى دلال بالغ :

ــ أى هدف تقصد ؟!

ــ الخطبة ثم الزواج بمجرد الانتهاء من بناء العش السعيد !

ران صمت مشحون بشتى المشاعر المثيرة لم يقطعه سوى حفيف الإطارات على الطريق وضجيج المحرك المكتوم الخافت ، فى حين داعبت أصابعه الدقيقة عنقها العاجى فأثارت قشعريرة كهربية فى كل مسام بشرتها ! كم اشتاقت للمساته التى عزف بها أجمل الألحان على جسدها الذى يكاد يتمزق شوقا إليه ولهفة عليه ! لم تدرك لماذا أصبحت السيارة تنهب الطريق نهبا وكأنها فقدت السيطرة عليها ، أو كأن شخصا آخر يقودها ؟! تذكرت جولاتهما على الأقدام فى مدينة المقطم ، وصعودهما على طريق المدرج المؤدى إلى القلعة الصغيرة أعلى الجبل حيث مزج الحب بالعلم بالثقافة !! بين القبلات والأحضان المختلسة بعيدا عن العيون المتلصصة ، وما أقلها بين الأحجار البيضاء والصفراء الشماء حيث النقاء والصفاء والسكون الهامس بنسمات الهواء أو هبات الريح ، كان يحكى لها كيف أمر محمد على باشا بإنشاء قلعة المقطم لتحمى قلعة الجبل عام ١٨٠٩ ، وكان البدء أولا فى بناء طريق المدرج المؤدى إليها . وكيف أطلق على هذه القلعة خطأً اسم نابليون ، برغم ما كتبه عنها الجبرتى والشيخ خليل الرجبى ، إلى أن نادى بتصحيح هذا الخطأ عبد الجواد الأصمعى فى كتابه « قلعة محمد على لا قلعة نابليون » .

كم سارت معه بحذاء أسوار القلعة ذات الارتفاع المتوسط والأضلاع الكثيرة ليشرفا على قلعة الجبل ثم القاهرة كلها ، وكأن الدنيا كلها قد دانت لهما ؟! كم وقفت معه أمام واجهتها الغربية ببابها الكبير الذى حفر أمامه خندق عليه قنطرة متحركة ما زالت

أدوات رفعها موجودة ، والذى حلى عقده بكرانيش حجرية ، وفتح بجانبيه مزاغل صغيرة للضرب منها بالبنادق وأخرى كبيرة للمدافع ؟! ثم قبلها عند مدخل القلعة المعقود بالحجر وعلى يمينه ويساره فتحتان كل منهما تؤدى إلى سرداب مستطيل معقود بالحجر على امتداد الوجهة الغربية فتحت به مزاغل صغيرة ، وكلاهما يوصل إلى الحوش حيث ينتهى إلى مدخل آخر ؟! وأمام كل مدخل من هذين المدخلين طريق مدرج يوصل إلى ظهر المدخل العمومى ويسير على ظهر أبنية الدور الأول يحيط به سور فتحت به مزاغل صغيرة وكبيرة فى تعاريج تكشف جميع الاتجاهات حولها !

ذكريات وأماكن حبيبة أصبحت جزءا عضويا من نسيج عمرها ! كل بقعة أو زاوية فى مدينة المقطم أو قلعته كانت تذكرها بالحبيب الذى عاد أخيرا والذى توقفت أصابعه عن ملامسة عنقها وجيدها متسائلا :

ــ لماذا تحرميننى من سماع صوتك الساحر ؟!

ــ كنت أفكر فى ذكريات الماضى الرائعة !

ــ أما أنا فسرحت مع توقعات المستقبل الأكثر روعة !

ــ كنت متفائلا دائما !

ــ لا أومن بما يسمى بالتفاؤل والتشاؤم !

ــ أعرف ثقتك البالغة بنفسك وتحليلك الدائم لكل احتمالات المستقبل !

ــ لم تقصى لى شيئا عن تحليلك أنت ؟!

ــ ليس عندى جديد .. ستنتهى سنة الإمتياز فى أغسطس القادم .. ويبدو أننى سأواصل العمل بعد ذلك فى نفس المستشفى بعد أن أثبت لمديرها أننى لا أقل علما عن أقدم أطبائها ، وأننى فى طريقى لأحصل على خبرتهم أيضا !

ــ يكفى أن المستشفى قريب من البيت وأنك مرتاحة للعمل به !

برزت صخور المقطم وقد تلفحت بخمار الليل بعد أن سرت لسعة من البرودة الحانية التى طاردت دفء الظهيرة . انحرفت بهيرة يسارا كى تصعد على طريق المقطم الممهد بين الصخور الوعرة الضخمة التى يبدو أنها شهدت الزمان وهو لا يزال طفلا

فى المهد ! تصاعد الطريق والتوى كحية أسطورية شقت الصخور بين التعرجات والمنحنيات ، أو انشقت عنها الصخور لتنزلق عليها السيارة البيضاء الصغيرة . تساءل إيهاب فى دعابة :

ــ يبدو عليك أنك فى عجلة من أمرك ؟! تريدين التخلص منى والعودة إلى بيتك بأسرع ما يمكن !!

عادت إلى وجهها ابتسامته العذبة :

ــ ماذا تقصد بالضبط ؟!

ــ لا يعقل أن يذهب كل منا إلى بيته .. كأننا صديقان من العزّاب قام أحدهما بتوصيل الآخر !!

ثم مد يده ليدير مقود السيارة الصاعدة فى بطء لتهدئ من سرعتها عند قلب أحد التعرجات ثم تنحرف قليلا داخله ، ودون أن تدرى أوقفت بهيرة المحرك ليسود سكون مفعم بمزيج من النشوة والإثارة الغامضة وبفحيح الريح التى أثارت بعض الرمال الناعمة ، وبهمس إيهاب الذى تدفق فى أذن بهيرة وهو يقترب منها :

ــ كم قتلنى الشوق إليك حتى خيل إلىّ أننى لن ألقاك مرة أخرى ؟!

أحاطت وجنتيه الناحلتين بكفيها ونبراتها المرتعشة الهامسة :

ــ لا تقل مثل هذا الكلام أبداً !! أنت تعلم جيدا أن لا حياة لى بدونك !

جذب رأسها صوب شفتيه ليغرقا بين أحضان موجة صاعدة ، هابطة ، متلاطمة ، صاخبة بهمسات اللهفة ، وآهات الشوق ، وتنهدات الحنين ، ونبضات الرغبة ، ودقات القلب ، وانتفاضات الصدور الملتصقة ، وانفراجات الشفاه الملتحمة مع جريان اللعاب وتدفقه من منابع الفم ، وفيضان الدم فى العروق التى أوشكت على الضمور جفافا ! تحركت الصخور ودارت فى دوامة الكون الذى اكتسب معناه مع عودة فورة الحياة إليه ! تعطلت لغة الكلام عندما أصبح الصمت واللمس والسكون والهمس بلا حروف أو ألفاظ أبلغ ما يصل إلى أعماق العقل ودهاليز القلب كوميض البرق الخاطف ! تفجرت الألغام الكامنة فى بطن المشاعر والصدور عند أول لمسة

فانشقت الأرض عن شظايا منصهرة ، وحمم حارقة لم ينطفئ لهيبها إلا بعد أن أفضت الصدور بمكنوناتها !

كان إيهاب واعيا دائما بحدوده ، ولذلك اعتادت بهيرة أن تترك له القيادة فى معظم الأحيان ! ربت على وجنتها فى حنان جارف غامر :

— الآن نستطيع العودة إلى البيت دون خوف من الاحتراق شوقا !

— لن يبعد عنى شبح الاحتراق إلا إذا ضمنا بيت واحد !

— فى القريب العاجل .. فلنعقد الخطبة أول الشهر القادم .. على أن يتم الزواج بمجرد الانتهاء من بناء الشقة الذى لن يستغرق أكثر من ثلاثة أو أربعة أشهر على أكثر تقدير كما وعدنى بابا فى آخر خطاب !

— قل .. إن شاء الله يا إيهاب !

— كل شئ بإذنه يا روحى .. سواء قلتها بلسانى أو بقلبى !

نظرت بهيرة فى بعض من التردد إلى ساعتها فلم تتبينها فى ضوء مصباح الطريق الخافت . ربت إيهاب على يدها :

— هل اتفقنا ؟! أم أن ضغوط أمك ومناورات وسيم يمكن أن تؤثر على قرارك ؟!

تجسد التصميم الذى غلف نبراتها :

— لن يحدث !! اتفقنا !!

وأدارت محرك السيارة بمنتهى العزم والتصميم لتخرج بها من قلب الصخرة الصماء ، وتنطلق فوق الحية السوداء الأسطورية صوب الفيلا القابعة على حافة المقطم حيث القاهرة غارقة فى خيوط الظلام التى تناثرت عليها حبات اللؤلؤ المنيرة بوميض الماس ! توقفت السيارة أمام الباب الحديدى ذى المصباحين اللذين يشعان على الحديقة الصغيرة الداكنة . انحنى إيهاب على بهيرة واحتواها بين ذراعيه ليغرق شفتيها ووجنتيها وعينيها بوابل من القبلات لم ينقطع إلا عندما أضيئت نافذة إحدى الغرف العليا فى الفيلا المجاورة ، وبدا خلف زجاجها المغلق شبح سرعان ما تبينت فيه بهيرة أمها . قبل إيهاب يدها وهو يفتح باب السيارة :

ـــ سأتصل بك غداً .. تصبحين على خير يا روح قلبى !

ـــ وأنت من أهله يا حبيبى !

صدحت كلماتها العذبة فى أذنيه بأجمل الألحان وأروع النغمات ، فغمرته النشوة وهو يخرج ليغلق الباب خلفه ، والسيارة تتحرك وبهيرة تلوح بيدها بنظرات حالمة . أمام الفيلا المجاورة توقفت بهيرة لتجد أمها لا تزال رابضة فى برج المراقبة ، استدارت بالسيارة لتدخل الجراج ، وتسرع بالصعود محاولة إعادة الهندام إلى خصلاتها المتهدلة . وقبل أن تخرج المفتاح من حقيبتها ، فتح الباب وبدت الأم رشيقة ، طويلة القامة ، لا يبدو فارق السن كبيرا بينها وبين ابنتها ، بل هناك التشابه الواضح بينهما باستثناء شعرها الفضى ووميض العنجهية فى عينيها . كسرت بهيرة حاجز السكون :

ـــ مساء الخير يا ماما !!

ـــ بون سوار يا حبيبتى .. قلقت عليك !! هل أخذت نوبة إضافية فى المستشفى ؟!

كانت بهيرة مدركة تماما لدهاء أمها ونعومتها الملساء ، فقررت أن تحسم الأمر :

ـــ خرجت من المستشفى اليوم إلى المطار لاستقبال إيهاب الذى عاد معى إلى بيته !

ـــ ولماذا لم تخبرينا بوصوله حتى نستقبله نحن أيضا ؟! أليس جارنا كما هو جارك أيضا ؟!

ـــ إنه لا يحب أن يحمل الآخرين أية مشقة فى سبيله !

اندفعت بهيرة إلى غرفتها التى تواجه غرفة نوم إيهاب منذ صباها المبكر ، والتى حاولت أمها مراراً نقلها منها إلى أية غرفة أخرى لكن دون جدوى . ألقت بهيرة بحقيبة يدها السوداء الصغيرة اللامعة على مكتبها المجاور للفراش ، ثم شرعت فى خلع ملابسها وهى تتأمل وجهها فى مرآة الحائط محاولة تتبع بصمات إيهاب عليه ، لكن أمها سرعان ما قطعت حبل تأملاتها المشدود بوقوفها الملح عند باب غرفتها :

ـــ جاء وسيم وظل فى انتظارك منذ الرابعة ظهرا .. حتى يصطحبك إلى حفل مدهش أقامه أحد أصدقائه بمناسبة عيد ميلاد زوجته .. لكن ليس لك فى الطيب

نصيب .. اضطر إلى الذهاب عندما بلغت الساعة السابعة حتى لا يتخلف عن المناسبة السعيدة !

ارتدت بهيرة الروب الصوفى الأخضر ثم جلست على حافة فراشها لتخلع حذاءها الأسود اللامع ثم أجابت أمها دون أن تنظر إليها :

ـــ لم يعد لدى وقت لهؤلاء العاطلين بالوراثة !! حياة الإنسان أثمن وأغلى من أن يبددها فى مثل هذه التفاهات !!

ـــ أعرف آراءك مقدما .. ومع ذلك يستحق وسيم الشكر على اهتمامه بك .. لا أن يتهم بالتفاهة بهذة البساطة !!

ـــ ومن آرائى أيضا أن أقول رأيى بصراحة دون خوف أو حرج !!

ـــ كان الأجدر به أن يعلمك البر بالوالدين والأقارب الذين من لحمك ودمك !

لم تفاجأ بهيرة بتعليق أمها دون ذكر اسمه ! استندت بمرفقيها إلى ركبتيها فى حين وضعت وجنتيها بين كفيها :

ـــ علمنى البر لا الطاعة العمياء .. كما أنه لم يكن أستاذى حتى أتلقى العلم على يديه .. وإنما صديق حميم أتبادل معه الآراء التى لا نتفق فيها أحيانا ... بمنتهى الحرية والصراحة !

ـــ وهل عاد ومعه زوجة إنجليزية ؟! أم أنه لم يعثر على الإنجليزية التى ترضى به زوجة له ؟!

نظرت إلى أمها دون محاولة لإخفاء وميض التحدى :

ـــ لا أجد ضرورة ملحة كى أحدد لك شخصية التى رضيت به ورضى بها !

ـــ وأنا لا أجد سببا معقولا لإصرارك على رفض وسيم ؟!

ـــ وسيم شاب أنيق .. وسيم فعلا .. خفيف الظل .. لطيف المعشر .. يثير البهجة فيمن حوله .. وأية فتاة تتمناه .. لكننى .. للأسف .. لست هذه الفتاة !

لم تجد الأم جدوى فى اللف والدوران :

ـــ وهل حدث بينك وبينه أى اتفاق على أى شئ ؟! أم أنه ليس من حقى أن أسأل

بدافع الخوف والحرص على مستقبل وحيدتى ؟! وليس لأننى أحب فرض نفسى عليك وممارسة السيطرة والسطوة ؟! إذ يبدو أن الأم فى هذا الزمن لم يعد لها الحق فى ابداء مجرد رأيها فى مصير ابنتها !

استراحت بهيرة لهذه المواجهة التى فكرت فى التعجيل بها :

ــ أنا أقدر تماما خوفك وحرصك على مستقبلى .. ولذلك أصارحك بأننا اتفقنا على عقد الخطبة فى الشهر القادم بإذن الله .. على أن يتم الزواج بمجرد الانتهاء من بناء الشقة وتأثيثها !

ــ منذ أن لمحت السيارات المحملة بالرمل والأسمنت والطوب .. استطعت على الفور تخمين ما يجرى !

ــ لم تخب لماحيتك أبداً يا ماما !!

ــ على كل حال .. لقد فعلت كل ما فى وسعى حتى لا يلومنى ضميرى فيما بعد .. على أقل تقدير لن أكون مسئولة عما يمكن أن يقع لك من متاعب !!

ــ فليسترخ ضميرك تماما يا ماما .. فقد تحملت من قبل مسئولية التحاق بكلية الطب .. وأثبت جدارتى بالفعل !

استدارت الأم وهى تتمتم :

ــ كل ما أريده هو استقرارك وسعادتك !

ثم اختفت تاركة بهيرة لأمواج النشوة العائدة إليها لإغراق شواطئها ! كانت جائعة لكن بلا شهية لأى طعام ! كانت متعبة لكن بلا رغبة فى النوم ! كل ما تمنته أن تنفرد بنفسها لتستعيد ما جرى لها مع الحبيب العائد ! نهضت لتغلق الباب ، وتطفئ الثريا الصغيرة ، وتسترخى فى فراشها ، لكنها سرعان ما وقفت خلف خصاص نافذتها لعلها تلمح بصيصا من الضوء منبعثا من غرفة الحبيب ، لكن الظلام كان جاثما على الطابق الثانى كله ، فأدركت أن قلوب الأسرة لا تزال تحيط به منذ لحظة دخوله . استرخت فى فراشها وهى تعتصر الوسادة بين أحضانها وصورة إيهاب تبدد ظلام الغرفة ، وهمساته تداعب أذنيها ، ولمساته تثير القشعريرة فى مسامها ، وقبلاته تدفع بالدماء فى عروقها ، وبالدقات النابضة إلى قلبها الذى تمنى أن يحتوى العالم كله فى لحظة سرمدية من النشوة الجامحة !

٢

تمت الخطبة فى حفل صغير أقيم فى فيلا بهيرة ، وهو ما لم تتوقعه من أمها العاشقة للمظاهر ! صحيح أن رأى إيهاب كان الاقتصار على أفراد الأسرتين بل على أقارب الدرجة الأولى لأن المهم فى نظره هو إتمام العقد أولا وأخيرا ، لكن بهيرة كانت تتمنى حفلا فاخرا مبهجا مثل الحفلات التى حضرتها لصديقاتها وزميلاتها ، خاصة وأن أمها الثرية الأرستقراطية منتها كثيرا بمثل هذا الحفل منذ سنى مراهقتها الأولى . لكن يبدو أنها ربطته بشرط زواجها من وسيم ! ولذلك كانت الأم سعيدة برأى إيهاب حتى تعبر بالحفل المتواضع عن رأيها الفعلى فيه ! وكم تمنت بهيرة أن يساندها إيهاب فى الضغط على أمها لكنه بدا وكأن الأمر لا يعنيه على الإطلاق !! كذلك بدا إيهاب فى الحفل شاردا ، لم يتجاوب مع الحاضرين خاصة أعضاء أسرة بهيرة إلا بابتسامات لا تعنى شيئا ، فى حين كان يميل على أذنها من حين لآخر ليلقى بتعليق هامس على المظاهر الاجتماعية البراقة التى لا تخفى على العين الباحثة الفاحصة وتجسد مدى التخلف الضارب أطنابه فى خلايا المجتمع .

أما وسيم فكان النجم الفعلى للحفل بخفة ظله ، ونكاته التى يلقيها هنا وهناك ، ودعاباته التى جذبت الحسناوات حوله ليتضاحكن ويتأملن شعره الذهبى الذى يغطى أذنيه ، وعينيه الخضراوين ، وبشرته البيضاء النضرة اللامعة ، وشفتيه الدقيقتين الكاشفتين عن حمرة خفية ، وحلته الصوفية البيضاء ، ورباط العنق الأحمر القانى ، والعطر الفواح من أعطافه . وكانت يلدز هانم — أم بهيرة — تتابعه بمنتهى الفخر والإعجاب ، بل وتميل على جارتها — وعلى مسمع من أمه — لتعبر عن مدى اعتزازها بروحه العذبة التى دفعته إلى كل هذه المداعبات المرحة لإحياء الحفل برغم حبه الجارف لبهيرة التى انتظرها طويلا ، ولم تكن من نصيبه فى النهاية . لكن عندما أبدت جارة يلدز هانم إعجابها بالخاتم الماسى الضخم الذى قدمه إيهاب لبهيرة ، سارعت إلى الشرح

بأن أباه يعمل صائغا ولابد أن ثمنه بالنسبة له ليس مرتفعا كما تتصور !

لم يضايق بهيرة مثل نظرات صديقاتها وزميلاتها اللاتى أقيمت لهن حفلات خطبة وزواج كليالى ألف ليلة وليلة . حتى أزواجهن كانوا أكثر أناقة من إيهاب الذى اكتفى بحلة داكنة عادية لم تتناسب مع فستانها الوردى الفاخر الذى سافرت أمها إلى باريس خصيصا لشرائه من أغلى دور الأزياء هناك ، كما لم تنس أن تشترى لوسيم الحلة الصوفية البيضاء التى نالت إعجاب الجميع وثناءهم . أما إيهاب فبدا كيتيم فى مأدبة اللئام ! لم يهتم أبوه وأمه وإخوته كثيرا بالاندماج مع أسرة بهيرة ، بل دار الحديث الهامس بينهم حول أسعار الذهب التى هبطت فجأة ووسائل معالجة الموقف الجديد . ازدادت بشرة إيهاب سمرة على سطح البياض المشع من معظم الحاضرين ، لكن عينيه السوداوين الواسعتين لم تفقدا وميضهما النافذ إلى القلب مباشرة ، وأنفه الحاد المدبب لم يتنازل عن كبريائه ، وشاربه الدقيق مد طرفيه على شفتيه اللتين تميلان إلى اللون البنى الداكن ، وبروزهما المستدير المكتنز الذى علقت عليه يلدز هانم بقولها الهامس لأختها بأنه من المؤكد أنه ينتمى لأصول غجرية ، فهى أدرى بملامح الغجر الذين قابلتهم مرارا فى شبين القناطر عند زياراتها المتكررة لعزبتهم ، وأجابتها أم وسيم بابتسامة راضية للغاية وهى تتابع ابنها بإعجاب لا مزيد عليه . أما أبو بهيرة رجل الأعمال الجاد فكان ينهض من حين لآخر للرد على المكالمات التليفونية العاجلة المتتابعة .

نظرت يلدز هانم نظرة ذات معنى لوسيم فنهض فى الحال ليدير جهاز تسجيل صدح بموسيقى تصم الآذان ثم خفض الثريات الساطعة لتغطى الموسيقى على الضوء الخافت ، وسرعان ما هجم على بهيرة وإيهاب وهو يجذبهما إلى قلب القاعة ليفتتحا الرقص . ولم يكن إيهاب يميل إلى تلك الموسيقى الصاخبة ذات الإيقاعات المجنونة التى لا تناسب وقاره ورزانته ، لكنه اضطر إلى الهبوط مع بهيرة من على مقعديهما ، والحرج يقطر من جبهته مع حبات العرق المبكر ، ليأتى بحركات كمن أصابه مغص مفاجئ فأصبح يتلوى أمام بهيرة التى تلوت بدورها ببساطة تلقائية دون أدنى حرج . وسرعان ما نهض الجميع حولهما بنفس الحركات المتشنجة . لم يجد أيهاب بدأ من مجاراة هذا

السخف المجنون ، لكنه تمنى أن تنتهى الليلة بأسرع ما يمكن حتى يعود إلى طبيعته . فكم كره أن يمثل دورا غير دوره فى الحياة ؟! أما يلدز هانم فقد مالت على أختها بصوت عال هذه المرة : حتى الرقص لا يجيده !! فعلقت أم وسيم : هو شئ ووسيم شئ آخر تماما !!

وسرعان ما تألق وسيم فى حركاته الرشيقة الجذابة لدرجة أن الجميع توقفوا عن الرقص ليتابعوه بالتصفيق والدقات على الموائد الصغيرة ، وانتهز إيهاب الفرصة ليجذب بهيرة من يدها إلى مقعديهما حيث عادا إلى الجلوس ، وهو يلهث ويتصبب عرقا ، ويحاول كتمان اشمئزازه من حركات هذا الشاب الذى وصفته أمه ذات يوم بأنه مدلل أكثر من اللازم وكأنها كانت تقصد أنه مخنث رقيع ! لكن فى لحظة شرود تمنت بهيرة أن يملك إيهاب مثل هذه المواهب حتى يصبح محط إعجاب الجميع ، خاصة بعد أن صاحت صديقة عمرها إيناس بقولها : يجنن !! وذلك برغم جلوسها إلى جوار زوجها الذى انهمك فى الحديث مع فاتنة أخرى !

مالت الجارة على أذن يلدز هانم :

— إذا كان لا يستحق الزواج من ابنتنا .. فلماذا وافقت ؟!

مطت يلدز هانم شفتيها فى استياء يائس :

— وهل أصبح للأم رأى فى هذا الزمن الغريب ؟!

صمتت لحظة ثم أكملت عندما رأت نظرات الجارة المتشفية :

— لكنه على كل حال سيسافر إلى إنجلترا للحصول على الدكتوراه .. وستصحبه بهيرة .. وأعتقد أنه سيرجع مختلفا تماما عما هو عليه الآن !!

واصلت الجارة استفهاماتها المسمومة :

— لكنه كان فى إنجلترا وعاد كما هو ؟!!

قررت يلدز هانم حسم الحوار حتى لا يدخل فى متاهات هى فى غنىً عنها :

— هذه المرة ستكون بهيرة معه !

واستمر الحفل إلى ما بعد منتصف الليل حين بدأ المدعوون فى الاستئذان الواحد بعد

الآخر . لكن وسيما ظل مزابطا مع أمه يواصل دعاباته التى لم ير إيهاب فيها سوى تفاهات وسخافات ، مما اضطره إلى الانتظار برغم إجهاده وبرغم احمرار النعاس فى عينى بهيرة ، إذ لا يعقل أن يترك خطيبته وحبيبة عمره فى حين يواصل هذا الثقيل التافه السخيف تودده الخبيث والذى لم يعد من حقه منذ تلك الليلة ! لكن الساعة جاوزت الثانية ، وزحف التثاؤب على أفواه المتبقين ، ووسيم يواصل مهمته بهمة لا تعرف الكلل ، مما اضطر إيهاب إلى الاستئذان ليلحق بأسرته التى لم تألف السهر وتضييع الوقت والجهد فيما لا يفيد !

وبمجرد خروج إيهاب استأذنت بهيرة بدورها إلى حيث احتوتها غرفة نومها لتلقن وسيما درسا فى الذوق . تخلصت من ثوبها الوردى ، ودفء مارس المبكر على غير العادة يسرى فى عروقها . وعندما استرخت فى قميص نومها الوردى أيضا لم يزرها النوم برغم النعاس الذى جثم على عينيها عندما كانت إلى جوار إيهاب ، والذى استحال إلى تثاؤب صريح ! لكنها لا تعرف ماذا جرى لها عندما انفردت بنفسها فى الفراش المظلم ؟! حاولت أن تسترجع أحداث الليلة وصورها ومعانيها ! الليلة التى تصورت أنها ستكون من أسعد ليالى عمرها ! لكن إحساسا غامضا غير مريح طاردها ليعكر صفوها ! هل كان وسيم السبب ؟! أم حركات أمها وخالتها ؟! أم شرود إيهاب وكأن الأمر لا يعنيه فى كثير أو قليل ؟! أم نظرات صديقاتهن اللاتى كان لابد من دعوتهن ؟! واللاتى لم تخل عيون بعضهن من شماته واضحة ؟! صحيح أن الجوهر هو الأساس كما يؤكد إيهاب دائما ، لكن هناك من لا يفهمون سوى لغة المظهر الخادع ! وأية فتاة — مهما بلغت من علم وثقافة — لا تحب أن تبدو أقل من صديقاتها وزملائها ، حتى لو كانت متأكدة بينها وبين نفسها أنها أرق منهن بمراحل !

لم تجد إجابة محددة شافية على هذه الاسئلة المتداخلة المتتابعة المتراقصة أمام بصيرتها فى ظلام الغرفة مع وميض الخاتم الماسى والذى نسيت أن تخلعه مع التاج الصغير القابع على قمة خصلاتها . خلعتهما ومدت يدها بهما على المكتب المجاور للفراش . وافتعلت التثاؤب كى تجبر النعاس على أن يخلصها من هذه الحيرة التى لا معنى لها ، لكن سلطان

النوم لم يتعطف عليها إلا مع بشائر الفجر الخافت وسؤال جديد يضيق الخناق عليها :

ـــ السفر بعيدا عن هذا الجو ولمدة معقولة من شأنه أن يجعل الأمور طبيعية .. فهى لا تستطيع أن تقاطع أمها وأسرتها وهى تعيش فى فيلا مجاورة .. لكن ماذا يمكن أن يحدث لو أصر إيهاب على عدم السفر ؟!

٣

كانت ساعة جامعة القاهرة تدق الرابعة مساء عندما خرج إيهاب بسيارته السوداء الفارهة من البوابة الحديدية الضخمة بعد لقاء استمر حوالى ثلاث ساعات مع أستاذه الدكتور جوهر الذى رحب بحماسه الدافق لدراسة أية ظاهرة اجتماعية جديدة مصرية فى رسالته للدكتوراه ، وطلب منه اقتراح أكثر من موضوع لاختيار الأنسب والأكثر فائدة للحياة العملية ، خاصة بعد تطبيق سياسة الانفتاح الاقتصادى التى أحدثت هزة عنيفة للمجتمع كادت أن تقلبه رأسا على عقب ، وأوجدت أنماطا جديدة للعلاقات الاجتماعية سواء بين الأفراد أو الفئات أو الطبقات ، أنماط جديرة بالدراسة والتحليل لتأثيرها المباشر واليومى على سلوكيات الفرد والجماعة ، وحتى نتبين مواقع الأقدام التى أوشكت أن تضل الطريق !

قضى إيهاب أكثر من شهر فى البحث عن الموضوع المناسب ، بعد أن أعفاه الدكتور جوهر من المحاضرات لأن العام الدراسى لم يكن قد تبقى منه سوى ما يزيد على شهر بأسبوع أو أسبوعين ، ولم تكن هناك ضرورة ملحة لتغيير الجدول ودس محاضرات له . وقام إيهاب باستشارة زملائه ، ولقاء المختصين فى إصلاحيات الأحداث ، وقراءة المراجع التى تدور حول المتغيرات الطارئة حديثا على المجتمع المصرى ، وسؤال رجل الشارع فى بعض الأحيان حول موقفه من الهرم الاجتماعى المقلوب ... الخ وخرج من بحثه بعدة موضوعات تدور حول العلاقات الجديدة بين العامل وصاحب العمل فى مصانع القطاع الخاص ، ومأساة الصفوة المثقفة التى تراجعت من مقدمة المجتمع إلى مؤخرته ، ومجتمع القرية الذى انتقل من مرحلة الإنتاج إلى مرحلة الإستهلاك ، وأثر المعتقدات الشعبية على سلوك رجل الشارع ، والعوامل الجديدة التى تهدد كيان الأسرة المصرية ، وعلاقة التنمية المادية بالتخلف الثقافى ، وصراع المرأة المصرية فى مجتمع يحكمه ويتحكم فيه الرجل .... الخ .

عرض إيهاب هذه الموضوعات وغيرها على الدكتور جوهر وناقش معه كل احتمالاتها ومعظم عناصرها ، ورحب أستاذه بها لكنه أضاف أنه لابد أن يكون متحمسا لموضوع منها بالذات ، لأن الحماس فى نظره نصف النجاح إن لم يكن كله . لكن إيهابا بكل الصدق الذى عرف عنه ، صارح أستاذه بأن معظم الموضوعات عنده سيان ، ولذلك فهو لا يزال فى حيرة من أمره لأنه لم يجد الموضوع الذى يشعل حماسه الشخصى ، وهو وإن كان قادرا على دراسة أى من هذه الموضوعات التقليدية ، إلا أنه يريد موضوعا فريدا فى نوعه بحيث يملأ فكره ووجدانه تماما . عندئذ نصحه الدكتور جوهر بالتروى ، فهو لم يعد من إنجلترا إلا منذ شهرين فقط ، وإذا لم يقتنع من تلقاء نفسه بالدراسه فى مصر ، فيمكنه العودة إلى إنجلترا فى بداية العام الدارسى القادم بعد أن وردت لقسم الاجتماع ثلاث منح للدراسة هناك ، اثنتان منها للماجستير والثالثة للدكتوراه . ولا يجد من يرشحه لها سواه ، خاصة وأنه من الصعب رفض منحة أو تأجيلها ، فإن هذا من شأنه أن يؤثر على اهتمام الجامعات الأجنبية بالجامعات المصرية .

تذكر إيهاب إلحاح بهيرة عليه للسفر بأسرع ما يمكن ، وكان على وشك أن يبدى موافقته ، لكنه تراجع فى آخر لحظة ، فلا يصح له أن يتخذ قراراً بناء على ضغط من بهيرة ، هو فى حقيقته ضغط من أمها . ولذلك وعد الدكتور جوهر بالمزيد من البحث والتفكير ، وقرر فى الوقت نفسه أن يخفى أمر منحة الدكتوراه عن بهيرة حتى لا ترتب أمورها بناء عليها ثم يجد نفسه أمام الأمر الواقع !

انطلقت السيارة السوداء الفارهة مارة بمستشفى قصر العينى ، فتذكر الأيام الحلوة التى كان ينتظر فيها بهيرة فى سيارته لحين خروجها من المحاضرة ، واصطحابها أحيانا إلى مكان خلوى يراقبان منه غروب الشمس ويناقشان أحلام المستقبل فى نشوة متدفقة بالهمسات واللمسات والنظرات وأحيانا القبلات ! وها هى الآن قد أصبحت خطيبته ، وتحقق أول حلم . لكن يبدو أن الحلم عندما يتحول إلى واقع يتطلب مواجهة من نوع جديد حين يتكشف المعدن الحقيقى للإنسان ومدى صلابته فى التصدى لأمواج الواقع الذى سعى إليه بنفسه . فقد أصبحت بهيرة تعانى أشد المعاناة

من ضغوط أمها المتصاعدة لدرجة أن ذكرها فرض نفسه على معظم أحاديثهما برغم محاولاته المستميتة لتجاهل وجودها فى حياتهما . شنت على ابنتها حربا نفسية ، خبيثة ، طويلة النفس ، هادئة ، ملتوية ، لا تمل ولا تسأم مع تردد وسيم شبه اليومى على البيت بحجة السؤال عن صحة خالته ! لكن إيهابا كان يمنى نفسه بأنه سرعان ما تشق الأمور مجراها الطبيعى ، خاصة وأن بناء الشقة وتأثيثها جاريان على قدم وساق ، ويوم تنتقل بهيرة إلى بيته لن يجرؤ هذا الوسيم على أن يأتى ليزورها بحجة السؤال عن صحة ابنة خالته ، وإلا كسرت ساقه !

كان إبريل يشع دفئا مبكرا أكثر من اللازم فى تلك الفترة من العام ، فتنبأ إيهاب بصيف ساخن لابد أن يعوضه عن شهور البرد والصقيع والجليد التى قضاها فى لندن أمام المدفأة . أدار مفتاح جهاز التسجيل فصدح بسيمفونية النيل التى يعشقها لأبى بكر خيرت ، والتى كانت نعم الرفيق له فى أيام الغربة ! عاد إلى التفكير الحائر بين الموضوعات المقترحة وبين السفر مرة أخرى إلى إنجلترا ، وابتسم ابتسامة لم تخف عليه مرارتها الممزوجة بالسخرية فى مرآة السيارة عندما أكد لنفسه أنه لو وافق على السفر فإن هذا لا يعنى سوى أنه ترك مقاليد حياته لتسيرها يلدز هانم كما تهوى ! كيف يسمح لنفسه بهذا وهو الذى لم يسمح لأبيه نفسه بالتدخل فى قراره يوم اختار الالتحاق بكلية الآداب وبقسم الاجتماع بالذات ولم يتعد السابعة عشرة من عمره ، فى حين كان يدرك رغبة أبيه الدفينة فى الالتحاق بكلية التجارة أو الاقتصاد والعلوم السياسة حتى ينضم إلى أخويه فى إدارة المحل الكبير ؟ فقد كان إيمان أبيه — الذى لم يدَّع الأرستقراطية برغم قدرته على هذا والذى لم يكمل تعليمه — مثل إيمان أستاذه الدكتور جوهر تماما ، بأن حب العمل هو سر النجاح فيه ! فهل يمكن أن يأتى اليوم الذى تستطيع فيه امرأة مثل يلدز هانم ، بهذه التفاهة والسطحية ، أن تخطط له مستقبله ، وأن يرضخ لها لينال رضاءها !! فلتذهب هى ورضاؤها إلى حيث ألقت !

إن المشكلة الراهنة تتمثل فى أن بهيرة فتاة مدللة رقيقة كالنسمة المعطرة ، صافية القلب كالماء الرقراق ، اعتادت الحب والتدليل من جميع المحيطين بها وفى مقدمتهم

أمها ! فهل يمكن أن تواصل الصمود فى الشهور القادمة وقد حرمتها أمها هدوء البال ؟! إنها تمر باختبار حاسم لمعدن صلابتها التى سوف يحتاج إليها بعد الزواج الذى يعتقد أنه مساندة متبادلة بين الطرفين وليس عبئا جديدا على كتفيه ! فإذا فشلت فى الصمود فى هذه الفترة القصيرة التى لن تتعدى ثلاثة أو أربعة شهور على أكثر تقدير ، فإنه من الصعب عليه أن يتنبأ بزواج قائم على صخرة راسخة !! كذلك فإنه لن يعود إلى إنجلترا إلا إذا فشل فعلا فى البحث عن الموضوع المصرى الصميم الذى يقتنع به تماما !

بلغت السيارة مشارف المقطم الذى افترشته شمس الأصيل ، وهو مستغرق تماما فى أفكاره وخواطره المتلاطمة لدرجة أن أبواق السيارات وضجة الطريق لم تصل إلى أذنيه ! كم أحب الصخور الذهبية المستكينة للمسات الأشعة المسترخية قبل الرحيل ، وهى الصخور التى سرعان ما تتقمص وجوها جهمة داكنه قاسية بعد الغروب !؟ كم أحب الهواء النقى الجاف والسكون الصافى الذى لا ينطق إلا بأصوات الطبيعة الجليلة !؟ حتى صوت محرك السيارة تردده جنبات الصخور كما لو كانت ترحب بها وبصاحبها الذى واصل صعوده فوق الطريق الملتوى حتى بلغ الربوة التى يقع عليها بيته . لاحظ سيارة بهيرة إلى جوار نفس الطوار ثم لمح خصاص غرفة نومها مفتوحا . ترك سيارته إلى باب الفيلا ليفتحه ويفاجأ بأمه تنهض من على أريكة المدخل ، وكأنها كانت فى انتظاره . أخبرته بأن بهيرة مرت عليهم منذ حوالى ساعة ثم سألت عنه مرتين بالتليفون . سألها فى لهفة :

— هل وقع شئ ؟! هل الأمر عاجل إلى هذا الحد ؟!

— يبدو كذلك !

— ألم تقل شيئا عنه ؟!

قالت العجوز الطيبة وهى تضم الروب البنى حول جسدها البدين :

— لم أفهم ما قالته على وجه التحديد !! لكن يبدو أنها كانت تتكلم عن سفر إلى البلد ؟!

ـــ بلد ؟! أى بلد ؟!

ـــ يمكنك أن تسألها !

ذهبت الأم إلى التليفون الموضوع على مائدة رخامية لترفع السماعة لكنه أسرع بقوله :

ـــ سأذهب إليها بنفسى !

ثم عاد أدراجه هابطا فوق درجات السلم الرخامى ، ومسرعا فوق الطوار ليلمح بهيرة خلف زجاج غرفتها المغلق ، وقبل أن يصل إلى الباب الحديدى المطعم بالزجاج الملون ، كانت بهيرة تفتحه وهو يسألها :

ـــ خيرا ؟! أى سفر ؟!

فابتسمت ابتسامتها العذبة وجذبته فى رفق عبر قاعة وغرفة زاخرتين بالأثاث العريق إلى شرفة فسيحة تقع القاهرة عند أقدامها ، تحت وهج الغروب ووسط سكون الشفق . فالمدينة الصاخبة المزدحمة بالعربات والناس والأتربة والأزقة والحوارى والأوحال تبدو من هذه الشرفة وكأنها تحولت إلى لوحة بريشة فنان رومانسى أو تأثيرى لا يرى سوى وميض الألوان وانعكاس الظلال فى صمت مهيب لا يقطعه سوى صوت الفراغ ، ورفيف الهواء ، ونباح بعض الكلاب البعيدة .

هدأ المشهد من لهفة إيهاب وهو يملأ عينيه بجمال بهيرة ، وعذوبة ابتسامتها ، وبروز صدرها الهرمى فى البلوزة الصوفية البيضاء الخفيفة ، واستدارة ساقيها فى السروال الأزرق الضيق . ألقت برأسها إلى الخلف فى دلال فتدفقت خصلاتها البنية الفاتحة اللامعة التى حبستها فى حلقة ذهبية صغيرة فبدت كذيل الحصان العربى الأصيل :

ـــ أمس كان بابا فى العزبة ليتابعها بنفسه برغم مشاغله العديدة .. وفوجئ بأن زوجة ناظر الزراعة مريضة منذ شهر ، وقد حلف بالطلاق ألا يعرضها على طبيب رجل .. ولسوء حظها كانت الطبيبة الوحيدة فى المستشفى الأميرى قد نقلت من شبين القناطر منذ شهرين .. ولا توجد طبيبة فى عيادة خاصة هناك !!

قاطعها إيهاب مستفهما :

ــ وهل يعقل أن تخلو مدينة مثل شبين القناطر من الطبيبات ؟!

ــ هناك طبيبة للعيون .. وأخرى للأنف والأذن والحنجرة .. وثالثة للأسنان .. وكلهن رفضن بطبيعة الحال علاجها .. فهى فى حاجة كما تعلم إلى طبيبة أمراض باطنة !

وضع إيهاب ساقا على ساق وفك أزرار الجاكتة :

ــ وبالتالى تصبح الدكتورة بهيرة الدخاخنى المنقذ الوحيد للمرأة البائسة ؟!

وضعت ساقا على ساق هى الأخرى وقلدت عنجهية أمها فى دعابة مرحة :

ــ طبعا !

ــ ومتى السفر بإذن الله ؟!

ــ غداً .. وهى فرصة لنقضى يوما معـا فى الريف وبين أحضان الطبيعة !

جذب يدها وقبلها فى وله ساخن :

ــ إننى أعشق حماسك الإنسانى الكبير لمساعدة الآخرين !!

ــ سأذهب رغم أنف ماما .. فهى تؤمن بأننا لسنا مسئولين عن جهلهم وتخلفهم .. لكننى أكدت لها أننى لابد أن أخدم من يقومون بخدمتنا على سبيل تأدية الواجب وليس من باب التفضل والتعطف !

فى لحظة كانت يلدز هانم تقف بقامتها الرشيقة لتسد باب الشرفة فانتفض إيهاب واقفا وهو يمد يده التى شدت عليها برقة وترفع :

ــ أهلا أستاذ إيهاب !

ثم تركت يده لتلتفت إلى بهيرة :

ــ هل لازلت مصرة على رأيك ؟!

تأرجحت بهيرة على الساقين الخلفيتين لمقعدها :

ــ لا أستطيع يا ماما أن أحنث بقسم أبو قراط !

ــ أنت حرة .. لكن أحب أن أقول لك للمرة الأخيرة أن الطريق إلى العزبة ضيق وزاخر بسيارات الأجرة والنقل المارقة يمنة ويسرة !!

ـــ لا تخافى يا ماما .. سأذهب فى صحبة إيهاب !

التفتت إليه برغم أنها وجهت كلامها إلى ابنتها :

ـــ لا يصح أن يضيع وقته من أجل مهمة سخيفة كهذه !!

كان إيهاب لا يزال فى وقفته فقال بما يشبه الهمس :

ـــ أنا تحت أمرها يا فندم ! كما يشرفنى أن تشرفينا سيادتك لقضاء يوم لطيف فى هدوء الريف !

حسمت الموقف وهى تستدير :

ـــ لا أحب أن أقضى يوما مع الذباب والبعوض وروث البهائم !

ثم اختفت ليعود إيهاب إلى جلسته فى حرج باسم ، وبهيرة تواصل التأرجح الذى ازداد توترا بعض الشئ :

ـــ هذا هو الأسلوب اليومى فى الحديث والتفاهم !

نظر إيهاب فى توجس وخيفة إلى باب الشرفة المفتوح ، وعندما تأكد من خلو الغرفة جذب يد بهيرة وقبلها فى دعابة حارة ضاحكة :

ـــ غدا فى الصباح الباكر ننطلق صوب الإنسانية المعذبة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه .. برغم أننى خسرت نقطة جديدة لأننى بهذا أشجعك على عصيانها !

ـــ إنها تعلم جيدا أننى عزمت على السفر سواء معك أو بمفردى !

ـــ وهل تحتملين يوما بأكمله بعيدا عنى ؟!

ـــ سبق لك أن احتملت أكثر من عامين بعيدا عنى !

وضع إيهاب يمناه على قلبه محاولا التخلص من الجدية الطارئة :

ـــ آه .. أصبتنى فى مقتل !!

واصلت حديثها الجاد على عكس ماتوقع إيهاب :

ـــ لن يستغرق الكشف أكثر من نصف ساعة .. وأمامنا اليوم بأكمله .. فنحن لم نقض يوما كاملا معاً منذ الخطبة !

— تتوق نفسى من الآن لهذا اليوم الحالم !

— قل بإذن الله !

— كل شئ بإذنه طبعا !

وتبادلا الضحكات العذبة التى ردد صداها السكون الجليل .

كانت السيارة السوداء الفارهة تطوى الطريق الزراعى الواسع ، وجهاز التسجيل يصدح بموسيقى خفيفة صبغت الأشجار والنخيل والحقول والسواق على الجانب الأيمن بمشاعر الانطلاق التى حرم منها إيهاب منذ عودته من الخارج . داعب بهيرة متسائلا :

ـــ هل تعرفين الطريق جيدا ؟! أم أننا سندخل فى تيه يمكن أن يضيع اليوم بأكمله !! علينا وعلى الإنسانية المعذبة ؟!

ـــ لا تخف .. إننى أحفظه عن ظهر قلب .. كنت تسلية أبى المفضلة كلما ذهب لمباشرة شئون العزبة .. حتى بعد أن التحقت بكلية الطب !!

عاد إلى مداعبتها بنفس المرح :

ـــ لو واصلنا السير بهذه السرعة على هذا الطريق فسنجد أنفسنا بعد ساعتين فى الإسكندرية !!

ـــ سنتجه يمينا إلى طريق منيا القمح !

قالتها بهيرة وهى تحدق فى الحقول والأشجار التى تدور مع سرعة السيارة بحثا عن الطرق الجانبية القادمة ثم أضافت وهى تشير أمامها :

ـــ أظنه هذا الطريق !!

علق ضاحكا :

ـــ إن بعض الظن إثم .. لكن سأهدئ من السرعة على أية حال !

وعندما توقف عند مدخل الطريق الجانبى لم يجد أية لافتة تدل عليه ، وبهيرة تنظر فى حيرة وحرج وخجل لأن الطرق كلها متشابهة ، ولأن الطريق كان مسئولية أبيها من قبل ، و لم يكن عليها سوى أن تمتع البصر بمناظر الخضرة التى تمتد حتى الأفق . لم يشأ إيهاب أن يضاعف من إحراجها بعد أن أيقن أن عليه أن يعتمد على نفسه ! لمح فلاحا

أحنى الزمان ظهره وملأه بالتجاعيد يسير إلى جوار حماره المحمل بالتبن ! أسرع إليه وهو يسأله فى لهفة عن طريق منيا القمح فأوضح له فى إقتضاب مرتعش بأن عليه أن يتجه يمينا إلى أول طريق قادم . شكره وعاد إلى مقعده لينطلق بالسيارة وقد غطت الحمرة وجه بهيرة قائلة :

— لم أبتعد كثيرا عن طريق منيا القمح !

لم يترك الموقف يمر دون قفشة :

— فارق مئة متر يمكن أن يؤدى بنا إلى أسوان !

لم تصمت بهيرة التى لم تكن تحب الاستسلام للهزيمة بسهولة :

— على كل حال .. أنت القائد ولك أن تقرر ما تشاء .. لأن المسئولية فى النهاية مسئوليتك !

— لست ديكتاتورا كما تتصورين !! فأنا أحب إشراك من يعنيهم الأمر فى اتخاذ القرار !! هذه هى الديمقراطية كما تعلمتها !

— حتى فى قيادة السيارات ؟!

— فى كل شئ !

بلغ الطريق الجانبى فوجد عند مدخله لافتة كتب عليها « منيا القمح » ! كان طريقا ضيقا والسيارات تمرق إلى جانبه تكاد تلمسه :

— لأول مرة ألتمس العذر لأمك .. فهو طريق لا يأمن له سوى السائق المحترف !

— الحمد لله .. على الأقل هناك شئ اتفقنا عليـه !

خضع الطريق لرائحة الجلة والتبن والحشائش المحترقة ، فبدا بعض الإمتعاض على وجه بهيرة التى جلست مشدودة إلى مقعدها وهى تتابع السيارات المنطلقة . ران الصمت حتى لا يتشتت انتباه إيهاب الذى انهمك بكل أعصابه فى القيادة حتى مفترق للطرق ، فأشارت له بثقة كاملة هذه المرة بأن يسير بحذاء قضبان السكك الحديدية حيث سبقا القطار الذى فقد كل لون له ، وانعكس صدأ عرباته على العجائز لابسات السواد داخله ! ومع ذلك نال إيهاب وبهيرة نصيبهما من الدوامة الترابية التى دارت

مع عجلاته وتكاثفت عند مؤخرته ! علق إيهاب فى دهشة لم تخف على بهرة :

ـــ كأننا انتقلنا فى نصف ساعة فقط من قارة إلى قارة !! القاهرة تشبه أية عاصمة عالمية فى الربع الأخير من القرن العشرين .. فى حين يبدو الريف المصرى أكثر تخلفا عما كان عليه أيام الفرعنة !! أما الريف الإنجليزى فيبدو أكثر رقيا وجمالا من لندن ومانشستر وبيرمنجهام !!

ـــ إنك لا تستطيع أن تتخلى أبداً عن نظرة عالم الاجتماع إلى الأمور !!

ـــ علم الاجتماع حياتى !

داعبته متسائلة وهى تربت على كتفه :

ـــ وأنا ؟!

ـــ بعدك طبعا ..

بلغت السيارة مزلقان خلفه محطة للسكك الحديدية فأشارت بهرة :

ـــ ها هى شبين القناطر أخيرا !

ـــ حمدا لله على السلامة !! أى طريق نشق ؟!

ـــ سر بحذاء بحر شبين ولا تترك فرعه الرئيسى ستجد نفسك بعد عشر دقائق فى قلب العزبة !!

هدأ إيهاب من السرعة حتى كادت أن تنعدم بين الفلاحين الذين تابعوا السيارة السوداء الفارهة بعيون من يشاهدون طبقا طائرا قدم من الفضاء الخارجى . تابع إيهاب لافتات الشوارع الضيقة ، الصاعدة ، الهابطة ، الزاخرة بأكوام القمامة، وجحافل الذباب ، وروث البهائم ، وتلال التراب ، وصياح طوابير الأوز التى تبدو ناصعة البياض برغم كل ما يحيط بها ، ونباح جماعات الكلاب الكثيرة العدد والتى يبدو الكبرياء والفخر فى عيونها لأسباب غامضة ، وخوار الثيران بين صغار العجول والحمير والبغال . ومع ذلك نام السكون على كل الأشياء وسرى النعاس ، فنسى إيهاب حمى القاهرة وضجتها التى تصم الآذان . أحاط بالترعة أو ببحر شبين سور حجرى تناثرت النسوة أسفله لغسيل الملابس بطول ضفتيه ، عاريات السيقان فى

المياه الرمادية أو شبه السوداء . كسرت بهيرة حاجز الصمت :

ـــ كثيرا ما قال لى بابا إن منظر النسوة شبه العاريات يذكره دائما بالفيلم الإيطالى « مرارة الأرز » حيث غاصت السيقان الإيطالية المثيرة فى حقول الأرز المغمور بالمياه! وبالتالى فنحن لا نقل عن إيطاليا فى شئ !!

عاد إيهاب إلى ضحكاته المرحة :

ـــ ليست أكثر إثارة من ساقيك !!

تأملت بهيرة فى سعادة ساقيها فى السروال الأسود الضيق ، وإيهاب يتابعها . رفعت عينيها لتجد على مرمى البصر الأسوار الحجرية للعزبة :

ـــ ها هى العزبة !!

تهادت السيارة حيث البوابة الواسعة التى جلس عندها بعض الفلاحين . كان أحدهم يشرب من زير موضوع كسبيل ماء فألقى بالكوز داخله وهجم على السيارة مهللا :

ـــ الست الصغيرة .. يا أهلا وسهلا !!

واعقبه بقية الفلاحين فى هرولة خلف السيارة التى دخلت فى بطء شديد حتى توقفت أمام بيت صغير من طابقين ، وكهل يرتدى حلة قديمة يهرع على درجات السلم الحجرى ، وسبحة طويلة صفراء حول ذراعه التى امتدت لتفتح باب السيارة وبهيرة تهبط سعيدة بترحيب الكهل :

ـــ يا ألف أهلا .. وألف سهلا .. يا ست بهيرة !!

ـــ كيف حالك يا عم شعبان ؟!

ـــ ألف حمد .. وألف شكر !!

ـــ وزوجتك ؟!

ـــ والله يا ست بهيرة .. إذا انخفضت الحرارة لا تلبث أن تعاودها مرة أخرى !! وأحيانا تصيبها رعشة وعرق غزير !

ـــ لقد جئت خصيصا لأكشف عليها !

كان عم شعبان على وشك أن يقبل يدها لولا أنها انتزعتها منه ، ثم نظرت إلى إيهاب الذى رابط فى مقعده :

— هيا بنا !!

— أعتقد أنه لا لزوم لى فى مهمتك !!

— ماذا تقول ؟! سأكشف عليها فى دقائق .. ثم نتناول الإفطار سويا !

هبط إيهاب فأسرع عم شعبان للترحيب به أيضا ، وقادهما إلى غرفة المسافرين فى حين تحلق الفلاحون حول السلم الحجرى لمشاهدة الست والبك . فى الغرفة امتد كليم متآكل ليغطى أرضها الخشبية تحت مقاعد وأرائك من الطراز الأسيوطى ، وصورة كبيرة لرجل متجهم ذى شارب يقف عليه الصقر ، وعلى رأسه طربوش قصير ، وعلى صدره نياشين انطفأ بريقها للتراب المتسلل من شرخ الزجاج والمتكاثف على ورقها المقوى . استأذنت بهيرة واختفت فى حين جلس عم شعبان فى مواجهة إيهاب ، يواصل ترحيبه الملح بصفته عريس الست بهيرة التى وصفها بصفات الملائكة ، وإيهاب يؤمن على كل ما يقوله دون أن يضيف جديدا ! فقد وفرت ثرثرته عليه مشقة البحث عن موضوعات يملأ بها فراغ الصمت ! ومن حين لآخر كان يتسلل من خصاص النافذة نهيق حمار أو خوار ثور أو نباح كلب ، لكن السكون كان سيد الموقف ! ومعه أنفاس الربيع التى أغرقت الحقول بالوهج والدفء !

سرعان ما عادت بهيرة فانتفض عم شعبان واقفا . قدمت إليه ورقة وهو يتساءل فى لهفة :

— خيرا يا دكتورة .. إن شاء الله شفاؤها على يديك !

— عندها ملاريا .. اصرف هذه الأدوية من الصيدلية .. وسوف تشفى بإذن الله فى ظرف ثلاثة أيام .. لكن لا بد من إجراء تحليل لدمها حتى يتم شفاؤها !!

— إن شاء الله .. إن شاء الله ..

خرج عم شعبان مهرولا فى حين جلست بهيرة إلى جوار إيهاب باسمة :

— انتهت المهمة والحمد لله ..

أشار إيهاب إلى الصورة الأثرية متسائلا :

— الدخاخنى الكبير ؟!

— فعلا !

— ولماذا لم أر صورته فى بيتكم ؟!

— ماما لا تحب سوى اللوّحات الفنية !

دخل ثلاثةٌ فلاحون يحملون مائدة خشبية قصيرة السيقان ، عريضة السطح ، زاخرة بالفطير المشلتت ، وأنواع الجبن الأبيض والقريش ، وعسل النحل ، والخبز المرحرح ، واللبن الطازج ، والشاى الأسود ، والفول المدمس ، والبليلة . وضعوا المائدة أمامهما ثم خرجوا دون أن يرفعوا عيونهم بنظرة واحدة إليهما. مدت بهيرة يدها تمزج قطعة من الفطير بالعسل وتقدمها لإيهاب الذى أخذها مبتسما فى تساؤل :

— هل هذا هو الطعام المعتاد عند الفلاحين ؟!

ضحكت وهى تصب اللبن والشاى فى الكوب :

— محلاها عيشة الفلاح .. هكذا علمنا عبد الوّهاب !

— الفلاح الذى لا يأكل سوى الخبز البتاو والمش الحافل بالدود ؟!

— إننا لن نغير الكون !

— إذاً .. ما الفرق بين الإنسان وبقية الكائنات الأخرى ؟!

— لن نضيع الإفطار اللذيذ فى الفلسفة !!

تناول ملعقة من البليلة الممزوجة باللبن :

— ألست خائفة على قوامك ؟!

— إنه يوم واحد قد لا يتكرر إلا بعد سنوات !!

استمرت القضمات والرشفات وقد التصقت بهيرة فى جلستها بإيهاب الذى سرعان ما انتهى من طعامه ، ونهض يتابع الأبقار والأشجار عبر النافذة ذات القضبان الحديدية . لحقت به بهيرة لتقف ملتصقة به :

— كيف تحب أن تقضى اليوم ؟!

— أريد أن أتجول فى المدينة .. لا يعقل أن تكون خبرتى بالريف الإنجليزى أفضل وأشمل من الريف المصرى الذى لم أعرفه إلا فى الروايات والأفلام !!

— بالسيارة أم سيرا على الأقدام ؟!

— المدينة كلها لا تحتمل جولة أكثر من ساعة !

— كما تحب !

خرجا حيث كان عم شعبان فى انتظارهما على قمة السلم الحجرى :

— تفضلوا لزيارة العزبة !

أجابته بهيرة فى اقتضاب أرستقراطى :

— سنتجول فى البلد !

هرع خلفهما فى صمت حتى البوابة الواسعة ، وظل يداعب حبات المسبحة حتى ابتعدا إلى ضفة بحر شبين ! وقفا أمام هويس يبدو أن استخدامه توقف منذ نصف قرن . فقد علاه الصدأ وتجمعت أمامه مياه سوداء لامعة امتزجت بقمامة متخمرة . سأل إيهاب بهيرة :

— هل هذه هى المياه التى يشربها أهالى البلد ؟!

داعبته فى سعادة غامرة :

— لا تحمل همهم .. هناك صهريج عريق يكرر المياه .. ويقع وسط خضرة وأشجار سامقة !!

استأنفا سيرهما فى تؤدة وعيون الفلاحين والفلاحات تتابعهما من طرف خفى وفى حياء بالغ إذ يبدو أن بهيرة معروفة للجميع ، وأن كل أخبار الأسرة فى القاهرة تصل أولا بأول إلى شبين القناطر بدليل أن عم شعبان رحب بإيهاب بصفته خطيبها دون أن يخبره أحد بذلك عند قدومهما .

كان بحر شبين يمتد بتفريعاته كأخطبوط يحتوى البلدة بين أصابعه . على الضفة الشرقية يمتد شارع الشرقاوية الشرق وشارع وابور الإنارة ، وعلى الضفة الغربية شارع قنطرة الشبينى . أما الجسور المتعددة الممتدة فوق الترعة فبعضها خشبى ضيق

يكاد يتهاوى ، والبعض الآخر من الأسمنت ويحتمل مرور السيارات عليه . أما اللوريات والأتوبيسات فتجرى على الطريق الرئيسى المرصوف الذى يربط المدينة بمدن القليوبية . كما تناثرت أزيار السبيل هنا وهناك ، ونعست الأبقار والجاموس بين طيات الخضرة فى الحقول ، فى حين امتدت سوق الخضر فى قلب البلدة بأسعار تصل إلى نصف أسعار الخضر والفاكهة فى القاهرة ، وعلى جانبيه تراصت المحال التى بنى بعضها من الأخشاب المتداعية . علقت بهوة على المشاهد المتتابعة التى طالما سئمت منها كلما حضرت إلى العزبة :

— طبعا لم تجد ما يثير اهتمامك .. واليوم الحالم الذى داعب خيالك أمس لم يلبث أن انقشع على روث البهائم وأكوام القمامة وجحافل الذباب !

نظر إليها إيهاب فى تأثر بالغ :

— أبداً .. إننى أشعر شعورا غامضا بأن جذورى الحقيقية كمصرى تكمن هنا.. برغم أننى لم أعش فى الريف على الإطلاق .. إنه مجتمع له شخصيته المتميزة للغاية .. بصرف النظر عن مستواه الإجتماعى والاقتصادى .. أما القاهرة فقد اختلط فيها الحابل بالنابل وفقدت شخصيتها المتميزة تماما !

— هل تريد مواصلة الجولة ؟! أم تفضل العودة إلى العزبة ؟!

— إننا لا نستمتع بمثل هذا السكون .. وهذا النسيم .. وهذه الشمس فى القاهرة ! إلا إذا كان التعب قد حل بك ؟!

— لا أشعر بالتعب معك أبداً .. حتى لو سرت إلى نهاية الدنيا !

شد على يدها وهى تسير إلى جواره ، وعيون الفلاحين والفلاحات تتابعهما حتى بلغا محطة السكك الحديدية ليستريحا على أريكة خشبية متداعية ! كل شئ يبدو وقد تآكل مع الزمن ! المظلة المتآكلة الباهتة الرازحة تحت التراب بلونيها الأصفر والأخضر ! اللافتة الباهتة التى تبين إيهاب اسم المدينة عليها بصعوبة ! الجرس النحاسى العتيق المعلق بين عمودين من الحديد ! ساعة المحطة المثبتة فى الجدار وقد توقفت عند السابعة إلا عشر دقائق منذ زمن لا يعلمه سوى الله ، وكأن الزمن نفسه توقف منذ

ذلك الحين ! غرف المسئولين فى المحطة والتى غمرها الظلام فى عز النهار ! القطار الذى بلغ المحطة لتوه وقد ارتدت عرباته التراب والصدأ ، وزخرت بالفلاحين والفلاحات ذوات الأردية السوداء والجوالات والقفف ! مال إيهاب على أذن بهيرة حتى يتفادى ضجيج القطار :

ـــ كأننا انتقلنا إلى ذلك اليوم الذى عرفت فيه مصر السكك الحديدية لأول مرة ؟!

ـــ تتكلم كسائح مبهور بما يرى !

استأنف حديثه كأنه لم يسمع شيئا :

ـــ لكن المحطة فى ذلك اليوم كانت فى أبهى حللها !

ـــ هل سنقضى اليوم كله فى المحطة ؟!

لم تستطع بهيرة أن تكبت الملل فنضح مع نبراتها ، أسرع إيهاب بالنهوض متسائلا :

ـــ هل هناك ما يستحق المرور به فى جولتنا المثيرة هذه ؟!

تحول الملل إلى شئ من السخرية ذكره بلهجة أمها المتعالية :

ـــ إلا إذا كنت تريد أن تمر بالمستشفى الأميرى ؟!

ـــ لا أحب أن أتعدى على تخصصك !

ـــ لى زميلة تقضى سنة الامتياز هناك .. وإن كانت تخصص أشعة !

ـــ ولماذا اختارت هذا المستشفى بالذات ؟!

ـــ لأن خالها الدكتور بكير يعمل مديرا للمستشفى .. وهو من أهالى شبين القناطر .. ويمتلك بيتا يطل على بحر شبين !

ـــ هل تحبين زيارتها ؟!

ـــ المسافة من هنا لا تزيد على عشر دقائق سيرا على الأقدام !

ـــ هيا بنا .. فإن المشاعر التى اجتاحت كولمبس قبل اكتشافه أمريكا تنتابنى الآن بطريقة غامضة !

عادت بهيرة إلى دعاباتها المرحة :

— يبدو أنك كنت معه ؟!

أجاب بجدية بالغة :

— لذة الاكتشاف ليست قاصرة على كولمبس وأمثاله .. إذ يستطيع الإنسان أن يكتشف كل يوم جديدا حتى لو كان يعيش فى بلدة صغيرة مثل شبين القناطر .. معنى الحياة يكمن فى هذه الاكتشافات اليومية مهما كانت صغيرة أو ضئيلة !

— إذاً .. فلنواصل الزحف المقدس !

ساراً فى شارع ضيق مترب بحذاء قضبان القطار حتى بلغا مبنى جديدا بعض الشئ لكنه متآكل فى بعض زواياه وجدرانه . عبرا البوابة الحديدية وسط المرضى المتسكعين فى الحديقة الجرداء حتى توقفت بهيرة أمام موظف الاستقبال سائلة عن الدكتورة نيرة بقسم الأشعة فأفاد بأنها فى الطابق الثانى . أسرعت بالصعود على السلم وخلفها إيهاب فاذ بطبيبة سمراء رشيقة فى معطفها الأبيض تتصدى لها عند بداية الممر صائحة :

— بهيرة .. غير معقول .. لا أكاد أصدق عينى !

— نيرة .. كيف حالك ؟!

واندمجتا فى عناق طويل وقبل حارة ، ثم استدارت بهيرة تمسك بيد إيهاب بإعزاز شديد :

— خطيبى الأستاذ إيهاب .. ماجستير فى الاجتماع من جامعة لندن !

— أهلا يا فندم .. شرفت وآنست .. حكت لى بهيرة عن سيادتك كل شئ تقريبا .. ولو أننى أعتب عليها إغفال دعوتى لحضور الخطبة السعيدة !!

احتار إيهاب فى اختيار ألفاظ مناسبة لكن بهيرة أنقذته :

— تعرفين يا نيرة أن الظروف لم تكن مواتية تماما .. ولذلك كنا فى عجلة من أمرنا حتى لا تتزايد الضغوط !

— على كل حال .. ألف مبروك .. وأرجو ألا يتم إغفالى فى حفل الزفاف السعيد !!

خرج إيهاب من صمته الحرج :

ـــ سيكون لنا شرف حضورك !!

أضافت بهيرة بلهفة :

ـــ إن شاء الله !!

ـــ تفضلوا .. سيسعد خالى برؤيتكم كثيرا !

أشارت نيرة بذراعها إلى الأمام فسارا معها عبر الممر ، وبهيرة تتبادل معها أحاديث الشوق والعمل والمستقبل حتى بلغا آخر غرفة دخلتها نيرة مع صوت جهورى مرح انطلق مرحبا بها . لمح الدكتور بكير بهيرة خلفها فصاح مرحبا بها ، وترك مكتبه ليشد على يدها معاتبا على طول الغياب فى حين قامت نيرة بتقديم إيهاب إليه فرحب به بنفس الحرارة وكأنه صديق حميم قديم ، مما أشاع الدفء فى قلب إيهاب الذى ارتاح لتلقائيته وحيويته !

جلس ثلاثتهم على شكل نصف دائرة أو مثلث أمام مكتب الدكتور بكير الذى ضغط على زر فحضر ممرض ليعرف طلبات ضيوفه من مشروبات ساخنة أو مثلجة برغم مقاومتهم بحجة أنهم لن يطيلوا الجلوس خوفا من تضييع وقته الثمين . تأمل إيهاب الدكتور بكير من طرف خفى : وجهه القمحى الحليق المشرب بالحمرة ، وصلعته اللامعة المستديرة ، ونظراته التى لا تكف عن التنقل بينهم خلف نظارته السميكة ، ومعطفه الأبيض الذى تركه مفتوحا ليكشف عن قميص كحلى بلا رباط عنق . فوجئ إيهاب بسؤال كالصاروخ من الدكتور بكير ، انتزعه من تأملاته :

ـــ وهل حضرت مع الدكتورة بهيرة لمجرد النزهة والهرب من حمى القاهرة .. أم لدارسة مجتمع شبين القناطر الذى خبرت فيه بنفسى عدة مظاهر لم تحظ حتى الآن بدراسة جادة !!

استشعرت بهيرة خوفا غامضا قاومته بالإجابة نيابة عنه :

ـــ جاء معى لمجرد النزهة والهرب من حمى القاهرة !

لكن إيهابا الذى لم يسمع تقريبا ما قالته بهيرة أجاب متسائلا :

ـــ وما هى هذه المظاهر ؟!

ــ مثلا أصبحت القرية تعتمد على المدينة فى إمدادها بالخبز والمسلى والجبن والعسل .. و لم يعد ارتباط الفلاح بقريته وأرضه كما كان من قبل .. بعد أن أصبح كل همه أن يعيش مثل أبناء المدن .. أى يستهلك ولا ينتج !!

ذهل إيهاب لوعيه الاجتماعى العميق لدرجة أنه تصور نفسه جالسا فى حضرة أستاذه الدكتور جوهر . تدفق نهر الحماس الحار داخله فواصل تساؤله :

ــ وهل هناك مظاهر أخرى ؟!

ــ مثلا يوجد هنا فى شبين القناطر تجمع كبير للغجر الذين لا يعرف أحد أصلهم أو فصلهم أو من أين أو متى أتوا ؟! يتسببون فى بعض المشاكل التى يصل بعضها إلى إجراء العمليات الجراحية هنا فى المستشفى .. ولا أحد يهتم بهم وبظروفهم سوى رجال الشرطة عند وقوع جرائم السرقة والنشل والاحتيال والاعتداء .. والأطباء عندما يصاب أحد الغجر أو يصيب آخر من غير الغجر فى شجار بالسكين أو المطواة !

لم تمنع بهيرة نفسها من التدخل عنوة :

ــ إنهم مجرد لصوص يعيشون على النهب والاعتداء على ممتلكات الآخرين .. وليس هناك من هو أقدر من رجال الشرطة على التعامل معهم !!

انبرى الدكتور بكير للرد على بهيرة بنفس حماسه المتدفق :

ــ من الصعب يا دكتورة بهيرة إطلاق حكم جامع مانع عليهم بهذا الشكل .. خاصة بعد أن هجر معظمهم حياة الخيام والتنقل الدائم إلى الاستقرار فى بيوت قاموا ببنائها بأنفسهم !

أحست نيرة بما يدور فى وجدان بهيرة فقالت :

ــ لا تنس يا خالى أنه مجتمع مغلق تماما على نفسه وأسراره .. بل وله لغته الخاصة به !! ألم تسمع ضاربات الودع على طوار المستشفى وهن يتبادلن كلمات لا نفهم منها كلمة واحدة ؟! الغجر لا يسمحون لغريب أن يدخل بينهم فما بالك إذا كان باحثا من طراز الأستاذ إيهاب يريد أن يتوغل إلى أعماقهم المظلمة التى لم يرها أحد غيرهم من قبل ؟!

أمنت بهيرة على كلام زميلة عمرها فى الكلية :

ـــ هذا بالإضافة إلى الخطورة التى يمكن أن تهدد حياته فى أية لحظة .. فهو فى نظرهم جاسوس بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى !

أضافت نيرة :

ـــ خاصة وأنهم شكاكون بطبعهم !

دخل الممرض حاملا المشروبات على صينية نحاسية وضعها أمامهم لكن أحداً لم يعبأ بتناول أى منها فى خضم الحوار الساخن الذى لم يكن إيهاب يتوقعه أبداً ، والذى غمره بأمواج من الإثارة جعلته يشعر بأنه على شفا نقطة تحول فى حياته ، وتذكر مناقشاته مع الدكتور جوهر ، فسأل الدكتور بكير :

ـــ أليست لهؤلاء الغجر علاقات مع المجتمع المحيط بهم ؟! لم يعد فى عالم اليوم المجتمع الذى يمكنه أن يعزل نفسه تماما عن المجتمعات المحيطة به !

لاحظ إيهاب بهيرة وهى تنظر قلقة إلى ساعتها فى حين كان الدكتور بكير يجذبه بشهية مفتوحة لمزيد من الحوار :

ـــ تكاد تقتصر علاقاتهم على الحرف التى يقومون بأدائها للمجتمع المحيط بهم .. مثل الحدادة .. والسمكرة .. وجز أصواف الأغنام وغزلها ونسجها .. وتجارة الجلود والقرب .. وصنع البرادع .. وترويض القرود .. ونقل المياه فى القرب .. أما نساؤهم فيحترفن الغناء والرقص والاستجداء .. وأحيانا يتهم بعضهن باحتراف الدعارة ! هذا بالإضافة إلى ضرب الودع وقراءة البخت !!

تجسد الاشمئزاز على وجه بهيرة التى هزت ساقها فى عصبية ، لكن إيهابا علق على كلام الدكتور بكير :

ـــ يبدو أن سيادتك خبير بهذا المجتمع الغريب !

ـــ أنا من مواليد شبين القناطر .. ومنذ طفولتى أثارنى ما سمعته عنهم من حكايات قد تصل إلى مرتبة الأساطير .. وكثيرا ما كنت أجرى مع أبناء الحى لمراقبتهم عن بعد وهم فى خيامهم .. بل ونشأت بينى وبين صبى منهم صداقة عاقبتنى أمى عليها بعلقة

ساخنة عندما نمت إلى علمها .. فقد كان ينظر إليهم بشئ من الخوف والاحتقار .. وكثيرا ما كانوا يتهمون بسرقة الملابس والطعام والطيور وأى شئ .. ثم يحملون خيامهم ليلا ويذهبون إلى مكان آخر بعيد عن الشبهات !!

نهضت بهيرة بعصبية لم تخف على أحدهم وهى تنظر فى ساعتها :

ــ جئنا للسؤال عنكم فأضعنا الوقت فى الحديث عن هؤلاء الهمج !!

نهض الدكتور بكير بدوره وفى أعقابه إيهاب ونيرة :

ــ الحديث عن هؤلاء الناس ذو شجون دائما .. هل تعلمين يادكتورة بهيرة إن ابن عم شعبان ناظر عزبتكم قد هرب مع إحدى الغجريات .. شعر الكهل بأن مكانته قد إهتزت بين الفلاحين فانتهز فرصة مرض زوجته ورفض أن يكشف عليها أحد أطبائنا بحجة أنه رجل محافظ ولا يسمح لها أن تنكشف على رجل .. حتى بصرف النظر عما اعتبره فضيحة له عندما هرب ابنه واختفى مع الغجرية !

حسمت بهيرة الحوار وهى تتراجع إلى الخلف خطوتين :

ــ أعلم ذلك بالطبع .. ولذلك جئت اليوم خصيصا للكشف عليها .. ووجدتها مصابة بالملاريا .. بالفعل !

نظر إيهاب فى دهشة إلى بهيرة فى حين أشار الدكتور بكير إلى المشروبات التى لم يمسسها أحد :

ــ لن يغادر أحدكم مكتبى قبل أن يتناول مشروبه .. ألا يكفى أننا لم نقم بواجب الضيافة على الوجه الأكمل ؟!

تناولت بهيرة عدة رشفات سريعة متتابعة من زجاجة المياه الغازية ، وتبعها إيهاب ثم نيرة فى حين واصل الدكتور بكير كلماته التى تنضح بالدفء والحيوية :

ــ لابد أن تتناولوا طعام الغداء معنا اليوم ! سأتى إلى العزبة لاصطحابكم ؟!

أمنت نيرة على كلمات خالها :

ــ سيكون يوما ممتعا نستعيد فيه ذكريات الماضى !

لزم إيهاب الصمت برغم توقعه لرفض بهيرة التى قالت :

ـــ شكرا يا دكتور بكير .. لابد أن نعود إلى القاهرة الآن .. فلدى أعمال لابد أن أنجزها !

قبل أن يفتح الدكتور بكير فمه مدت يدها فمد يده بدوره ، وقد تأكد أن تسرعها قد تحول إلى نفور فقال :

ـــ على كل حال .. نرجو أن تتكرر هذه المفاجآت السعيدة !

وبعد تبادل السلام خرجت بهيرة وفى أعقابها إيهاب ونيرة التى أصرت على اصطحابهما حتى الباب الخارجى ثم عادت أدراجها ليسأل إيهاب :

ـــ هل كان هناك ما أثار ضيقك ولهفتك على مغادرة المكان !! إن الجلوس مع الدكتور بكير هذا متعة لا حدود لها !

ـــ جئنا للتريض بين الحقول الخضراء وللتمتع بالنسيم العليل .. وليس لقضاء اليوم بين جدران مستشفى !!

سارا على الطوار فإذ بإيهاب يفاجأ بضاربة ودع تسند ظهرها إلى سور المستشفى ، وقد افترشت الأرض المتربة ومدت أمامها منديلا كبيرا عليه كمية من الرمل النظيف وبعض القواقع والمحار . بدا وجهها البض المتفجر بالسمرة وقد لوحته الشمس ، فى حين ومضت عيناها ببريق أسود حاد ، وتسلل شعرها الطويل الفاحم تحت طرحتها القاتمة والذى تدلى على الجانبين فى شكل ضفيرتين ، وتشبث بأذنيها المختفيتين قرط من النحاس على هيئة مخرطة صغيرة لم تفقد لمعانها ! وتحت الشفة السفلى الغليظة امتدت ثلاثة خطوط من الوشم الأخضر حتى أسفل الذقن ، وعلى نهديها المتكورين كقنبلتين زمنيتين تحت ثوبها الأسود استرخى عقد من حبات زرقاء وحمراء ! نظرت الفتاة التى يصعب تحديد عمرها على وجه الدقة إلى بهيرة التى اضطرت إلى الوقوف عندما تلكأ إيهاب أمام الفتاة :

ـــ ارمى بياضك يا شابة .. نبين زين نبين .. ونخط بالودع !

حاولت بهيرة جذب إيهاب بعيدا وهى تكاد تصيح غضبا :

ـــ لماذا تتلكأ هكذا ؟!

لم يرد وإنما أخرج من جيبه ورقة مالية كبيرة ألقى بها فى المنديل . التقطتها الفتاة بسرعة البرق ثم قدمت المحارة الكبيرة لبهيرة وحاجباها يتراقصان فى رشاقة :

— وشوشى الدكر يا شابة !!

كاد الحنق أن يخنق بهيرة لكن إيهابا أمسك بالمحارة ووضعها فى يد بهيرة مداعبا :

— لماذا لا تجربين حظك ؟! ما هذه الجدية القاتلة التى هبطت عليك ؟

— لا أعرف ماذا جرى لك اليوم ؟! بل لا أعرف ماذا جرى لك منذ عودتك من إنجلترا ؟! تبحث عن الدجل والخزعبلات واللصوص وقطاع الطرق كما لو كانوا قد أصبحوا همك الأول فى هذه الحياة !!

ثم قالت بصوت خفيض لم يلتقطه إيهاب مع الضجيج عند باب المستشفى :

— يبدو أن ماما كانت على حق !

ظل إيهاب مادا يده بالمحارة كأنها لم تقل شيئا . أخذتها منه بعصبية من تريد أن تتخلص من الموقف بأسرع ما يمكن ، وقربتها من فمها فى حركة مصطنعة كأنها تسر إليها ببعض الكلمات ، فى حين جمعت الفتاة القواقع والمحارات الأخرى فى يديها ثم تناولت كبراها من بهيرة وألقتها جميعا على الرمل . فجأة صاحت بهيرة بالفتاة التى اهتز الخزام أو القرط النحاسى الذى يخترق الجانب الأيسر من أنفها :

— لعلمك .. إنه ليس خطيبى أو زوجى !!

لمحت الفتاة خاتمى الخطبة لكنها تعامت عنهما متسائلة :

— قريبك ؟!

— نعم .. إنه أخى ؟!

ذهل إيهاب لما تقوله بهيرة لكنها مالت على أذنه :

— لكى أثبت لك عمليا ما يمارسونه علنا من دجل ونصب واحتيال !

لم تسمع الفتاة بما قالته بهيرة و لم تعبأ به ، بل شرعت فى مواصلة مهمتها . ظلت تتأمل القواقع وتقول بنغمة خفيفة الإيقاع بلسانها وحاجبيها :

— غجرية تقيس الأثر وتلعب بالبيضة والحجر .. روح يا فال .. تعالى يا فال ..

روح يا فال .. تعالى يافال .. قدامك سكة مشيها سهل وآخرها شوك !!

ثم نظرت إلى بهيرة بعينى صقر وهى تغير النغمة :

— بصى للبرغة .. للكوديانة اللى بتحصحص المبخيتش ..

الليلة دى دفا وعفا ومأصبح مصقيعش ..

الليلة دى سبساب مأنور .. مأصبح قبقاب مقدر ..

فى إيدك مختميش كله مدهبيش ..

يا عينى على مصبعيش بكره منحسيش ..

اوعى التفتافة تحرق اللفلافة ..

معاكى أروب .. شوربة ومرعاو وشنوب ..

لابد لك الشلف مصغيرش سن ..

يديكى العضم وهو المدهينش ..

حايقلعك الخوامة ويلهف النفاخة ..

وبرضه مهما طال الغلموس على الموكنة ..

مش حاينساكى مأكبر البراغنة ..

كانت الغجرية تنظر لبهيرة من حين لآخر من طرف خفى لتتابع انفعالات وجهها الذى تحجر على ضيقه واشمئزازه . وبمجرد أن توقفت ، نظرت بهيرة فى حنق خانق متسائل إليها ثم إلى إيهاب :

— هل فهمت شيئا ؟!

— يبدو أنها تستخدم لغة خاصة بالغجر .. ومع ذلك فهمت معظم معانيها وإن لم أستوعب معظم ألفاظها !!

ثم التفت إلى الغجرية :

— يعنى خير إن شاء الله !

— إن شاء الله .. كله خيرات .. الرك ع النيات .. بعد التبات حاتخلفوا صبيان وبنات .. والدنيا كلها خد وهات .. بس الرك ع النيات ..

لم تحتمل بهيرة الانتظار أكثر من هذا ، فأسرعت بخطوات واسعة وفى أعقابها إيهاب الذى لحق بها ليقول :

— أتحبين أن أشرح لك ما فهمته من كلامها ؟!

— لا أطيق أن أسمع هذا الكلام الفارغ !!

— كما تحبين !

— مجيئنا اليوم إلى هنا أكبر غلطة .. كانت ماما محقة تماما !!

— لم أضغط عليك .. بل أنت التى كنت فى لهفة للمجئ إلى هنا !

— لا ألوم إلا نفسى !!

— لا أرى أى مبرر لمثل هذه الثورة !

— ما باليد حيلة !

— لا أفهم شيئا مما تقولين !

— يكفى أنك فهمت ما قالته الغجرية !

لم يجد إيهاب جدوى من مواصلة الحوار العقيم فآثر الصمت الكئيب برغم ضجيج القطار البطئ الذى تردد صداه داخله الذى كان يمور بأمواج متلاطمة من مشاعر شتى ، لكن على سطح أعلى موجة هادرة انعكس على قمتها وهج شمس الربيع كان هناك وجه الغجرية السمراء بشفتيها الخلاسيتين المشتعلتين بلا حمرة ، وعينيها الواسعتين ببريقهما الأسود الحاد ، وضفيرتيها الطويلتين الفاحمتين ، وخطوط الوشم الأخضر الداكن تحت الشفة السفلى الغليظة حتى أسفل الذقن ! سطعت الأضواء والألوان برغم السحابة الترابية الرمادية التى خلفها القطار فى طريقه إلى القاهرة !!

ـــ ألم أقل لك إن الطيور على أشكالها تقع ؟!

قالتها يلدز هانم عصر يوم ساخن من أيام مايو وهى تجلس فى الشرفة التى تقع القاهرة عند أقدامها ، وتطلق نفسا طويلا من سيجارتها المعطرة ! استمتع وسيم بوقع كلمات خالته على ابنتها التى تألقت الحيرة فى وميض عينيها العسليتين الواسعتين وهى تجيب :

ـــ ليس لهذه الدرجة يا ماما !! إيهاب شاب ممتاز لكن القلق يكاد يقتلنى لهذا التحول الغريب الذى طرأ عليه منذ عودته من إنجلترا !

علق وسيم وهو يزيح خصلة مشاكسة على جبهته :

ـــ من لم يتعود السفر إلى الخارج .. غالبا ما يصاب بلوثة عند أول سفر له للذهول الذى يرى به الأشياء هناك !

كانت بهيرة على وشك أن ترد لولا أمها التى قالت بثقة بالغة :

ـــ كنت تهاجميننى دائما عندما أؤكد لك أنه من سلالة غجرية بدليل شفتيه الممتلئتين .. وعينيه السوداوين الحادتين .. وشعره الأسود الفاحم .. بحيث لم يتبق سوى الوشم على أحد ساعديه أو كليهما حتى يصبح غجريا لا جدال فى غجريته .. وها هى الأيام قد أثبتت أننى محقة كالعادة !! فلم يتوقف عن حديثه الشغوف بالغجر منذ ذهابك معه إلى شبين القناطر .. حتى شكوت أنت بنفسك بعد أن كان محرما علىّ معرفة أى شئ عما يدور بينك وبينه !

لم تشأ بهيرة أن تحكى لأمها عن بحثه المجنون عن أى كتاب يتناول حياة الغجر من قريب أو بعيد . كم كتمت فى نفسها خوفها الدفين من أن يقوم بدراسة الغجر ويتردد عليهم ، وبذلك تثبت عليه عمليا تهمة أمها ؟! كيف يمكنها مواجهة أصدقائها وصديقاتها لو فعلها ؟! إنها تستطيع أن تحتمل أى شئ إلا السخرية والتهكم والتشفى فى عيون الآخرين ! سألته مراراً فلم تخرج إجابته عن إن قطاعا من المجتمع مثل الغجر

لا يصح أن يظل غامضا عليه لدرجة الجهل المطبق به !! فآثرت الصمت لعل الأيام تثبت لها أن شكوكها وهواجسها ليست فى محلها !

أفاقت من شرودها على صوت وسيم :

— تقولين إنه دقيق فى مواعيده كالساعة !! ها هو تأخر وأصبحنا على وشك أن يفوتنا عيد ميلاد علياء !!

نظرت بهيرة إلى ساعتها فى قلق :

— ليست عادته .. لابد أن الطريق مزدحم .. فقد أكد أنه سيعود من زيارته لأستاذه قبل ميعاده معنا بساعة على الأقل !

أشعلت الأم سيجارة جديدة بولاعتها الذهبية وهى تقول لوسيم فى دهشة متسائلة :

— لا أجد يا وسيم سببا واحدا فى إصرارك على دعوته على عيد ميلاد علياء .. ليس له أن يحضر مثل هذه المناسبات ؟!

— علياء هى التى دعته .. وليس أنا يا تانت !!

— أعتقد أنك وراء هذه الدعوة .. فكيف تأتى لعلياء أن تعرفه لدرجة دعوته على عيد ميلادها ؟!

— حضرت حفل خطبته !

— لا يكفى !

تدخلت بهيرة وهى تحاول التغلب على قلقها وشرودها :

— لقد قبل الدعوة إكراما لخاطرى .. فهو يعتقد أن مثل هذه المناسبات تضييع لوقته الثمين فيما لا جدوى منه !

كانت الأم على وشك أن تواصل زحفها لولا أنها سمعت خطوات قادمة إلى الشرفة ظهر على أثرها إيهاب الذى بدا بقامته الطويلة النحيلة فى حلة رمادية فاتحة اللون . ألقى بتحية المساء ثم اتجه بكلامه إلى بهيرة :

— آسف على التأخير غير المقصود .. كانت هناك بعض النقاط التى لابد من

استيفائها مع الدكتور جوهر !!

لم تدعه بهيرة إلى الجلوس وإنما تساءلت فى قلق واضح :

ـــ يبدو أنك عثرت أخيرا على موضوع رسالتك ؟!

أسرعت الأم بالتعليق على كلام ابنتها قبل أن يفتح إيهاب فمه :

ـــ فلنعقد الزواج بأسرع ما يمكن حتى تتفرغا تماما للتجهيز للسفر !!

لم يكن إيهاب يحب فتح أى موضوع خاص بينه وبين بهيرة أمام الآخرين ، خاصة إذا كانوا أمها وابن خالتها الذى ورطه فى هذه الدعوة لسبب لا يعرفه ، فاضطر إلى قبولها حتى لا يحرج بهيرة ، أو بمعنى أصح حتى لا يتركها تذهب بمفردها معه ! إحساس سخيف ضايقه ، فهو لا يحب أن يتحول إلى حرس خاص لزوجته ، ومع ذلك رضخ لإصرار وسيم الغريب الذى أكد لأمها أن روحه الرياضية تمنعه من أن يتخذ لنفسه خصوما مهما كانت الأسباب ، وإذا كان إيهاب قد فاز ببهيرة فهنيئا مريئا له !! فإذا كان وسيم يظهر أو يدعى التظاهر بهذا السلوك الراق الموضوعى ، فليس أقل من أن يجاريه هو حتى لا يبدو شابا رجعيا متخلفا !! ذلك أن رفضه للدعوة لن يفسر بضيق وقته وأهميته ، وإنما بإحساسه بالنقص والغيرة من وسيم الأرستقراطى الأصيل !!

توارت هذه الخواطر كوميض البرق فى ذهنه قبل أن يسمع دعوة وسيم له بالجلوس ، لكنه نظر إلى ساعته قائلا :

ـــ هيا بنا حتى لا نتأخر أكثر من هذا !!

ثم استدار إلى يلدز هانم :

ـــ عن إذنك يا فندم !

ولم ينتظر ردها بل أسرع مختفيا وخلفه بهيرة ووسيم : بهيرة فى فستانها الأحمر القانى ، ووسيم بحلته الخفيفة التى تحاكى السماء فى صفائها الصيفى ! وشعره الذهبى الذى يغطى أذنيه ، وعينيه الخضراوين ، وبشرته البيضاء النضرة ، وشفتيه الدقيقتين الكاشفتين عن حمرة خفيفة ! كانت عينا بهيرة حائرة بينهما حتى أسرع وسيم إلى سيارته الحمراء وفتحها لهما برغم إصرار إيهاب على ركوب سيارته ! لكن كفة وسيم

كانت راجحة كالعادة عندما ترددت بهيرة فى الركوب لكنها جلست فى نهاية الأمر إلى جواره فى حين قبع إيهاب فى المقعد الخلفى !

انطلق وسيم بسيارته محدثا احتكاكا وصخبا بإطاراتها ، فى حين غلب الحرج بهيرة فلزمت الصمت برغم رغبتها المحرقة فى معرفة ما دار بينه وبين أستاذه ! لم يكن لدى إيهاب أدنى رغبة فى الكلام ولذلك سعد بالموسيقى الصاخبة المنبعثة من مذياع السيارة التى تحولت إلى ما يشبه النادى الليلى المتحرك ! كان وسيم يتابع وجه إيهاب من حين لآخر فى المرآة سعيدا بالوجوم الذى حل عليه ! ضاعف من السرعة وهو يتصنع النظرات القلقة إلى ساعته فى حين كانت شمس المغيب تحيط الأفق بحمرة أرجوانية ممزوجة بأسلاك الذهب التى وهنت فى مواجهة زحف الظلام !

أخيرا بدا نيل المعادى وهو يتهادى بجلاله حين انطلقت السيارة بحذائه لتنحرف يسارا مخترقة شارعا انحنت عليه الأشجار فغرق فى سمرة المغيب . وفى سكونه كان هدير الموسيقى قد زادت وطأته على بهيرة ففكرت فى إيقاف جهاز التسجيل وسؤال إيهاب عما دار بينه وبين أستاذه ؛ كانت دائما على وشك إتخاذ القرار ، لكن شيئا ما لا تدرى كنهه كان يجذبها مرة أخرى إلى الوراء وسرعان ما تقبع فى قوقعة التردد والحيرة والإحباط !! أين إرادتها وإصرارها وتصميمها على قرارها ؟! لا تدرى !! هل غامت الرؤية أمامها إلى هذا الحد بعد أن كانت واضحة كل الوضوح ؟! لا تعرف !! هل ضاعت معالم الطريق التى طالما أضاءها حب إيهاب حتى انطباق الأفق ؟! لا تدرك !! هل بلغت الأفق الذى لم ولن يبلغه إنسان على وجه هذه الأرض ؟! لا تعى !! ومع ذلك تمسكت ببقايا إرادتها بل وانتزعتها من أعماقها وقد قررت أنها لن تسمح لأحد بأن يجعلها عرضة لسخرية كل من هب ودب ، حتى لو كان إيهاب نفسه !

توقفت السيارة أمام فيلا فاخرة فى شارع رقم ١٣ وأوقف وسيم معها جهاز التسجيل ، لكن أمواج الموسيقى الصاخبة تدفقت هذه المرة من نوافذ الفيلا المفتوحة لدرجة أنها أحاطت بهيرة بإحباط لم يحدث له مثيل من قبل . أما إيهاب فقد احتقر نفسه لأنه أدرك أنه تنازل عن حريته وإرادته لينقاد مع هذا التيار الجارف من السطحية

والتفاهة والغثيان ، ولأجل من ؟! ولأى هدف ؟! برغم خداعه لنفسه بأنه قطاع من المجتمع لابد أن يعرفه معرفة عملية ! كان من المفروض أن ترفض بهيرة هذه الدعوة حتى تجنبه الدخول فى هذه الدوامة ؟! لكنها لم تفعل ! وهو يدرك الآن جيدا أن قبوله لأول تنازل لا يعنى سوى سلسلة متتابعة الحلقات بعد ذلك من التنازلات التى لا تنتهى ! قرر وهو يصعد معهما على الدرجات الرخامية أن يكون ذلك أول وآخر تنازل فى حياته !

أسرع وسيم بتقديمه إلى باقات الحسن والعطر والجمال ، وجماعات الأناقة والتحذلق والعنجهية فى حين وقفت بهيرة تحيى الجميع بالسلام والابتسام حتى هلت علياء لتحتضنها فى حرارة ولترحب بإيهاب الذى عجب لهؤلاء القوم الذين لايفعلون شيئا فى هذه الحياة سوى الاستمتاع بها حتى الثمالة ، فى حين يشقى الآخرون من أجلها دون أن ينالوا منها لحظة واحدة من المتعة العابرة ! وتذكر تلك الغجرية العجيبة التى تفترش طوار المستشفى المترب فى صقيع الصباح أو قيظ الظهيرة من أجل ما يسد رمقها ، ثم يتهمونها بالدجل والإحتيال !! إذا كان هناك ثمة إحتيال فهو ممارسة يومية وعلى أخطر مستوى من هؤلاء السادة الذين يستمتعون بما لم يعانوا من أجله !!

دارت رحى الحفل وسط هدير الموسيقى والأجساد المتراقصة داخل أزياء تتفجر بالفتنة المعطرة بأريج الرغبة ! دعت بهيرة إيهابا للرقص لكنه فضل المشاهدة والمتابعة من مقعد ركنى فقبعت إلى جواره ! تأمل إيهاب علياء مضيفتهم الحسناء وهى تتعلق بـذراعى وسيـم ثـم بساقيه ليقـذف بها فى كل اتجاه فى رقصات مجنونة وإيقاعات أكثر جنونا دون أن يفلت الزمام منه ، برغم أن إيهابا تمنى فى قرارة نفسه أن تفلت يدها منه فتسقط على الأرض عبرة تقصر من أمد الحفل الثقيل ، وتصيبه فى أعز وكل ما يملك : مهارته كراقص يبيع سحره لكل حسناء تتمناه !

تذكر إيهاب يوم خطبته إلى بهيرة عندما تجلى وسيم فى الرقص الذى شاركته علياء بعض فقراته المجنونة ! كذلك لاحظ عند إطفاء الشموع وتغنى الجميع متمنين لها عيد ميلاد سعيدا أن قبلها وسيم الذى وقف ملتصقا بها قبلة ساخنة تكاد تنطبع على شفتيها ، وتتجاوز كل حدود الصداقة مهما كانت أوربية ! فهل ثمة علاقة غرام ملتهب بينهما ؟!

وإذا كان هذا الاحتمال صحيحا فما السر فى إصراره على الزواج من بهيرة ، والذى كان يمكن أن يقع لولا رفض بهيرة وإصرارها عليه؟!هل هو هدف إقتصادى بحت بعد أن فقد أباه الذى لم يحتمل تأميم مصنعه الكبير، مما اضطره إلى العمل مديرا للعلاقات العامة فى مشروعات زوج خالته يلدز هانم ؟! لكن علياء هى الأخرى ثرية أرستقراطية فلماذا لم يتزوجها ؟! صحيح أنها تزوجت مرتين فى ثلاث سنوات فقط ، وقد تم طلاقها فى كل من المرتين بعد إكتشاف زوجها لخيانتها له مع صديق من أصدقاء الحفلات الصاخبة التى لم تتوقف عن إقامتها !! لكن هل يهتم شاب مثل وسيم كثيرا بهذه الاعتبارات بحيث يأبى الزواج منها فى حين أنها تجمع كل المغريات فى شخصها وجسدها ؟! بل الأخطر من هذا وذاك : هل رفضته بهيرة أساسا لإحساسها بمثل هذه العلاقة بينهما خاصة أنها كانت ممتدة بينهما قبل أن يعرف جيران المقطم وأبناؤه قصة حب بهيرة وإيهاب ؟! إن علياء تكبر بهيرة بعدة سنوات وكذلك وسيم الذى لم يتخرج مؤخرا إلا نتيجة لرسوبه المتصل ، فهل كان لدفة الأمور أن تتحول وجهة أخرى لو أن علياء لم تكن موجودة ، ولو أن وسيم كان رجلا موفقا فى حياته الدراسية والعملية بمعنى الكلمة ؟! لا يعرف ؟!

أفاق إيهاب من خواطره المحتدمة على يد وسيم وهى تجذبه بشدة فى حين فعلت اليد الأخرى الشئ نفسه مع بهيرة التى انتفضت واقفة مستجيبة لدعوة المشاركة فى الرقص ! تصلب شئ داخل إيهاب فجأة فأصر على الاعتذار ثم الرفض الصريح ، فما كان من وسيم إلا أن جذب بهيرة إلى وسط الحلبة ليحتضنها ويدور بها على إيقاعات تصفيق المحيطين بهما وفى مقدمتهما علياء السعيدة ، المبتهجة ، المنتشية دائما ! صعد الدم حارا فائرا بأبخرته إلى يافوخ إيهاب ، ومضغ أعصابه حتى عصرها تماما !!

ووسيم يلمحه من حين لآخر منتشيا بالضربات المتلاحقة وسط الإيقاعات المستعرة التى طغت على نظرات بهيرة الحرجة المتأسفة الصامتة إلى إيهاب !

كان فى غنى عن كل هذا الحرج وسط هؤلاء الرقعاء ! إنه يحمل بهيرة مسئوليته كاملة ! لم تضعه فى اعتبارها أبداً وهو الذى فكر طويلا فى البحث عن المدخل

الصحيح لمصارحتها باختياره موضوع الغجر فى مصر لرسالته للدكتوراه حتى يقنعها بلا صدمة ! لكن يبدو أنها لم تخرج بعد من شرنقة أسرتها تماما ! وعليه أن يتصرف من الآن فصاعدا بمنتهى الحرية والصراحة ودون أدنى حرج أو حساسية ليرى مدى صلابتها فى إجتياز الاختبار ووقوفها إلى جانبه ، فإذا عجز معدنها عن الصمود وانثنى تحت ضغوط الجانب الآخر ، فمن الأفضل أن يحدث هذا الآن وفورا بدلا من تضييع العمر فى ترميم دائم لبيت بنى على الرمال ! إنه يحب بهيرة فعلا لكنه ليس على استعداد ليتنازل عن إرادته ومستقبله وكرامته من أجلها ! مستقبله الذى لن يصنعه تحت ضغوط هؤلاء الرقعاء !! فهو ليس مدينا لهم بشئ !! يكفى أنه يلمح ما يدور من مقعده الركنى فى زوايا بعض الغرف المجاورة ! جلسات حالمة ، وقبلات حارة ، وأحضان يمتزج فيها العرق بالعطر ، وأحمر الشفاه بحمرة الخدود ، جلسات لا يمكن أن تكون بين خطاب أو عشاق ولكن بين ذكور وإناث ! قبلات العيون المغمضة ، والشفاه الملتصقة انصهارا فى غيبوبة النشوة الملتهبة ! تحت الأضواء الخافتة والظلال الممتدة الداكنة !

نضح العرق وهمدت الأجساد وتصدرت علياء القاعة كملكة بين رعيتها ! انتقل وسيم بالموسيقى إلى مرحلة الحلم السارى بين الأعضاء المسترخية والسكون ذى الطنين فبدت أصوات المحتفلين واضحة رنانة ! وضعت علياء ساقا على ساق داخل ثوبها الأبيض الطويل الشفاف المفتوح من اليمين حتى أعلى الفخذ . أزاحت خصلاتها المصبوغة بلون البلاتين إلى الخلف فى حين وضعت السيجارة المعطرة بين شفتيها ، تضغط عليها أحيانا وتكاد تمتصها أحيانا أخرى ، ثم تلقى بابتسامة منتشية إلى أحد الحاضرين وهى ترسل نفسا عميقا كثيفا هادئا يحيط وميض عينيها الرمادى بغلالة صافية زادتهما غموضا وسحرا ! ثم أدارت ابتسامتها لتهبط على إيهاب القريب منها فى تساؤل ودلال :

ــ وإيهاب بك .. هل عثرت على موضوعك المفضل الذى ستسافر من أجله إلى لندن لتحضير الدكتوراه؟! باهى كلها شوق للسفر !!

أخيرا واتته الفرصة كى تعود إليه نفسه حرة طليقة بلا حرج وبلا تحفظ وبصرف النظر عن أية اعتبارات أخرى !! على الآخرين أن يقبلوه كما هو وليس بشروطهم ، وإلا فليذهبوا جميعا إلى الجحيم ، بما فيهم بهيرة التى نظرت إليه بأحاسيس ذكرتها بتلك التى كانت تنتابها قبل ظهور نتيجة امتحانها !! أجاب بهدوء قاتل بعد أن أزال حشرجة علقت بحلقه :

— قررت مع أستاذى أن تكون رسالتى عن حياة الغجر فى مصر بصفة خاصة !

شهق وسيم ودق على صدره فتراقصت السلسلة الذهبية التى تحيط بمعصمه :

— ياه .. أخاف عليك من هؤلاء الناس المتوحشين .. سوفاج !!

انبرى إيهاب لوسيم فى حين غرقت بهيرة فى قاع دوامة من الإحباط :

— كثيرا ما تخدعنا المظاهر !! وكثيرا ما نجد الجواهر فى الوحل !! كما أن كل ما يومض أو يلمع ليس جواهر بالضرورة على حد قول المثل الإنجليزى !

خرج صوت بهيرة مبحوحا خافتا مرتعشا :

— هل هذا قرار نهائى ؟!

أجاب إيهاب بصوت لم تتعرف عليه من قبل :

— ولا رجعة فيه !

واصلت الكلام وهى تستجمع كل قواها المبعثرة فى أعماقها :

— أخاف عليك من هؤلاء المتوحشين ؟!

تحول الحاضرون إلى عيون لامعة أو رؤوس بارزة عشش عليها الطير الذى تعلق بالكلمات الخارجة من لسان إيهاب :

— الخطر يتربص بالإنسان فى أى مكان يذهب إليه .. وفى أية لحظة يعيشها .. وأهم ذلك الذى يظن فى نفسه القدرة على تجنبه !!

— قالت نيرة .. إنهم لا يسمحون لأحد بالتسلل وسطهم !

— لن أعدم الحيلة !! وكلما كثرت التحديات كان الموضوع جديرا بالدراسة !

وجدت بهيرة نفسها مضطرة إلى مواصلة الامتحان حتى نهايته مهما كانت

النتيجة :

ـــ لا أجد أى مبرر لأن يترك ابن الأصول منحة للدكتوراه فى إنجلترا كى يعيش وسط هؤلاء الحثالة من البشر !!

ـــ ليس هناك موضوع نظيف وآخر غير نظيف !! وإنما العبرة بالمعالجة والتحليل .. وفى إنجلترا نفسها قام زميل لى إنجليزى بدراسة عن الدعارة وتجارة الرقيق الأبيض هناك .. وعاش بين الساقطات والعاهرات وبنات الليل .. واكتشف أن الدعارة ليست مرتبطة بالضرورة بالطبقات الدنيا والفقيرة والكادحة .. وإنما تتصاعد حتى تصل إلى قمة المجتمع .. واستشهد فى ذلك ببعض الوزراء الإنجليز الذين كانوا لعبة فى أيدى الساقطات الجميلات .. أحدهم مثلا كان وزيرا للدفاع ويبدو أن بعض أسرار وزارته تسربت إلى عشيقته التى كانت بدورها على علاقة بالملحق العسكرى فى السفارة السوفيتية فى لندن .. ومع ذلك لم يأنف المجتمع الإنجليزى من تعرية القضية تماما.. ليس فقط أمام الرأى المحلى بل أمام الرأى العالمى كله .. ليرى العالم مدى الحرية والديمقراطية التى يتمتع بها هذا الشعب الذى لن يعيبه فساد واحد أو اثنين أو جماعة من أفراده .. فهم لا يمثلون إلا أنفسهم وعليهم تحمل جريرة ماجنت أيديهم .. فالمجتمع القوى لا يتستر على مخازى بعض أفراده بل يواجهها ويكشفها كدروس مستفادة حتى لا تتكرر مرة أخرى .. أما المجتمع الضعيف المهزوز المتخلف أو المسمى بالنامى تأدبا فيهوى دفن رأسه فى الرمال .. وإخفاء غسيله القذر داخل البيت الذى لابد أن يفوح بالعفن مع الأيام .. ولذلك فإن أية ظاهرة اجتماعية جديرة بالدراسة والاهتمام حتى نرى أنفسنا على حقيقتها فى مرآة الصدق والواقع التى نحن فى أشد الحاجة إليها بعد عصور متتالية من الخداع والزيف والذات المتخمة بشعارات الكذب والنفاق .. إننا نقلد الغرب كالببغاوات أو القرود فى مظاهره البراقة المريحة الممتعة فقط .. أما أساليبه العلمية الجادة الشاقة المثابرة فى البحث والتقصى والتحليل والدراسة والتفكير الموضوعى .. فلا شأن لنا بها .. فهى من الأمور الثقيلة على النفس والتى يمكن أن تعكر صفو حياتنا الهنية بحفلاتها وسهراتها حتى مطلع الفجر !!

توقف إيهاب ليلتقط أنفاسه ويرى أثر كلماته على الوجوه الملتفة حوله ، والعيون المحدقة به ، فوجد وجوما امتزج بالضيق الذى قرر وسيم أن يكتسحه حتى يقلل من وقع كلماته فصاح مصفقا بين همهمات الاستنكار من البعض :

— برافو .. برافو .. تصفيق حاد وهتاف متواصل !!

ثم اتجهت العيون إلى وجه بهيرة الذى كاد نمشه أن يختفى تحت حمرته الطافحة فاضطرت إلى قطع الصمت بكلمات لم تخترها بعناية :

— لا أعرف ماذا جرى لتفكيرك منذ عودتك من إنجلترا ؟!

أجابها بسخرية مريرة نضحت على لسانها هى :

— ولا أنا أيضا .. لكن كل ما أعرفه وكل ما أثق فيه أننى أقرر مستقبلى العلمى دون السماح بالتدخل فيه من قبل من لا يفقهون فيه شيئا !!

تسللت إلى أنف بهيرة رائحة الدخان المنذرة بالانفجار الوشيك وهى تبحث عن أفكار مشتتة وكلمات ضائعة فى حين أراد وسيم أن يصطنع الدعابة :

— هل كتب عليك الشقاء ؟! إن الإنسان يعيش حياته مرة واحدة فقط وعليه أن يستمتع بها قدر الإمكان لا أن يذهب إلى الشقاء بقدميه ؟!

أمنت علياء على كلماته وهى تطلق نفسا صافيا من بين شفتيها المنفرجتين :

— إن من اعتاد وسطا اجتماعيا معينا يصعب عليه أن يغيره بهذه البساطة ! فالهبوط فى هذه الحالة أصعب بكثير من الصعود .. والإنسان يتطلع دائما إلى أعلى وليس إلى أسفل !!

تألق الرضا فى العيون التى ظنت أنها أفحمته لكن ذخيرته الثقيلة لم تنفد بل واصلت دك مواقعهم بحيث تراجع الرضا إلى أعماق بهيرة ليطفح مكانه مزيج معقد من القلق والحيرة والإحباط وضياع الطريق من تحت قدميها بحيث عجزت عن التنبؤ بما سوف يقع فى اللحظة التالية . أجاب إيهاب علياء :

— كان زميلى الإنجليزى الذى اختلط بالساقطات لدراستهن ابن لورد ! ثم من قال إننى سأصبح واحدا من الغجر ؟! إن هذا الجدل البيزنطى الدائر لا معنى له على

الإطلاق !!

ألقت بهيرة بما تبقى فى جعبتها من أسئلة مرتعشة فى حلقها :

ـــ وهل ستذهب يوميا إلى الفجر ؟! أم أن الأمر لن يستغرق سوى عدة زيارات عابرة ؟!

ـــ نصحنى أستاذى .. وأنا متفق معه تماما .. بأن الأمر سيحتاج إلى معايشة كاملة لمدة عام على الأقل حتى أضع يدى على النبض الحقيقى لهذا المجتمع الغامض !! كما قررت اختيار مدينة شبين القناطر بالذات لأن بها تجمعا من أهم تجمعات الغجر فى مصر !! ويمكننا الزواج بأسرع ما يمكن ليكون لك مطلق الحرية فى أن تلتقى بى من حين لآخر وقتما تشائين .. وسوف يمر العام بأسرع مما نتصور !!

سألته بنبرات جوفاء مرتعشة :

ـــ هكذا بهذه البساطة ؟!

ـــ ولم لا !!

تدحرجت عبرات خانقة على وجنتيها دون بكاء :

ـــ أى أن فضيحتى لن تقتصر على القاهرة .. بل ستنتشر فى العزبة أيضا حيث لا يفعل الناس شيئا سوى الثرثرة والنميمة والخوض فى أعراض الناس .. خاصة عم شعبان ناظر الزراعة الذى هرب ابنه مع غجرية ومنذ ذلك الحين أصبح الهدف المفضل لسخرية الفلاحين واستهزائهم فى جلساتهم المسائية على الفرن فى الشتاء .. وعلى شط المصرف فى الصيف .. ولم يستطع أن يفعل شيئا لأن أحداً منهم لم يواجهه بأى رأى صريح .. وإن كانت نظراتهم إليه تقول ما هو أبشع من السخرية والاستهزاء ! كل هذا لأن ابنه الفاشل هرب مع غجرية .. فماذا يقولون عندما يعلمون أن زوج ابنة البك الكبير قد تركها وهرب مع الغجر ؟! لن يقتنع أحد بموضوع الدراسة التى تتكلم عنها بهذا الحماس !!

لم يرحم إيهاب الوهن الذى دب فى كلماتها اللاهثة الأخيرة :

ـــ إذا رضخنا نحن لهذا التخلف .. فعلينا أن نتخلى عن العلم تماما .. ونترك

الأمور تجرى فى أعنتها .. وعليك أنت أيضا بهجرة الطب والعودة إلى عصر حلاق الصحة الذى يداوى كل الأمراض بتذكرة داود التى تنزل الدود !!

لم تحتمل بهيرة الكابوس الذى جثم على أنفاسها حتى كاد أن يزهقها :

— لن أدخل معك فى جدل يصر فيه كل طرف على موقفه !!

— هل تعنين أن الإتفاق بيننا حول هذا الموضوع أصبح مستحيلا ؟

— بدون شك !

— وأنا أرفض الوصاية حتى لو كانت منك !!

تكهرب الجو وعششت الطيور مرة أخرى على رؤوس الحاضرين الذين أرهفوا السمع لكلمات بهيرة :

— كم كنت عمياء جاهلة ؟!

— طاعة الزوج لزوجته لا تعنى الانقياد الأعمى لها !! أبى نفسه رفع عنى وصايته فى الرأى والسلوك وترك لى حرية الاختيار منذ كنت فى السادسة عشرة من عمرى !!

أضافت دون أن تنظر إلى أحد وإنما إلى المجهول :

— لا أحتمل أن أصبح سخرية الآخرين ؟! لا أتصور أن يعيش زوجى بين الغجر ؟!

— كيف تسمحين لنفسك بالتدخل فى حياتى العلمية هكذا ؟! هل سبق لى أن أقحمت نفسى فى دراستك للطب ؟! برغم أن المرضى أشد خطورة من الغجر .. فمن المحتمل أن تصيبك منهم عدوى قد تكون قاتلة !!

— لا أحتمل قدرتك على الجدل .. لابد أن تختار : إما أنا أو الغجر ؟!

— لا تفتعلى مثل هذا التعارض بينك وبين دراستى !!

— لن أتراجع !!

— إذاً .. فهو قرارك وليس قرارى !

— صفه كما تشاء !

— لن أتذلل إليك ! فالحب لا يعرف الذل !

— وأنا أيضا لم ولن أتذلل لأى مخلوق ! لكن لا تذكر الحب على لسانك !

— كما تحبين !

فى لحظة صمت رهيب خلعت بهيرة خاتم الخطبة من إصبعها لتقدمه إليه وسط همهمات القلق والاستنكار ، لكن يدا واحدة لم تمتد لإعادة المياه العكرة إلى مجاريها سوى يد إيهاب التى قبضت على الخاتم لتلقى به فى جيبه وهو يقول فى ثبات عجيب :

— وهو كذلك .. إياك أن تظنى أننى سأستجدى الحب منك أو من غيرك !

انتصب واقفا بقامته الطويلة النحيلة وسط التماثيل الحجرية أو الثلجية أو المعدنية وشق طريقه بين المقاعد والعيون التى تنقلت بينهما حتى اختفى ليبتلعه الظلام !

خرج إيهاب إلى الطريق الذى اختفى نوره بين فروع أشجاره المتكاثفة ! تنفس الصعداء ، والعرق يغرق جسده باردا تحت ملابسه الداخلية ! انتصر لكرامتـه وكبريائه لكن ياله من ثمن !! وياله من انتصار مرير أفقده شعاع عمره وأمل حياته !! هل يستطيع اجتياز المحنة بسرعة وسهولة ؟ لا يعرف ! تذكر نبوءة الغجرية فتراءى له وجهها فى ظلام الطريق ، بسمرته التى لوحتها الشمس ، ووميض عينيها الأسود الحاد ، وتسلل شعرها الطويل الفاحم فى ضفيرتين تحت طرحتها القاتمة ، وشفتها الغليظة فوق الوشم الممتد حتى أسفل الذقن ، ونهديها النافرين تحت ثوبها الأسود ! ومع وجهها تراقص أمام بصيرته سؤال : لماذا يجد الإنسان نفسه دائما بين شقى الرحى عندما يضطر إلى اتخاذ قرار مصيرى ؟!

وسع من خطواته لعله يبلغ مشارف الضاحية بأسرع ما يمكن ! كان فى أشد الحاجة إلى أضواء تتسلل إلى كهوف نفسه التى غرقت فى العتمة فجأة !!

ــ غير معقول !! أنا فى ذهول !! لا أكاد أصدق أذنى !!

إنكب الدكتور بكير على مكتبه وقد جحظت عيناه بعد أن انتهى إيهاب من سرد قصته الذى أراحه كثيرا ! فى حين عقدت الدهشة لسان الدكتورة نيرة التى استدعاها خالها لتستقبل مسامعها قصة صديقة عمرها التى لم تخطر لها على بال ! استأنف الدكتور بكير تساؤله الذاهل :

ــ بهذه البساطة ؟!

اعتاد إيهاب الصدمة فأجاب فى هدوء :

ــ كما رويت لك تماما !!

ثم استدار صوب نيرة فى جلستها المنكمشة . تقلصت زاوية فمها اليسرى وراحت تحدق فيه للحظات ثم قالت :

ــ آخر مرة رأيتها فيها كانت مشدودة أكثر من اللازم .. وإن حاولت قدر إمكانها إخفاء توترها !

ــ لم أدرك أن موضوع الغجر يمكن أن يثير داخلها كل هذه الحساسيات !

انفتح طريق الحوار أمام نيرة أخيرا :

ــ كانت تشكو دائما من ضغوط أمها عليها .. خاصة فيما يتصل بك !

ــ يبدو .. أننى .. دون أن أدرى .. تسرعت فى دفعها لمواجهة أمها والوسط المحيط بها قبل أن يشتد عودها !! كم لعنت الظروف التى ورطتنى فى هذا الحفل المشئوم ؟! كان يمكن للسفينة أن تصل إلى بر الزواج وتتحاشى هذه العاصفة التى كنا فى غنى عنها تماما !! ما وقع بيننا فى الحفل كان كالقدر .. لم يكن هناك ما يمنعه !

حاول الدكتور بكير أن يخفف من وطأة الموقف فابتسم لكن فى أسى :

ــ يبدو أن مكانتها فى قلبك لا تزال راسخة كما هى !!

ــ بل وأعمق وأقوى يا دكتور بكير !! إحساسى بأنها تورطت مثلى يكاد يقتلنى ! كان الموقف أقوى وأكبر من قدرتها على الاحتمال ! فهى ليست بالضعف الذى قد تتصوره ! لو كان قرارها هذا من تلقاء نفسها وبمحض إرادتها لكنت الآن أتمتع براحة نفسية حقيقية .. ولدى القدرة على أن أنفض يدى منها تماما .. فأنا لست ذلك الأبله الذى يمكن أن يهيم غراما بفتاة لا مكان له فى حياتها .. ولا أزال متأكدا أن مكانتى فى قلبها بنفس قوة وعمق مكانتها فى قلبى !

تألقت بوادر الدموع فى عينى نيرة :

ــ إذا كان ما بينكما بهذه القوة.. فلابد أن يكون مصيركما إلى بعضكما بعضاً! مهما طال الوقت !

غمر اليأس ألفاظ المرارة المتدفقة على لسانه :

ــ إذا كنت قد فقدتها وهى بين يدى !! فهل يمكن أن تعود إلىّ بعد أن شهدت الشلة كلها انفصالنا وباركته بالطبع !

استرخى الدكتور بكير فى مقعده :

ــ إذا كنت متأكداً من أن حياتك يمكن أن تكون مستحيلة بدونها فلابد أن تقوم بخطوة إيجابية تجاهها لعل الأمور تعود إلى مجاريها !

ــ منطق الكرامة والرجولة لا يسمح لى بمثل هذه الخطوة بعد أن أجبرتنى على الاختيار بين حياتى معها وبين دراستى التى اخترتها !

ــ وأنا متفق معك تماما فى هذا !

ــ والعجيب أن ضاربة الودع الجالسة على رصيف المستشفى تنبأت لها بشئ من هذا القبيل !! لكن يبدو أنها لم تستوعب كلمة واحدة مما قالته !!

مسح الدكتور بكير صلعته بيمناه وأطلق ضحكة خففت من حرارة الموقف وسخونة الغرفة برغم المروحة الكهربية التى تحدث ضجة أعلى وأقوى من تيار الهواء الصادر عنها :

— كذب المنجمون ولو صدقوا ! إن للغجر سحرا غامضا أرجو أن تفلت منه .. خاصة وأنك لا تزال على بر الأمان لم تبحر بعد بين أمواجهم !!

قال إيهاب ونظراته تخترق النافذة المفتوحة حيث يمتد الوهج مع الخضرة حتى خط انطباق السماء على الأرض :

— أريد أن أخوض التجربة بكل جوارحى .. فأنا الآن لا أملك ما يمكن أن أستعيد به بهيرة !

خلع الدكتور بكير نظارته السميكة يمسح زجاجها بمنديله :

— لن تكون تجربة سهلة أبداً ! كما أنك لن تتمكن من استخدام آلة التصوير وجهاز التسجيل كما تتصور !! ولابد من العثور على مدخل طبيعى إلى هذا المجتمع المغلق .. لأن إثارة الشكوك حولك لا تعنى سوى وضع حياتك نفسها فى خطر !

— لم تغب كل هذه الاعتبارات عن ذهنى .. والحمد لله فإن ملامحى لا تختلف كثيرا عن ملامح الغجر التى درستها نظريا فى أكثر من مرجع !

انفجر الدكتور بكير ضاحكا فى حين اكتفت نورة بابتسامة ذات معنى :

— هل تعلم أن أم بهيرة كان تدعى أو تؤمن بأنك تنتمى إلى سلالة غجرية بسبب هذه الملامح ؟! وكثيرا ما أبدت ذهولها لرغبة سليلة الأتراك أو الجراكسة .. لا أعلم .. فى الزواج من ابن الغجر ؟!

— لم تكن بهيرة تخفى عنى شيئاً !! وكان هذا مثار دعابتنا معا !!

استأنف الدكتور بكير تساؤلاته فى شغف واضح :

— هل لديك خطة معينة ؟! دراسة حياة الغجر نظريا لا تكفى ؟!

— أعتقد أنه لابد من البدء بخطوتين مهمتين .. الأولى أن أجد مسكنا مناسبا حتى يصبح وجودى طبيعيا مقبولا .. والثانية أن أعثر على وظيفة متواضعة تمكننى من الاختلاط بالأهالى خاصة الغجر منهم .. وبهذا يمكننى معايشة البيئة .. لدرجة أننى فكرت فى مشروع صغير فيه كثير من الخيال الروائى !!

ومضت فى عينى الدكتور بكير بوادر إثارة دفينة :

ـــ يبدو أن إقامتك هنا لن تكون خالية من المفاجآت !! وأنا على استعداد أن أعاونك إلى آخر المدى !! فحياتنا رتيبة وتقليدية وخالية تماما من أية إثارة !!

تراقصت ابتسامة مترددة بين عينيه وشفتيه الغليظتين المنفرجتين :

ـــ فكرت فى تأجير أو شراء أو تأسيس كشك لبيع السجائر والحلوى على مقربة من منطقة الغجر !!

دارت عينا نيرة الحادتان البراقتان بينهما والدكتور بكير يعلق :

ـــ لا أعرف كيف أساعدك فى هذا المشروع المثير ؟! لكن يمكننى معاونتك فى الخطوة الأولى الخاصة بإيجاد مسكن مناسب !!

ـــ كيف ؟!

ـــ أعلى بيتنا توجد شقة مكونة من غرفتين .. تستخدمها زوجتى مخزنا للأشياء التى لا تستخدمها .. ومن السهل إخلاؤها لك !! والبيت لا يدخله غريب .. فالدور الأرضى عيادة لى .. والدور الأول مسكننا الذى تقيم فيه بهيرة معنا لحين عودتها إلى القاهرة التى قتلها الحنين إليها .. لا أعرف لماذا ؟! فأنا أشعر بالاختناق كلما ذهبت إلى هذه المدينة المرعبة !

ضحكت نيرة وهى تخلع المعطف الأبيض هربا من سخونة الجو :

ـــ الناس فيما يعشقون مذاهب يا خالى !

لمح إيهاب خاتم الخطبة فى أصبعها وهى تواصل حديثها الذى طفحت الإثارة على ألفاظه مع العرق الذى جففت قطراته على جبينها :

ـــ طرأت ببالى فكرة مثيرة .. لكنها قد لا تثير إعجاب الأستاذ إيهاب .. فمن الصعب على الإنسان أن يهبط بمستواه بهذا الشكل !!

ـــ أرجوك .. تكلمى دون أدنى حرج .. فلن أستطيع أن أفعل شيئا إذا ظللت قابعا فى البرج العاجى !

ترددت نيرة قليلا قبل أن تطلق تساؤلها فى وجه إيهاب :

ـــ هل تقبل أن تعمل ممرضا فى عيادة خالى ؟! خاصة وأن بعض الغجر يترددون

عليها من حين لآخر ؟!

أطلق الدكتور بكير ضحكته مجلجلة وهو يعيد مسح نظارته بمنديله :

— يبدو أنك ستمثل فيلما مثيرا .. بدلا من كتابة دراسة تتميز بالوقار والرزانة والتعقل الأكاديمى !!

— الإثارة لا تتعارض أبداً مع الوقار والرزانة !! ولذلك فأنا أرحب باقتراح الدكتورة نيرة إذا وافقت عليه سيادتك ؟!

— وهل يمكن أن أجد ممرضا أروع منك ؟! على الأقل لن يطالبنى بعلاوة من حين لآخر !!

ضحك الدكتور بكير ومعه إيهاب الذى عادت إليه روح المرح أخيرا :

— ولن يطالبك بأجر على الإطلاق !!

— لأننى لن أطالبه بدورى عن أجر للشقة !!

غرق ثلاثتهم فى موجات متتابعة من الضحك الصافى . سكن الدكتور بكير لحظة بدت عليه فيها الجدية المطلقة التى زحفت إليهما لينصتا إليه :

— هناك فكرة رائعة بالإضافة إلى وظيفة الممرض .. فقد أمرت بطرد متعهد كانتين المستشفى الأسبوع الماضى لاستغلاله المرضى أبشع استغلال .. فما رأيك فى القيام بوظيفته ؟! فلن يجد المرضى أرق وأرحم منك !؟

— وهل تحتاج الوظيفة إلى مهارات من نوع خاص ؟!

— أبداً .. الكانتين عندنا يقتصر على المشروبات المثلجة كالمياة الغازيـة .. والساخنة كالقهوة والشاى .. والسجائر وساندويتشات الجبن والفول والطعمية .. وباكوات البسكويت والشيكولاته والنعناع واللبان !!

لمحت نيرة بعض الحيرة فى وميض عينيه فطمأنته :

— لن تصنع القهوة والشاى والساندويتشات بنفسك .. فكل الممرضات فى خدمتك مقابل البقشيش المعلوم !! وستنحصر مهمتك فى الإشراف على شراء تموين الكانتين بالجملة ثم بيعه بالقطاعى للزبائن !!

أغرقته حرارة اللقاء ، ولجة الكلام ففاض تأثرا :

— أروع ما فى هذه الدنيا .. أن يكون للإنسان أكثر من أسرة !! لا أعرف ماذا كان يمكن أن أفعل بدونكما !!

نهض الدكتور بكير واستدار ليربت على كتف إيهاب :

— المهم الآن أن تعود بسيارتك الفارهة إلى القاهرة .. فوجودها معك نشاز يمكن أن يفسد كل ما قمنا بترتيبه .. لا تحمل سوى هم ملابسك فالشقة مفروشة تقريبا وإن كان أثاثها متواضعا للغاية !!

نهض إيهاب بدوره :

— ستكون فى نظرى قصرا منيفا .. يكفى أنها فى بيتك !!

— لن نضيع الوقت فى تبادل العواطف الجياشة .. اترك حقيبة ملابسك هنا فسنتولى نقلها !!

— وما أفضل وسيلة للمواصلات من القاهرة إلى هنا ؟!

— لا أنصحك بالقطار .. فهو بطئ ومترب .. ونوافذه لا يمكن إغلاقها منذ سنوات .. ولم يعرف الدرجة الأولى فى حياته .. أفضل أن تستقل إحدى سيارات الأجرة من موقف أحمد حلمى الواقع خلف باب الحديد .. وهى كثيرة ومتوفرة طوال النهار .. وستحملك إلى هنا فيما لا يزيد على نصف ساعة ومعك متاعك الخفيف !!

— لا أشعر فقط بأننى على أبواب تجربة مثيرة للغاية .. بل على أعتاب حياة جديدة تماما !!

ربت الدكتور بكير على كتفه مرة أخرى فى حنان دافق :

— لا مانع من أن تجرب شبين القناطر بعد لندن .. فقد لا تقل عنها إثارة ومتعة !!

— هذا إذا لم تزد !! عن إذنكما الآن .. حتى أتمكن من العودة قبل الغروب !!

تساءلت نيرة وكأنها تذكرت شيئا فجأة :

— هل تعرف البيت ؟!

— أعرفه جيدا .. فهو يقع فى طريق عزبة بهيرة .. كما أن لافتة العيادة واضحة

لكل ذى عينين !!

تراجع إلى الخلف مستأذنا وصوت نبرة فى أعقابه :

— سيلتئم شملكما بإذن الله !

ولحق بكلماتها الدكتور بدعابته المتدفقة مرحا :

— فقراءة الطالع ليست حكراً على الغجر !!

٧

قرر إيهاب أن يتعلم الحياة بدون بهيرة بعد أن علم أن الدور الأرضى فى فيلتها يجرى تجهيزه وتأثيثه ليصبح العش السعيد الذى ستغرق فيه بين أمواج العسل مع وسيم !! هكذا بهذه البساطة وبهذه السرعة !! وكأنها افتعلت معه شجار الحفل لتسرع بالتخلص منه ! ومع ذلك لم يقتنع إيهاب بهذا التفسير ، وهو يتحسس بيسراه حافظة نقوده التى تحتوى على صورتها التى لم يستطع التفريط فيها بأى شكل من الأشكال ! كان فى طريقه إلى المستشفى لاستلام عمله الجديد وقد ارتدى قميصا لم يتقن كيه ، وسروالا اشتراه من ترزى بشبين القناطر ، فى حين ترك التراب يتربع على حذائه الأنيق ، وجذور الشعر تنبت فى ذقنه ! عند باب المستشفى كانت ضاربة الودع المثيرة المتفجرة جالسة تنادى على الداخلين والخارجين لتقرأ لهم الطالع . التصقت قدماه على الطوار أمامها وهو يتأمل وجهها الأسمر النحاسى ، وبريق عينيها الأسود الحاد ، وضفيرتيها الغليظتين الطويلتين الفاحمتين اللامعتين المتدليتين تحت طرحتها السوداء ، وشفتيها الغليظتين الدسمتين فوق خطوط الوشم الثلاثة حتى أسفل الذقن . رفعت رأسها فلفحه وميض عينيها ، فسقطت منه قطعة متوهجة ، داخل أعماقه المظلمة ، كما تتساقط قطع الشمس ، وتضيع فى الكون . مدت ذراعها بالقوقعة الكبيرة إليه :

ــ وشوش الدكر يا شاب !

أمسك إيهاب بالقوقعة وأخرج من جيبه ورقة مالية كبيرة ألقى بها على الرمل بكثبانه الصغيرة داخل حدود المنديل وهو يبتسم :

ــ قبل أن أوشوش الدكر ! أريد أن أسألك عمن يمكن أن يقوم بغسل ملابسى وتنظيف شقتى مقابل أجر مجز !!

ــ وفين السنيورة اللى كانت معاك يا سعادة البيه ؟!

ذهل إيهاب لذاكرتها وذكائها المتوقد ! كان يظن أن شاربه الذى أصبح كثا ، وجذور ذقنه النابتة ، وملابسه المتواضعة ، وشعر رأسه الأشعث ، كل هذا كفيل بإخفاء شخصيته الحقيقية . تظاهر بالجهل المطبق بما تقوله :

— أى سنيورة ؟! أنا المتعهد الجديد لكانتين المستشفى !! ولا أعرف عمن تتكلمين ؟!

— عيب يا بيه تقول كده !! ده احنا الغجر نسمع دق القلب قبل لفظ اللسان !!

اعتدل إيهاب فى وقفته فبدت قامته الطويلة راسخة . شعر أنه أمام نوع جديد من التحدى لم يألفه من قبل ! بدت هذه الغجرية كيانا غامضا يشده إليها ، أحيانا تبتسم ، وأحيانا تبخل بالابتسام ، لكنها فى الحالتين تغرقه فى سيل من عينيها . قال محاولا الهروب من أسر نظراتها :

— وإذا قلت لك إننى فى حاجة لمن ينظف الشقة ويرتبها قبل وصول السنيورة !!

— كده نقدر نتفاهم ! لكن إيه اللى غيَّر شكلك كده ؟!

خرجت من صدره تنهيدة دون أن يكبح جماحها :

— الزمن !!

— خللى بالك منه !! ما فيش عدو للناس زيه !!

تخرج الحكمة من فمها كسيل متدفق دون حساب أو تفكير ! استطاعت أن تثير زوبعة فى خاطره ، كانت ترقد فى انتظار البواعث ، حرك رأسه كأنه يروغ من رصاصة مسددة إليه ، ورفع يديه يهز عنهما قيودا غير منظورة :

— هيه ؟! ماذا قلت فى طلبى هذا ؟!

— إحنا الغجر ناس أشراف !! لا نتردد على بيوت العزاب !!

— وماذا عن السنيورة القادمة لتعيش معى ؟!

— لما يحصل .. أنا تحت أمرك !!

أخرج إيهاب من حافظته ورقة من فئة العشرين جنيها وألقى بها بين القواقع فالتقطتها لتودعها فى فتحة صدرها النافر وكلها آذان صاغية لكلماته المشتعلة بالإلحاح :

ـــ وهل يرضيك أن تحل السنيورة فى شقة غير نظيفة غير مرتبة ؟!

سرى الشوق داخلها فى النخاع حتى القاع فابتسمت :

ـــ ما يرضى حد !! فين مطرحك ؟!

ـــ فى بيت الدكتور أحمد بكير مدير المستشفى .. أعلى دور .. بعيدا عن العيون .. على بحر شبين !

رفعت أنفها الشامخ وجبينها تلعقه خصلات شعر شرس :

ـــ يفتح الله يا سيدى .. دى العيادة تحت وما فيش حد فى البلد ما يعرفها !!

سعد إيهاب لهذا التطور ! فقد أصبحت المسألة منحصرة فى خوفها من أن يراها أحد ! شعر بعروقه تعزف لحنا غجريا دون أن يعرف ما هو اللحن الغجرى ؟! وعلى إيقاعاته جرت دماؤه صاعدة هابطة حيث كمنت بهيرة لأول مرة فى قاع سحيق ! حتى قطرات العرق المتألقة على جبينه لم تجرؤ على الولوج فى نطاق الشعور :

ـــ ليس ثمة خوف على الإطلاق ! فلعلك ضمن من يترددون على العيادة !!

ـــ بره وبعيد يا بيه !

وصوت كمص الليمون من بين شفتين شبه مضمومتين فى دائرة ضيقة ، وقد كورت أصابع يمناها ودارت بها على رأسها كمن يحاول اتقاء عين الحسود ! تلعثم إيهاب بعض الشئ وقد نسى الشمس التى شرعت فى إخراج سياطها لتلهب بها الرؤوس والوجوه والظهور :

ـــ قصدى أن الدخول إلى مكان عام خير من التردد على مكان خاص .. وليس بسبب المرض بالضرورة .. بل لقضاء بعض الحاجات التى يطلبها الدكتور لعيادته مثلا !!

ـــ كله إلا الدكتور بكير !!

من هذه الغجرية المثيرة التى تنطوى جعبتها على مفاجآت لا يمكن التنبؤ بها ؟! سألها فى لهفة لم يعبأ بإخفائها :

ـــ ولماذا الدكتور بكير على وجه الخصوص ؟!

— عمل ابن عمى جرحى فى عيادته .. رضى بالغلب والغلب مارضيش به !

— كيف ؟!

— رجالنا ما يعملوا خدامين عند حد .. وبعضهم ما يعمل حاجة خالص !! جرحى رضى بالمسح والكنس والرش وتوصيل البول والقرف للمعمل .. وبرضه آخر خدمة الغز علقة .. اتهموه بالسرقة يا عينى ظلم .. وكان التومرجى عاوز يوديه النقطة لولا الدكتور قال كفاية طرده .. ومن يومها حلف جرحى أنه ما يشتغل عند خشنى .. آل دامانى آل !

فرك كفة تاركا نفسه غريقا بين أمواج الإثارة بقممها وسفوحها :

— ما معنى خشنى ؟! وما معنى الكلمة الأخيرة ؟!

— خشنى يعنى غير غجرى !! ودامانى يعنى حرامى .. يعنى لص !!

— لا تخافى فأنا أعمل مع الدكتور بكير .. سأضمنك عنده !!

— وايش مصلحتك فى كده ؟!

— كى يكون دخولك طبيعيا ولا يثير القيل والقال !

— اوعى تكون فاكرنى من إياهم يا سعادة البيه !!

— أستغفر الله يا ..... قصدى شريف كما قلت لك !

— اسمى بلسم يا بيه !

— عاشت الأسامى ! اسم جميل !

— عشت يا بيه !

فى ملامحها أكثر من شئ غامض يشده إليها ! اكتفت بابتسامة صغيرة وهى تسبل جفون التواضع . سألها :

— اتفقنا ؟! اتفقنا يا بلسم ؟!

— خايفة عليك يا سيدى !

— ممن ؟!

— من جرحى ابن عمى !! عايز يتجوزنى من زمان !! والغيرة حاتموته ! لكن

اشترطت عليه أنه يلاقى شغل وبعدين أوافق !! حرام الواحدة تشقى طول النهار وجوزها نايم فى البيت وللاصابع فى الشارع ؟!

برزت رؤوس المخاطر التى سمع عنها من قبل ! لكن طالما أن النكوص على أعقابه من رابع المستحيلات فعليه أن يواصل التحدى حتى نهايته ! يكفى أنه فقد بهيرة ! حاول طمأنتها :

— يجب ألا يعرف شيئا عن زياراتك لى !!

وضغط مؤكدا على كلمة « زياراتك » لكنها كانت مهمومة :

— كيف ؟! وعينه علىّ ليل نهار !!

— أليس له عمل ؟!

— ورث عن جده إخراج التعابين من شقوق البيوت !!

— كيف ؟!

— بالتعزيم عليها .. ودى قدرة بيورثها الواحد أبا عن جد .. قدرة يشم بيها ريحة التعبان إذا كان فى البيت .. وكان إخراجه مهما كان عاصى !!

— وهل بارت تجارته ؟!

— التعابين قلت .. والبيوت نضفت !! وأبوه ذات نفسه غير شغلانته !!

— لكن لا بد من طريقة تأتين بها دون أن يعرف خط سيرك !!

— ما فيش غير ساعة العصرية وأنا راجعة البيت .. أفوت عليك ساعة وللاساعتين .. بيكون جرحى نايم عشان يسهر مع أصحابه !!

— هذا وقت يناسبنى تماما !

فجأة ومضت عيناها وهى تعتمد على الأرض بذراعيها وقد اشرأبت إلى أعلى لتدقق النظر عند منحنى الطريق ، ولتصرخ فى إيهاب :

— وشوش الدكر يا شاب !

تذكر إيهاب القوقعة التى لا تزال فى يده لكنه تساءل :

— ماذا حدث ؟!

لكن لهفتها طغت على سؤاله واكتسحته :

— وشوش الدكر !

أطاع صاغرا وهو يتظاهر بالحديث السرى إلى القوقعة الكبيرة التى جذبتها من يده لتلقى بها فى الرمل مع القواقع الأخرى وتتأملها كأنها تقرأها :

— قدامك تعبان .. خللى بالك منه

فى عينيك وزورك ناوى يبخ سمه

فاتح ع الآخر عينيه .. ربنا حاينصرك عليه

قول إن شاء الله ..

كانت بلسم على وشك أن تواصل كلماتها المنغمة لكن صوتا حادا قطعها كنصل السكين :

— إيدك ع البيتوج يا بلسم !! أمك عاوزه مدحرج !

رأى إيهاب شابا حاد الملامح ، نحيف القامة كالسيف تحت جلبابه الرمادى الذى يبرز تحته عند يسار الخصر نتوء يبدو أنه لسكين أو لخنجر ! فى حين يغطى الوشم ساعديه وفتحة صدره التى كشفت عن وجه غجرية يكاد يكون غائرا فيه ! ويحيط برأسه منديل أسود على شكل دائرة تبرز شعره الأسود الناعم الأشعث من قلبها ! أما وجهه فكان قريب الشبه من وجه بلسم وإن كان مشعا بسخونة الرجولة المتدفقة : نفس العينين الواسعتين السوداوين الحادتين ، والأنف الشامخ فى كبرياء ، والشفتين الغليظتين الداكنتين ! لكن فكه بدا حديديا جاهزا للافتراس !

أخرجت بلسم منديلا أسود من جيب ردائها وفتحته لتخرج مجموعة صغيرة من الأوراق المالية المهترئة من فئة الخمسة والعشرة قروش ، وتقدمها إليه صاغرة . يلتقط المبلغ متسائلا :

— بيتوج مأصغير !! أبيضة بس !! إلا !!

— ربنا يرزق !

— إمتى تصبحى كودياتنى ؟!

ــ مأكبر البراغنة يسهل ! بيتوج إلا .. على حد قولك !

ــ عاوزانى ماخ السوجة .. وأغرقك فى موجة بيتوج !

ــ والدازى المأكبر راح فين ؟!

ــ خايفة علّى أنطنى ؟!

ــ بعد الشر ! ماخ زى ما قلت لك !

ــ أكيف المرعاو ؟! تونى ؟!

ــ وماله ؟! أحسن من ذل الخشانة !!

ــ سلام يا صهيلة .. سلام يا بهيلة !

ــ سلام يابن عمى !

غادر المكان دون أن يلتفت إلى إيهاب الذى استراح كثيرا لهذا التجاهل وهو يسأل بلسم :

ــ جرحى ؟!

ــ إيوه !! اتفضل انت بقى من غير مطرود .. أحسن ده مجنون ولو رجع تانى وشافك حاتبقى وقعتنا احنا الاتنين سودة !

كان إيهاب يتوقع إثارة من نوع غامض فى دراسته ، لكنه لم يتصور أن أمواج الإثارة الجامحة العاتية الممزوجة بالخوف والخطر يمكن أن تجتاحه هكذا عند أول اقتراب له من هذا العالم الغامض الذى انتقل به فجأة إلى عصر آخر ودنيا مختلفة كما لو كان على متن آلة الزمان ! سألها :

ــ ما لك خائفة هكذا ؟! ماذا يمكن أن يفعل ؟!

ــ مش وقته !! روح انت بالسلامة !! وأنا حا أحاول أمر عليك انهارده ساعة العصرية !!

ــ وهو كذلك .. سلامه عليكم !!

لم يشأ إيهاب أن يضغط عليها أكثر من هذا وإن كانت ضغوط التشويق وحب

الاستطلاع التى تبهظ كاهله تكاد تخنقه ! عبر بوابة المستشفى الحديدية وقد شعر لأول مرة أن بهيرة لم تعد تمر بخاطره ! لمح الدكتور بكير يتابعه بعينيه من نافذة غرفته مبتسما ، لكنه تجاهله حسب الاتفاق إذا لا يعقل أن يكون عامل الكانتين صديقا لمدير المستشفى ! كم يحب هذا الرجل الذى أصبح صديقه الحميم فى مدة لا تزيد على شهر ؟! لكن الفضل يعود أيضا لبهيرة ! فلولاها لما عرفه !! دائما بهيرة فى كل مكان وفى كل لحظة مهما حاول الهروب !!

وأسرع الخطى اللاهثة فى طريقه إلى مقر عمله الجديد !

تلألأت الفيلا الفاخرة بالثريات الساطعة فى تلك الليلة الساخنة من الأيام الأخيرة فى يونيو ! كانت ليلة زفاف بهيرة إلى ابن خالتها وسيم ! وهى الليلة التى أصرت يلدز هانم أن تقيمها فى بيتها حتى يرى الجيران « الأعزاء » هزيمتهم المنكرة برغم إصرار بهيرة على قضائها فى أحد الفنادق المطلة على النيل ! لكن حجة يلدز هانم كانت قوية كالعادة . كانت هديتها لهما رحلة لقضاء شهر العسل بين أحضان أوربا ومغانيها ، وكان ميعاد قيام الطائرة مع البشائر الأولى للفجر ! ولذلك لا يعقل أن تجرى ترتيبات حفل كبير حتى الفجر فى فندق كبير ليغادره العروسان إلى المطار دون أن ينالا من النوم ساعة أو ساعتين !! كذلك لم تكن يلدز هانم تحتمل قدوم راقصات شرقيات أو مطربين من الذين يسعون بطريقة أو بأخرى لجمع النقوط ، فهذه من المظاهر « البلدية » التى لا تليق بشجرة عائلتها الكريمة !

كانت يلدز هانم أسعد الناس فى تلك الليلة ! بعد أن أثمرت ضغوطها وجهودها التى كانت على وشك الضياع تماما وهى تراقب من حين لآخر الشقة العليا فى فيلا الجيران إياهم والتى انتهى تأسيسها وجارى تأثيثها لتكون عش الزوجية لبهيرة و « المحروس » إيهاب ابن الصائغ !! الآن تنعى من بناها بعد أن هرب العصفور من القفص فى آخر لحظة ! وها هى بهيرة تجلس إلى جوار عريسها قطعة من بهاء ورواء فى ثوبها الأبيض المرصع بماسات دقيقة تتناغم فى وميضها مع تاجها الصغير الذى جعل منها ملكة على عرش من شعاع ! الوجه الأبيض المشرب بالحمرة ذات النمش الخفيف الذى يتناثر على الوجنتين والذقن بغمازته الدقيقة ، وهو فى استدارته كالبدر فى عليائه : وميض العينين العسليتين الواسعتين كالبللور الصافى تحت إطارى الحاجبين ، الأنف الدقيق الشامخ إلى أعلى ، الأذنان اللتان تحاولان القبض على الخصلات المتمردة ، الشفتان المكتنزتان

المنطبقتان تحت الأحمر الذى أكثرت منه بهيرة على غير عادتها ! كانت هناك مسحة من الحزن الدفين والقلق الساكن على وجهها ، لكن يلدز هانم بررتها بالإجهاد الذى انتابهم جميعا فى الأسبوعين الأخيرين اللذين شهدا آخر مراحل التجهيز للزفاف السعيد !

كيف لهذا الجمال الباهر أن يحتويه ذلك الغجرى الذى ذهب أخيرا لينضم إلى أهله وعشيرته ! كانت ظنونها كلها فى محلها ولذلك أرادت للمياه أن تنساب فى مجراها الطبيعى ! وها هى بهيرة تجلس إلى جوار عريسها وابن خالتها الذى يضاهيها بهاء ورواء ! لذلك أكثرت من رشهما بحبات الملح منعا للعيون المتربصة بالحسد ! هنيئا لك يا بهيرة بوسيم محط أنظار الحسناوات المحيطات بالكوشة فى عقد كانت علياء درته التى أثبتت بروحها الرياضية العالية أنها ابنة الأصول حقا ! فبرغم صداقتها الطويلة والعميقة لوسيم فقد كانت سعادتها لا تقدر عندما علمت بنيته على الزواج من بهيرة ، و لم تدخر وسعا فى اصطحابها إلى محال الأزياء التى تصادق معظم أصحابها ! إنها تنظر إلى وسيم بعينين متدفقتين بالتهانى الحارة فى حين تكالبت العيون الأخرى على شعره الذهبى الذى يغطى أذنيه ، وعينيه الخضراوين ، وبشرته البيضاء النضرة اللامعة ، وشفتيه الدقيقتين الكاشفتين عن حمرة خفيفة خفية ، وحلته السوداء الفاخرة ، والبابيون الأبيض اللامع بنفس نسيج القميص ولونه ، وعطره الفواح الساحر !

افتتحت بهيرة حلقة الرقص مع وسيم ، لكن بمجرد أن توقفت الفرقة الموسيقية عن العزف استعدادا للمقطوعة التالية أسرعت إلى مقعدها ومعها وسيم الذى وزع ابتساماته على الجميع ! تابعت بهيرة الراقصين والراقصات بعينيها ، لكنها لم تكن تراهم . اختلطوا جميعا ، صاروا كتلة واحدة ! أحست كأنها عود حطب محترق ، لو أن إنسانا صدمها لتبددت ، وتلاشت ، وطارت فى الهواء هباء منثورا ! لا تدرى ماذا جرى لها على وجه التحديد ، لكن نظراتها أصبحت كسيحة تتساقط عند جدران القاعة الفسيحة التى شهدت من قبل خطبتها إلى إيهاب ! قاومت إحساسا بالإعياء جعل الجدران تكاد تطبق عليها وتلتصق بجفونها ! وأحال الموسيقى إلى مجرد

ضجيج يصطك بأذنيها ! كانت الساعة الذهبية الضخمة القابعة على مرمر المدفأة تقترب من منتصف الليل حين رأت بهيرة أمها تتقدم منها وتقول لهما بصوت حاول أن يعلو على صخب الموسيقى والرقص :

ــ يمكنكما الاستئذان لتسرقا ساعتين أو ثلاث ساعات .. ثم تستأنفان النوم بعد ذلك فى الطائرة !

وقبل أن يفتح أحدهما فمه بكلمة ، انتصبت واقفة لتشير بيدها للفرقة الموسيقية التى سرعان ما توقفت ومعها الراقصون والراقصات . ران سكون عميق واشرأبت العيون إلى يلدز هانم وهى تقول :

ــ أنتم أصحاب بيت ولستم ضيوفا .. العروسان يرجوان الاستئذان للراحة وبعض النوم لسفرهما فى طائرة الفجر .. أما نحن فسنواصل الحفل والبهجة والمرح حتى مطلع الفجر ! فالليالى السعيدة فى هذه الأيام أصبحت نادرة .. وعلينا جميعا اقتناص السعادة من بين مخالبها !!

صفق الجميع بين الضحكات والقفشات فى حين بدا الإرتياح على وجه أبى بهيرة المجهد والذى كان يقاوم التثاؤب قدر طاقته منذ أكثر من ساعة إلى جوار أم وسيم التى ضبطتها أختها متلبسة بلحظة عابرة من النعاس ! عزفت الفرقة لحن الزفاف فنهض وسيم ومعه بهيرة وسط تصفيق الجميع حتى بلغا السلم المؤدى إلى الدور الأول حيث العش السعيد فى انتظارهما ! هبطت بهيرة معه على الدرجات المغطاة بالبساط الأحمر الممتد حتى باب غرفة النوم !

أغلق وسيم الباب وأضاء الأباجورة الحمراء ! شرع فى خلع ملابسه بسلوك خبير النساء الذى لا يجد حرجا أو حساسية فى الاستمتاع بالجنس سواء داخل نطاق الزواج أو خارجه ! لم يتبق سوى ملابسه الداخلية فجلس إلى جوار بهيرة على حافة الفراش ظنا منه أنها غرقت فى بحور الخجل فى حين أن تيارا جامحا من الشرود اجتاحها بإيحاء غريب ممض أكد لها ضياع إرادتها منذ اللحظة التى افترقت فيها عن إيهاب ! كم بذلت من جهود مستميتة لتقنع نفسها أن ما فعلته كان القرار السليم ، وأن اعتبـارات

الحب ليست الاعتبارات الوحيدة فى الحياة ، وأنه ليس من المفروض عليها أن تتحمل سخرية المحيطين بها ، الخفية منها والظاهرة ، لمجرد أن زوجها رفض السفر إلى إنجلترا وأصر على العيش بين الغجر ، بل وأعلن إصراره أمام الجميع و لم يراع مشاعرها التى داس عليها كما لو كان فى انتظار هذه الفرصة ! ماذا كان يتوقع منها ؟! تركع عند قدميه ضارعة : شبيك لبيك .. عبدك بين إيديك ! افعل ما يتراءى لك وأنا تحت أمرك !! إنها لا تستطيع أن تحافظ على أواصر الحب والود من طرف واحد ! لكن السؤال الذى يكاد يمزقها إرباً ولا تجد له إجابة شافية ، يطاردها فى الصحو والمنام : هل كانت محقة فى الرضوخ لضغوط أمها وقبول الزواج من وسيم فى حمية الغضب الذى اجتاحها فى أعقاب حفل عيد ميلاد علياء المشئوم ؟! حدثتها نفسها فى تلك اللحظات الملتهبة بالانتقام لكبريائها وكرامتها ولكن يبدو أن الأيام ستثبت لها أنها لم تنتقم سوى من نفسها ! يكفى طيف إيهاب الذى يزورها كلما خلت إلى نفسها التى تحاول طرده والترحيب به فى الوقت نفسه !!

شعرت بذراعين تلتفان حولها ، وشفتين تنطبقان على عنقها ، ولسان يجرى بلعابه فيثير فى بشرتها الرقيقة قشعريرة تكاد تصيبها بالاختناق ، ويلهث بهمسات كالفحيح :

ـــ ليس للخجل مكان بيننا .. فإذا كنت قد ولدت قبلك بخمس سنوات .. إلا أننا تربينا وعشنا سويا .. ويبدو أنك نسيت رضوخك لقبلاتى المختلسة منك و لم تكونى قد بلغت الثانية عشرة بعد .. وظللنا على هذه الحال حتى جاءت أسرة إيهاب لتقيم فيلتها إلى جواركم .. ثم يتمكن من خطفك منى بتلك البساطة التى كادت أن تقتلنى !

دفعت شفتيه برفق لتقول بحسم حاولت كبته :

ـــ لست لعبة فى يدى أحد حتى يخطفنى هذا من ذاك !!

ـــ وهذا كلام يسعدنى أنا أيضا !! فهو لا يعنى سوى أنك قررت العودة إلىّ بمحض إرادتك بعد أن اكتشفت الخطأ الذى وقعت فيه أكثر من أربع سنوات متتالية !!

أشاحت بوجهها صوب الجدار حيث علقت صورة فتاة عارية تماما والشبق يكاد يطفر من عينيها . صورة أصر وسيم على شرائها وتعليقها بنفسه دون مقاومة تذكر منها بعد أن كادت الأمور كلها تتساوى فى نظرها ! جرت أصابعه بخفة ومهارة على ظهرها لتفك مشابك ردائها الواحد إثر الآخر ! ثم خلصها منه دون أن تدرى وكذلك التاج الذى ومض بضوء الأباجورة الأحمر ! لم يغمرها الخجل العذرى الذى ترك مكانه لبلادة غريبة أعقبت شرودها المتأرجح بين الماضى والحاضر ! وهو الشرود الذى ظنه وسيم نوعا من النشوة العاتية ! واصل مهمته بثقة يحسد عليها ، فكلما خلصها من قطعة من ملابسها الداخلية كان يغرق الجزء الذى تعرى بالقبلات اللاهثة برائحة الخمر ، والهمسات المشبوبة بسعير الرغبة ، واللعاب السائل برذاذ الشهوة ! ركع عند ساقيها متعبدا فى محرابها فتركت له جسدها يفعل ما شاء به ! وسؤال يسبح بين بحار شرودها : ما ذنب وسيم كى يعانى من آثار حبها لإيهاب ؟! إنه يعشقها فعلا وطالما تمنى الزواج منها ، وليس من العدل أن تستخدمه مجرد أداة للإنتقام من إيهاب أو من نفسها ، لأن ذلك سيكون انتقاما منه هو شخصيا دون ذنب أو جريرة ! فلتبذل أقصى ما فى وسعها كى تتجاوب معه ، فالليلة — بصرف النظر عن أى إعتبار آخر — ليلة زفافها ، ووسيم هو زوجها وله عليها كل حقوق الزوج . أما إيهاب فقد أخذته العزة بالإثم وفضل عليها الغجر ! لم تتصور فى لحظة من اللحظات أن قيمتها عنده لا تزيد على هذا القدر !! فهنيئا لوسيم كى يتمتع بجمالها الذى طالما تاقت نفسه إليه ! واستسلمت تماما لغزوه الذى بدأ بالمواقع الأمامية ليختبر مدى صمودها ، وعندما أكدت له حاسته المدربة أن القلعة على وشك الإستسلام الكامل ، زحف على تلال صدرها ليطيح بها يمنة ويسرة بلا هوادة فى طريقه إلى المواقع الخلفية التى تعرت من أحراشها وشجيراتها حيث بدأ دك المدفعية الثقيلة !

أصابتها القذائف فأدمتها بالألم لكنها لم تتأوه برغم أنه كان مغمض العينين لا يعى سوى ما يدور داخله هو ! قضى الألم على بشائر أية لذة محتملة ، ومع ذلك ظلت تحت وابله حتى هدأت أنفاسه ، وارتخت عضلاته ، وتراجعت أطرافه ، وتوقفت أعصابه

عن النبض الملتهب ! ارتمى إلى جوارها على ظهره وابتسامة هنيئة تفرش وجهه ، وتتراقص حول عينيه المسبلتين وشفتيه المنفرجتين فى الضوء الأحمر ! ثم لم يلبث أن غرق فى نوم عميق برغم دقات الفرقة الموسيقية الصاخبة فوق السطح ، وايقاعات أقدام الراقصين والراقصات ، والضحكات المسترسلة الصادحة التى تبينت بهيرة بينها ضحكات علياء التى بدت نظراتها إلى بهيرة وهى فى طريقها مع وسيم إلى غرفة النوم ، ناضحة بغيرة دفينة أسعدتها لحقدها عليها منذ الحفل الذى أقامته لعيد ميلادها والذى شهد فيه الجميع انفصالها عن إيهاب !

حاولت بهيرة أن تختلس ساعة أو أكثر لتنام فى تلك الليلة الغريبة لكن يبدو أن اليقظة المشدودة مصرة على اصطحابها حتى سلم الطائرة . تقلبت فى الفراش فشعرت بقطرات العرق تفترش جسدها برغم الغرفة ذات الهواء المكيف ، وبرغم أنها لم تبذل مجهودا يذكر ، وبرغم أنها ليست من النوع الذى يتصبب عرقه بسهولة ، فأدركت أنه عرق وسيم الذى انتظم تنفسه وهدأ إلى جوارها ! فكرت فى النهوض للاستحمام لكن حالة الطوارئ المعلنة فى البيت المزدحم بالأصدقاء والأقارب جعلت الفكرة محفوفة بالحرج والخطر ! تناولت منشفة معلقة على مشجب قريب من الفراش ودارت بها على وجهها وعنقها ونهديها وبطنها وساقيها ، ومعها إحساس بالنظافة والارتياح يسرى فى أوصالها . ألقت بالمنشفة على حافة الفراش عند قدميها فى نفس اللحظة التى استدار فيها وسيم ليحتضنها. تخلصت من ذراعيه فى هدوء ورقة عندما رأت الابتسامة الهنيئة الراضية لا تزال تتراقص حول عينيه المسبلتين وشفتيه اللتين انطبقتا أخيرا !

سعدت بدبيب النعاس الذى أعقب إحساسها بالنظافة والإرتياح ، لكن سرعان ما تراجع الدبيب الصامت عندما التفت ذراعاه مرة أخرى حول صدرها وبطنها لتعتصرها ، ويشرع فيما قام به منذ البداية مرة أخرى دون أن يعبأ بنعاسها أو يقظتها ، بسكونها أو حركتها ، برغبتها أو زهدها ! لكنه هذه المرة فتح عينيه يملأهما بمنظرها واستسلامها ! أغمضت هى عينيها بدورها فظن أنها غرقت فى بحار النشوة التى تدفقت أمواجها على شواطئها ! لم يكن الألم بنفس الحدة السابقة وإن طالت المعركة

حتى لم تبد لها نهاية !

بمجرد أن وضع أوزاره لم يستسلم هذه المرة للنعاس بل اتكأ على مرفقه وهو يداعب ثمرة الكريز الناضجة النافرة أعلى صدرها هامسا :

ـــ لم أجرب مذاقا أحلى وأجمل وأمتع من مذاقك !

كانت تعلم صولاته وجولاته ، لكنها لم تتصور أن النساء عنده مجرد أصناف متنوعة من الأطعمة والمأكولات بحيث يفضل هذه عن تلك ! ظن أنه بهذا يمتدحها وينصبها على عرش قلبه مليكة فوق كل الأميرات اللاتى مررن بقصره من قبل ! خرجت من فمها كلمات لم تجهزها وتنمقها :

ـــ أرجو ألا تسأم مذاق فيما بعد !!فالإنسان لا يحتمل طعاماً واحداً العمر كله حتى لو كان الشهد !!

ـــ لكن عندما يتحول المذاق إلى إدمان .. لا يستطيع الإنسان أن يقلع عنه حتى لو أراد !!

أدركت الآن فقط لماذا امتدح أبوها مهارته فى إدارته للعلاقات العامة فى مشروعاته المتعددة؟!فالحجة لا تعوزه أبداً!صحيح أنه كان طالبا فاشلا دائم الرسوب فى كلية الحقوق ، و لم يصلح لأية وظيفة أوجدها له أبوها ، لكن بمجرد توليه العلاقات العامة واتصاله بالشركات والمكاتب الإستشارية الأخرى التى تتعاون معه وتشارك فى مشروعاته ، أثبت كفاءة عالية بخفة دمه ، وسرعة بديهته ، وقدرته على جذب الآخرين دون جهد ، واستغلاله لسحره الشخصى وجاذبيته الآسرة خاصة للجنس اللطيف الذى يتواجد أحيانا فى حفلات الاستقبال والتعارف ! وكانت سعادة أمها به غامرة مما جعلها تشدد من ضغوطها المتتابعة عليها حتى رجحت كفته فى النهاية على كفة إيهاب ! أرادت أن تختبر المدى الذى يمكن أن تصل إليه حجته فواصلت تساؤلها وهى تعتقد أنها تتخابث عليه :

ـــ وكيف تخلصت من إدمان السابقات حتى تبدأ فى إدمانى ؟!

ـــ لو كان إدمانا لما تركتهن !! كما أننى لم ألهث وراء أية واحدة منهن بل كثيرا

ما هربت وتجنبت مطاردتهن !! أنت الوحيدة التى ظللت أحلم بها ليل نهار .. حتى بعد أن فقدت الأمل فيك تماما .. خاصة بعد خطبتك إليه !! لكن يبدو أن القلب لا يمكن أن يكذب على صاحبه أو يخدعه !

غلبتها حجته وإن تمنت أن يكون صدق قلبه على مستوى منطق لسانه ! ابتسمت فألقى بوجهه على صدرها يمرغ خده فيه ! نظر إليها لاهثا ، ونظرة حنان تسبح فى بحيرة عينيها ! مهذب الصوت والكلمات ، رقيق الملامح ، ناعم النظرة فى الضوء الأحمر الخافت ! داعب الأنف الذى يحسد الهواء الداخل فيه ، والفم الذى يعجب للكلمة التى تخرج منه ! لو كان كلمة لتعلق بشفتيها يرفض الخروج . وهذا الشعر اللامع الداكن الذى ينسدل فى أدب حول البدر المستدير الطاغى فى جماله ، الآمر فى نظراته ، الباطش فى لفتاته ! قد يكون شاعرا فالكلمات لا تضيع منه ، وقد يكون رساما فالألوان لا تختلط عليه ، وقد يكون موسيقيا فالأنغام لا تستعصى عليه . امتزجت القبلات بالهمسات :

ـــ مزيج عطرك بشذى عرقك كفيل بدفع الدماء الساخنة فى عروق الشيخ الذى تجاوز التسعين !!

لم يكن إيهاب قادرا على عزف هذه الأنغام الساحرة من قبل ! بل كان تعامله مع عقلها أعمق وأشمل من اهتمامه بجسدها برغم فتنته الطاغية لدرجة أنها كانت تتخيل نفسها مجرد زميلة أو حتى مجرد زميل له ! أما هذا الساحر فقد بدأ يعزف على أوتار جسدها أنغاما لم تشنف آذانها بها من قبل ! لكن ما العمل إذا كان يريد جسدها فحسب ؟!! سؤال لم تجد عليه إجابة لانشغالها بأطراف وسيم المتسللة بين حناياها .

همست فى إلحاح :

ـــ أخاف أن تفوتنا الطائرة !

همس بشفتيه بين نهديها :

ـــ الدنيا بأسرها يمكن أن تنتظرنا !!

أطل إيهاب من شرفته الصغيرة المطلة على بحر شبين وقد دارت حدقتا عينيه فى قلق من ينتظر أحداً ! كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة عصرا ولا تزال الشمس تلهب المدينة الصغيرة الوادعة بسياطها فى صيف عنيف لا يريد أن يخفف من قسوته ! وكان قد قرر أن يصارح بلسم بحقيقة مهمته ، فالخداع ليس من طبيعته ! وبلسم ليست أقل من بهيرة ! فهى فتاة جديرة بكل احترام وتقدير هى الأخرى ! ترددت عليه فى الأسبوعين الماضيين خمس مرات قامت فيها بمهمتها بمنتهى الجدية والسعادة فى الوقت نفسه نظرا للأجر المجزى الذى لم تكن تحلم به من قبل . لم تقصر فى تلبية كل احتياجاته من تنظيف للشقة ، وغسيل للملابس ، وطهى للطعام وإن كانت تكثر من الفلفل والشطة لكنها قللت منهما بمجرد أن لفت نظرها ! جعلت الشقة الصغيرة آية فى النظام والنظافة برغم تواضع أثاثها الذى اقتصر على فراش يتسع لشخص واحد ، ومائدة شبه متهالكة ، وثلاثة مقاعد خشبية حولها ، وموقد غاز وبعض الأوانى النحاسية المتناثرة بين الحمام والمطبخ !

عندما رأى إيهاب الشقة لأول مرة لم يتصور أن هذا المخزن المتدثر بالتراب وخيوط العنكبوت يصلح لسكنى متسول ! كان زاخرا ببعض الأجهزة الطبية التى لم تعد صالحة للإستعمال : سرير سقط قلبه وخلعت ساقه ، مقاعد بلا ظهر أو بلا سيقان ، مائدة مهشمة كأنها سقطت من على ناطحة سحاب ، بعض المراجع الطبية التى فقدت غلافها و لم ترحمها الفئران والصراصير ، دراجة طفل طارت إحدى عجلاتها ، إطار قديم يبدو أنه لسيارة الدكتور بكير وتحته بطارية سائلة مستهلكة ، علب صفيح لم يعرف إيهاب إذا كانت مليئة أو فارغة ، لكنها لم تسلم من الصدأ ، بعض الأحذية القديمة ، صاجات سوداء لصنع الكعك والبسكويت ، بالإضافة إلى الأثاث الذى

استخلصه إيهاب للإستخدام المؤقت لحين تأثيث الشقة بما يليق به !

كان الدكتور بكير سعيدا بإيهاب الذى تسبب مجيئه فى تنظيف وكر الفئران والصراصير ، والذى طالما فكر فى تطهيره لكن دوامة الانشغال بل والكسل أحيانا كانت كفيلة بإحباطه برغم إلحاح زوجته الدائم لدرجة أنها هددت ذات مرة بإلقاء كل ما يحويه المخزن فى الشارع عندما يحين منتصف الليل ! ضحك يومها وحذرها من ارتكاب جناية قتل هربا من جنحة نظافة ، فإن أية قطعة كفيلة بسحق رأس البائس الذى سيقوده حظه العاثر للمرور تحت الشرفة فى تلك اللحظة المصيرية !

لم يعقد الدكتور بكير النية على القيام بالمهمة التاريخية إلا مع وصول إيهاب وحلول تاجر الروبابيكيا بطلعته البهية لينقل المحتويات المتهالكة على عربته المتهالكة عدة مرات إلى حيث لا يعلم مكانها سوى الله ! ثم شرعت بلسم فى تنظيف الشقة وتنظيمها بعد سد فجوات الزوايا والجدران بمسحوق الفئران ورشها بمبيد الصراصير ! لكن بمرور الأيام تراجع إيهاب عن فكرة إعادة تأثيثها بما يليق به . فليس من المعقول أن يضيع وقته الثمين فيما لا يفيد المهمة التى جاء من أجلها أصلا ، كما أنه فضل أن يعيش حياة متواضعة لا تثير حوله شكوك أهل المدينة الذين يعلمون فى التو واللحظة أن فلانا من الناس عطس ، متى عطس وكيف ولماذا ؟! كما أن بلسم تأتى إليه فى كل مرة بعد احتياطات أمن مشددة ! فهى لا تسير بحذاء بحر شبين على الطريق الواسع ، بل تخترق الدروب والأزقة الملتوية حتى لا يعلم أحد بوجهتها ، وعندما تقترب من البيت ترصد كل التحركات القريبة من الباب ، وعندما تتأكد من خلو الجو تتسلل فى خفة الغزال إلى الداخل ، أما إذا لمحها أحد حتى لو لم يكن يعرفها فإنها تعدل فورا عن الدخول وتتجه فورا إلى بيتها فى حى الغجر !

أحب إيهاب حياته الجديدة بل وارتبط عاطفيا بكل ما فى الشقة ! وكم أحب مشاهدة بلسم وهى تشعل موقد الغاز بدراية عميقة ، ثم تجلس أمام طست الغسيل لتشكل لوحة فنية باهرة لا يمكن أن ترد على خاطر فنان إلا من طراز محمود سعيد ! كانت تلقى بطرحتها بعيدا فيبدو شعرها الطويل الفاحم مشعا بعطر كأنه المسك ،

وعندما تنحنى على قطع الملابس تسقط إحدى ضفيرتيها فى الماء الفائر بفقاقيع الصابون ، فتلقى بها فى دلال خلف ظهرها ومعها أختها ! أما القرط المتشبث بأذنيها على هيئة مخروطة صغيرة فيحدث رنينا رقيقا مع إيقاع يديها فى الماء ، ومع تدلى شفتها السفلى الغليظة فوق خطوط الوشم وهى تغنى إحدى أغانى الغجر التى نجح إيهاب فى تسجيلها بجهازه خلسة . كان صوتها جميلا صداحا وهى تغنى :

— الزمن قال ايش اسمك قلتله عالدوام عمال .

عمال أعدل فى الحمول المايلة عمال .

الناس لها بخت كامل وانا اللى ربع بختى مال .

والربع اللى فاضل فرقته على عشرة الأندال .

الزمن عملنى جمل والصبح اندار على جمال .

قلتله يا زمن هى الحمول الثقيلة عالفقير تنشال .

فات وقال يا فقير خليك صابر ، حمولك عادت صلب من صلب .

اصبر على الغلب لما تتعدل الأيام .

لم يشأ إيهاب أن يسألها : من هم هؤلاء الأندال ؟! فقد أخبرته حاسته بأنها لا بد أنها تقصد كل من أذل الغجر من غير الغجر !! كما أنها لم تكن تستريح لنظراته وقد انفرج فخذاها أمام الطست وسمرتهما البرونزية الساخنة تمتزج ببخار الماء برغم محاولاتها المتلاحقة لتغطيتهما ! كذلك نفر نهداها عند المفترق الذى كشفت عنه فتحة ردائها خاصة عندما كانت تنكب لتدعك إحدى البقع ! أما الخزام الذى يخترق الجانب الأيسر من أنفها فشارك قرطها نفس الرنين الراقص فى خفة النسيم العليل !

نظر إيهاب إلى ساعته وهو لا يزال يطل من شرفته الصغيرة المطلة على بحر شبين وقد بدأ القلق ينهشه ! تجاوزت الساعة الرابعة مساء و لم تصل بلسم بعد ! لم تتأخر من قبل إلى ما بعد الثالثة والنصف ! غريب أمر هذا القلق !! أليس من المحتمل أن تخلف ميعادا أو ميعادين ؟! وإذا لم تأت اليوم فسوف تأتى غداً ؟! خاصة وأنه لا يلم بكل ظروفها الأسرية الغامضة !

التقى بصره بالخط الذى ينطبق عنده الأفق حيث مال القرص الذهبى إلى الاحمرار وحيث تقع عزبة بهيرة ! آه .. بهيرة مرة أخرى ! بهيرة دائما ! برغم كل ما حدث ! فقد اتصل بأبيه تليفونيا منذ يومين وعلم أن بهيرة تزوجت من وسيم ورحلت معه إلى أوربا لقضاء شهر العسل !! هكذا بنفس البساطة التى ألقت بها خاتم الخطبة إليه !! يجب ألا يخدع نفسه مرة أخرى ويتوهم أن المياه يمكن أن تعود إلى مجاريها ! وعليه أن يشق طريقا جديدا ! صحيح أن شيئا منها لا يزال كامنا فى أعماقه ، وأنه لا يزال يحتفظ بصورتها فى حافظته حيثما ذهب ، إلا أنه قرر ألا يتعسف ببترها مرة واحدة من وجدانه ، فمن الأفضل أن يترك التفاعلات والإنفعالات الجارية داخله تشق مساراتها الطبيعية حتى تبلغ نتائج طبيعية تستكين لها نفسه المضطربة من تلقاء ذاتها ! عندئذ ستفقد صورتها وذكراها كل معنى ودلالة ! وهو ليس فى عجلة من أمره ، والأيام كفيلة بتضميد الجروح التى بدأت منذ ذلك اليوم العجيب الذى زارا فيه العزبة سويا ، وبلغت قمتها فى ذلك الحفل المشئوم الذى أقامته المدعوة علياء لعيد ميلادها السعيد !

أحيانا كان إيهاب يظن أن ذلك الحفل أقيم خصيصا لتوريطهما فى الصراع الذى أدى إلى الانفصال الذى شهده أو شهد عليه الجميع لولا أنه لم يجد أى مبرر يدفع بعلياء إلى مثل هذا التدبير الذى أدى فيما بعد إلى زواج بهيرة من وسيم صديقها الحميم على ما يبدو ! ما أكثر ألغاز هذه الحياة التى تتبدى فى أقرب الناس إلينا ؟!

رأى إيهاب أعلى الشرفة عنكبوتا تنسج خيوطها حول ذبابة تحاول الخلاص منها فى يأس مستميت ! سرح ببصره بعيدا فانطبق الأفق على نظراته المتعقبة للحمرة المتزايدة للقرص الذهبى خلف عزبة بهيرة برغم رحابة السماء الصافية التى تطالعه بوجهها المشرق من كل زاوية ، وهو الوجه الذى نسيه فى القاهرة التى ينظر فيها الناس إلى مواقع أقدامهم ! ما أعجب هذا السكون الذى يكاد يسمع حفيفه ؟! بل يكاد يسمعه صوت القلق السارى مع شهيقه وزفيره !! والذى يكاد يطبق على أنفاسه مثلما أطبق الأفق على نظراته لولا أنه لمح طيف بلسم يمرق تحت الشرفة ليتلاشى داخل البيت !

علت دقات قلبه وأسرع بفتح الباب ليطل على بئر السلم ويبصر طيف بلسم وهى

تحمل حقيبتها الجلدية التى تحتوى على المنديل والرمل والقواقع وتصعد على الدرجات الحجرية كالغزال دون صوت يذكر ! ومع ذلك لمح باب شقة الدكتور بكير يفتح فى سكون متعمد مسافة لا تذكر لكنها تسمح لمن بداخله أن يرى الصاعد دون أن يبصره أحد ! تأكد إيهاب أنها زوجة الدكتور بكير التى رحبت بمقدم إيهاب الذى كان السبب فى تطهير الطابق الأعلى من الفئران والصراصير ، لكن سرعان ما تلاشت كل مظاهر الترحيب بمجرد علمها بتردد بلسم عليه ، بل ومنعت أطفالها من الصعود إليه والحصول على الشيكولاته والحلوى منه ! والله أعلم .. فليس من المستبعد أن تمارس ضغوطها على زوجها حتى يتخلص من إيهاب بطريقة أو بأخرى ! لكن عموما فإن سلوك الدكتور بكير لم يطرأ عليه أى تغيير ، بل رحب بقيام بلسم بتنظيف العيادة حتى يكون تواجدها فى البيت مبررا للعيون المتلصصة ، والآذان المرهفة ، والأنوف التى تلهث وراء أية رائحة يشتم منها بوادر فضيحة !

دلفت بلسم ليغلق خلفها الباب فى سكون عميق مع سؤال لاهث :

ــ لماذا تأخرت ؟! قلقت عليك كثيرا !!

ــ ما كنت حااقدر آجى اليوم !! لولا ضحكت على جرحى وفهمته إن قراية البخت وجع قلب طول النهار وفى الآخر شوية ملاليم .. كان عاوز يروح معايا . لكن قلت له بصراحة إن الدكتور عرض علىّ أنضف له عيادته .. وأنا ما قدرتش أرفض لأن ده خير جاى من عند ربنا .. لحد ما ربنا يفتح عليه ويلاقى الشغلانة اللى يكسب منها .. وافق بعد وجع دماغ بشرط أروح مع المغرب !!

ــ ولماذا وافق بهذه السهولة وقد حكيت لى عن عناده وعنفه وتهوره ؟!

ــ الدكتور بكير على عينا وراسنا كلنا !! ما حدش بينجدنا غيره !

قالتها ووضعت حقيبتها الجلدية على المائدة الخشبية المستديرة المتهالكة لتنطلق إلى الحمام لكن إيهاب أمسك بذراعها :

ــ لا داعى للغسيل اليوم .. هناك أمر أكثر أهمية أريد أن آخذ رأيك بخصوصه !!

تدفق طوفان الشك من عينيها الواسعتين ببريقهما الأسود النافذ :

— امتى حاتيجى الست ياسى إيهاب ؟! لحد دلوقت لا حس ولا خبر ؟!

— أرجوك .. لا تسيئى فهمى .. فأنا لا أحب سوى الصدق والصراحة ولذلك أريدك أن تجلسى فى هدوء لتستمعى إلى كل كلمة سأقولها .. ولك فى النهاية أن تفعلى ما يتراءى لك !!

استسلمت لقبضة يده بعض الشئ وهى تجلس أمام المائدة فى حين حرص على الابتعاد عنها إلى الطرف المقابل حتى يزيل أكبر قدر ممكن من شكوكها ذات البريق الأسود الحاد . همس :

— سأصارحك بكل شئ .. ويجب أن تكون ثقتك فىّ كاملة وإلا فلن تكون هناك ثمة فائدة فى أية كلمة أنطق بها !!

طفح التوجس والقلق على نبراتها :

— اتفضل ياسى إيهاب ! خدامتك !

— العفو يا بلسم ! كلنا أبناء آدم وحواء ! المهم أن الست التى قرأت لها الطالع وكنت على وشك الزواج منها هجرتنى لتتزوج من غيرى !

دقت بلسم على صدرها بشهقة مكتومة وصليل حبات العقد :

— ليه ياسى إيهاب ؟! كنتم لا يقين لبعض خالص !

— كل شئ قسمة ونصيب ! ولا اعتراض لى على إرادة الله !! لكن ليس هذا هو المهم !!

اتسعت حدقتاها لكنها آثرت الصمت الذى ارتاح إليه ليواصل :

— اعذرينى إذا كنت قد كذبت عليك وادعيت أننى أعمل مشرفا حقيقيا على كانتين المستشفى !!

— لكن يا سى إيهاب أنت بتشتغل كده بصحيح ؟!

— مجرد تغطية للمهمة الحقيقية التى أتيت من أجلها !!

كانت شهقتها غير مكتومة هذه المرة مع دقات متتابعة على الحبات الحمراء والزرقاء الملتفة حول جيدها :

ــ يا لهوى !! مباحث !! طول عمرى كنت خايفة يا سعادة البيه !! وياما قلبى قاللى حاجات وحشة كتير !!

ربت على يدها التى ارتمت على المائدة فسحبتها من مس كهربى :

ــ أرجوك .. ليس هناك ما تخافين منه .. فأنا فى الحقيقة مدرس فى جامعة القاهرة .. وجئت خصيصا إلى هنا لأدرس الحياة والناس !

ــ وليه متخفى يا بيه ؟! كنت زى الفل نهار أما شوفتك لأول مرة !! إيه اللى عمل فيك كده ؟! ياما لعب الفار فى عبى وما صدقتوش !!

ــ تعلمين يا بلسم أن الناس لا يحبون أن يتدخل الغريب فى شئونهم الخاصة .. كان من الضرورى أن أبدو واحدا منهم حتى يأمنوا لى على الأقل !

ــ حيرتنى يا سعادة البيه !! مش فاهمة خالص !! عاوز تعرف إيه بالضبط وأنا أقولك عليه من غير لف ودوران !! متهيأ لى كده إنك بترسم علينا إحنا ؟! ولو كان ظنى فى محله يبقى انا رحت فى ستين داهية !! كله الا كده يا بيه !!

نهضت منتفضة فحاول الإمساك بيدها التى أفلتت منه :

ــ لو منعتنى من الخروج حا أصوت وأصرخ والم عليك الدنيا كلها .. اللى يسوى واللى ما يسواش !

اجتاحه ندم عارم على تسرعه الذى هدم كل ما حاول أن يبنيه . أجاب بهمس تلقائى مرتجف وهو يتراجع إلى مقعده :

ــ لا داعى لشئ من هذا القبيل ! الباب مفتوح أمامك على مصراعيه ويمكنك الخروج فى أية لحظة تشائين !!

شعرت بدلو ماء بارد يهطل على مشاعرها المهتاجة المشتعلة . توقفت عند الباب ثم استدارت لتنظر إليه فى صمت ممزوج بالخجل والإنكسار ! واصل همسه الملح الزاخر بالعتاب :

ــ كنت أظن أن ثقتك بى أقوى من هذا بكثير ؟!

عادت أدراجها فظن أنها ثابت إلى رشدها ، لكنها حملت حقيبتها الجلدية التى

لا لون لها من على المائدة لتخطو خطوتين أو ثلاثا وتقف فى منتصف المسافة بين المائدة والباب ، ونظراتها حائرة بينه وبين الباب . قطع السكون الرهيب :

ـــ إذا خرجت هكذا .. فلابد أنك لن تعودى مرة أخرى .. وطالما أنه لم تعد هناك فائدة من وجودى هنا فسأرحل بدورى فى الصباح إلى القاهرة بلا رجعة !!

خرج صوتها مهتزا ممزوجا بالحرج والتردد وبلا تفكير مسبق مع ارتعاشة حاجبيها:

ـــ أنا خايفة عليك ياسى إيهاب .. قبل ما اكون خايفة على نفسى .. لو عرف أهلى إنى باقابل جاسوس عليهم .. ما حايرحموك ولا حايرحمونى .. وجرحى بالذات شايل خنجره وعامل نفسه حامى حمى شرفنا كله !!

استراح إيهاب لهذا التراجع وآمن بأن العاصفة انحسرت أو كادت بنفس السرعة التى هبت بها ! تمسك قدر إمكانه بأهداب الحكمة :

ـــ اخص عليك يا بلسم !! أتتهمينى بالتجسس بهذه البساطة ؟! لو لم أكن واثقا بك لما صارحتك بشئ .. لكنك لا تملكين نفس الثقة بى ؟!

ـــ أنا أفديك بعينى ياسى إيهاب .. ده أنا عايشة من خيرك !!

تهدج صوتها ولمعت بوادر الدمع فى عينيها الواسعتين الحادتين بسوادهما ، فقرر أن يتجاوب مع تدفقها العاطفى الساخن الذى لم يتوقعه :

ـــ أستغفر الله يا بلسم ! أستغفر الله ! لو تعلمين مكانتك عندى لما قلت مثل هذا الكلام ! أنت أخت عزيزة تأتى للاطمئنان على أخيها وتساعده فى قضاء بعض احتياجاته اليومية ! فهل يمكن أن يتجسس أخ على أخته ؟!

عادت لتضع حقيبتها على المائدة ، وهو سعيد بالدهاء الذى اكتشفه فجأة فى نفسه ! لم يكن يدرك أن له هذه القدرة على معالجة المواقف الحرجة الشائكة المتفجرة ! لماذا لم يكتشف قدرته هذه فى ذلك الحفل المشئوم الذى شهد الانفصال بينه وبين بهيرة ؟! استمرأ الإحساس النامى بالقوة والسيطرة فقرر مواصلة اكتشاف كهوف ذاته المظلمة :

ـــ النقود التى أعطيك إياها .. ليست أجراً .. وإنما مجرد هدية متواضعة .. لأننى

لا أعرف احتياجاتك على وجه التحديد !! ولذلك لا أستطيع أن أميز بين ما ترغبين ومالا ترغبين !!

جلست على مقعدها وكأنها تحت تأثير تنويم مغناطيسى آسر :

ـــ الكلام ده من قلبك ياسى إيهاب !!

ـــ أليست مصارحتى لك بكل شئ عن حقيقة وجودى هنا .. أكبر دليل على أننى لا أحتمل أن أقول لك كلمة واحدة إلا وكانت من قلبى ؟!

تدحرجت دمعة كبيرة على وجنتها اليسرى برغم استماتتها فى الإمساك بتلابيبها . قالت وحاجباها يسبقان لسانها فى التعبير :

ـــ أنا خدامتك !! اطلب اللى أنت عاوزه حتى لو كان على رقبتى !!

أخرج منديله من جيبه وقدمه إليها :

ـــ امسحى دموعك .. برغم أن شكلك جميل ساحر وهى تتألق على وجنتيك كحبات الماس !!

أمسكت بالمنديل بعد تردد شديد من يد إيهاب التى ظلت ممدودة ، ومسحت دموعها . همت بإعادته لكنه دفع يدها برفق :

ـــ احتفظى به !!

ـــ لا ياسى إيهاب .. المنديل يفرق بين الأصدقاء والأحباب !!

نبض قلبه بإيقاع غامض مثير وهو يستعيد المنديل الذى تضوع برائحة كالمسك . خرجت همساته دون تفكير ! فما أحلى اللحظات التى تتوقف فيها العقول عن التفكير لتترك الحديث للقلوب :

ـــ وأنا أيضا .. لا أتمنى شيئا سوى أن يبعد الله عن طريقنا كل ما يمكن أن يفرق بيننا !!

ابتسمت فبدا وجهها كصفحة صافية من السماء فى أعقاب إعصار :

ـــ منين ياسى إيهاب بتجيب الكلام الحلو ده ؟! ده جرجى نفسه ما يعرفش يقوللى كلمة واحدة منه !! ما أخدش منه غير الشخط والنطر !!

ـــ عندما يتكلم القلب الصافى يقول كلاما يدهش صاحبه نفسه !! ولذلك كل ما أريده منك أن تحكى لى كل ما تعرفينه عن حياة الغجر ! فما نعرفه عنهم قليل ومشوه !!

ـــ أوعى ياسى إيهاب تطلعنا نور وحرامية وقطاعين طرق زى ما كل الناس فاكرة !! ده احنا ناس طيبين .. بس الزمان هو اللى غدر بينا وخلانا تحت رحمة اللى يسوى واللى ما يسواش !!

ـــ لك وعدى والله شاهد عليه .. لن أكتب عنكم إلا ما ستحكينه لى .. لكننى أريد أن أعرف السيئات والحسنات فى نفس الوقت !!

ـــ الغجر زيهم زى كل الناس .. فيهم الكويس وفيهم الوحش .. فيهم الطيب وفيهم الشرير .. فيهم الطاهر وفيهم النجس .. فيهما النضيف وفيهم الوسخ .. لكن الناس بيحبوا دايما يشوفوا نفسهم ملايكة واحنا شياطين !! أمال ياسى إيهاب .. حكم القوى على الضعيف !! عشان احنا قلة وهم كترة !! ياما كان فى نفسى يكمل واحد مننا علامه ويطلع يفهمهم قد إيه احنا ناس طيبين وأشراف لكين مظلومين !!

ـــ فلأكن أنا هذا الواحد ! ألا تعلمين يا بلسم أن الأسباب التى جعلت خطيبتى تهجرنى لرجل آخر أننى أحمل ملامحكم ؟!

دقت على صدرها مع شهقة اندهاش عابر :

ـــ يوه ياسى إيهاب .. مش قلت لك احنا تهمة .. لكين أنت مش غجرى ولا من أصل غجرى !!

ـــ كيف عرفت ؟!

ـــ من اللغوة والحركات ! أنت ابن ناس يا بيه مهما لبست مبهدل واشتغلت فى كانتين المستشفى !!

ـــ هل الفروق واضحة ومحددة هكذا بين الغجر وغير الغجر ؟! إن ملامحكم تشبه ملامح الملايين من المصريين فى القرى والصعيد !!

ـــ صحيح إحنا شبه بعض .. وبنرطن زي بعض .. لكين مع بعض .. لينا السيم والرطان بتاعنا .. وحاجات تانية ما يعرفهاش إلا الغجرى ابن الغجرى !!

ـــ تلك هى الحاجات التى أريد أن أعرفها دون خوف أو حرج ! أريد أن يعرف كل الناس أن الغجر ناس طيبون وأشراف مثل معظـــم البشر .. والعلم كفيل بشرح وتوضيح كل شئ !!

غطت وجهها سحابة حزن عابرة فجعلت سمرته داكنة :

ـــ تصور ياسى إيهاب .. أنا دمى م النوع اللى ممكن يتنقل لكل الناس .. الدكتور بكير هو اللى قاللى كده بعد ماخد عينة .. وياما اتبرعت بدمى فى المستشفى .. وبعد كده كنت باخد ساندويتش وكباية لبن واللى فيه القسمة .. لكن بعد كده حصلت حاجة خلتنى أحلف ما أتبرع بدمى لجنس مخلوق مايكونش غجرى !!

أحس بقلبه يصفق داخله كطفل متسائل فى نشوة مثيرة :

ـــ كيف ؟! لماذا ؟!

ـــ جاية فى الكلام ياسى إيهاب .. أنت جدع ابن حلال وطيب .. فى يوم جم الناس ناقلين واحدة ست للمستشفى بتنزف وبتطلع فى الروح .. دوروا ليها على دم مالاقوش الدم اللى ينفعها .. جولى جرى وأنا قاعدة على باب المستشفى زى ماشفتنى ماتأخرتش .. قمت معاهم .. شافتنى الولية وكانت عارفانى .. قامت صارخة وراسها وألف صرمة ماتاخدش دم منى .. ومستعدة تموت ودم الغجر مايجريش فى عروقها !! وفضلت ترقع بالصوت الحيانى .. قام الدكتور بكير لطمها على وشها الأصفر الكركم .. وقلها اخرسى يا مجنونة .. اتهمدت وخافت منه .. طبطب علىّ وطيب خاطرى وقاللى كله عند الله يا بلسم .. ونقل دمى ليها .. وانقذ حياتها .. لكين خرجت م المستشفى عشان الكل يعايرها .. والعيال تزفها فى الحارة : الغجرية أهى أهى .. الغجرية أهى أهى !! ومابقاش حدم الكبار بيجى ناحيتها ولا عاوز يكلمها .. لحد ما حاولت مرة أنها تموت نفسها .. أنا بقى حلفت بعدها إنى ما أدى دمى لجنس خشنى يعنى مش غجرى !! هى دى آخرة خدمتى وإنسانيتى ؟!

التقت عيناها بعينيه فى نظرة طويلة صامتة قطعها بنبرات تفيض حنانا وهو يربت على يدها المشدودة فوق المائدة :

ـــ كله عند الله يا بلسم كما يقول الدكتور بكير !! المهم .. كنت أريد أن أعرف السم أو الرطان الذى تكلمت عنه .. خصوصا ذلك الذى نطقت به عندما قرأت الطالع لبهيرة و لم أفهم إلا بعضه .. وإن كنت أشعر أن كل ما تنبأت به قد تحقق بالفعل !!

ـــ اسمها بهيرة ؟

ـــ نعم !

ـــ اسم حلو وصاحبته أحلى !!

ـــ ليس أحلى منك يا بلسم !

ـــ العفو ياسى إيهاب .. العين ما تعلاش عن الحاجب ! الحكاية ما فيهاش نبوة ولا حاجة .. أستغفر الله العظيم من كل ذنب .. الحكاية كلها فراسة ؟!

ومض الشوق المثير فى عينيه المتسائلتين :

ـــ كيف ؟!

ـــ إحنا بنقرا الوش قبل ما بنقرا البخت !!

ـــ كيف ؟!

ـــ إحنا حافظين كلمتين للوش الحزين .. وكلمتين للوش القلقان .. وكلمتين للوش اللى لسه نفسه فى الدنيا .. وكلمتين للوش الفرحان .. والناس كلاتها واحدة .. نفسهم فى السعادة والخير والبعد عن الغم والشر .. والكلام اللى ينفع لده ينفع لده .. وإذا ما نفعش ما حدش حاييجى يحاسبنى ! واهو رزق الهبل ع المجانين ؟!

سعد لصراحتها وضحك لخفة دمها لكنه أمسك بتلابيب الحوار المثير حتى لا تفلت من يديه :

ـــ لكن لماذا تكلمت بلغة الغجر وأنت تعلمين أننا لا نفهم معظمها إن لم نفهمها على الإطلاق ؟!

ـــ عشان أخلى اللى قدامى يحس أنه قدام سحر بصحيح .. وبعد كده إذا حاول يستفهم ويتقصى عن أى حاجة أشرحاله .. وكله بثوابه .. لكن الفقرا والغلابة

بتكلمهم بالعربى على طول .. أمال .. إحنا لينا نظرة فى الزبون !!

— ومن علمك هذه اللغة ؟!

— ما حدش .. طلعت لقيت أبوى وأمى بيرطنوا بيها .. لقطّها منهم !!

— هل تعرفين القراءة والكتابة يا بلسم ؟!

— رحت المدرسة لحد تالتة ابتدائى .. وبعد كده بقيت أسرح مع أبوى وأمى فى الموالد والمواسم .. حكم أمى كانت بتشتغل غازية ؟!

— ولماذا لم تعملى مثلها ؟!

— جرحى حرّج علىّ ! أصله بيغير علىّ خالص !!

— فى كلامك لبهيرة ذكرت ألفاظا مثل التفتافة واللفلافة والخوامة والنفاخة .. أتمنى أن أعرف منك معانى هذه الكلمات !!

— انت لسه فاكر يا سعادة البيه ؟! أنا لما قريت وش الست بهيرة لقيته قلقان ومتضايق وخايف من حاجة مش عارفة إيه هى .. قمت قلت لها : بصى للكوديانة اللى بتحصحص المبختيش .. يعنى تعالى للبنت .. للست اللى بتشوف البخت .. الليلة دى دفا وعفا ومأصبح مصقعيش..يعنى الصبح حايبقى صاقع..الليلـة دى سبساب مأنور..مأصبح قبقاب مقدر..يعنى الليلة دى شعر منور زى الشمس .. زى القمر .. زى النجوم .. وبكره الصبح قبقاب مقدر .. يعنى حاينزل نجمها لحد ما يوصل للقبقاب المكتوب عليها !!

صمتت لحظات لتلتقط أنفاسها من نهديها النافرين فسألها :

— قلت كلاما أكثر من هذا !!

— جايالك فى الكلام .. قلت لها .. فى إيدك ختميش كله مدهبيش يعنى فى إيدك خاتم من دهب .. يا عينى على مصبعيش بكره منحسيش .. وبكره صباعها حايبقى لابس خاتم نحاس .. أوعى التفتافة تحرق اللفلافة .. أوعى السيجارة تحرق الجلابية .. معاكى أروب .. شورية ومرعاو وشنوب .. معاكى راجل .. كله خير .. شورية يعنى فرخة .. ومرعاو سمك .. وشنوب أرغفة عيش .. لابدلك الشلـف

مصفيرش .. يعنى مستنيكى الشرير السئ أبو وش أصفر .. يديكى العضم وهو المدهينش .. يعنى الدهن .. حايقلعك الخوامة ويلهف النفاخة .. حا يقلعك الفستان ويسرق الجاموسة .. يعنى اللى وراها واللى قدامها .. وبرضه مهما طال الغلموس على الموكنة .. مهما طال الليل على البيت .. مش حاينساكى مأكبر البراغنة .. مش حاينساكى ربنا !

— صحيح يا بلسم ؟!

فوجئت بلسم بالحرارة اللافحة من سؤاله الملح فطمأنته :

— عارفة إنك لسه بتحبها .. ربنا يرجعها لك ياسى إيهاب .. والليل مهما طال لازم الفجر يجى وراه !!

سحرته حكمتها المتدفقة تفاؤلا بالحياة والمستقبل برغم كل شئ :

— أشعر أننى سأتعلم منك ما لم أتعلمه فى الجامعة !!

أشاحت بوجهها خجلا مزج سمرتها بحمرة خفية مع إرتفاع حاجبها الأيمن :

— العفو يا سيد الرجال .. كلامك بيفكرنى بموال كان أبوى دايما بيغنيه ع الناى فى ليالى الحر والقمرة ؟!

وقع إيهاب صريع اللهفة :

— ماذا كان يقول ؟!

صدح صوتها بالموال الحزين وطلائع الدموع فى عينيها :

— طيب ليه يا زمن تحط على الرايقين ؟!

وتسقيهم كاس المر من بعد الحلو كانوا رايقين .

والسبع حزين والكلاب قباله رايقين .

واللا يغرك لُبس الجوخ وعماهم .

وآدى الزهر بيت حدى الأندال وعماهم .

شوف من عماهم فاتوا الجواهر وميلوا عالصدف وخدوه !

صمتت لتحبس الدموع داخل حدقتيها بإرادة حديدية عندما لمحت وميضها فى

عينيه الواسعتين السوداوين الحادتين ، ورعشة شاربه الدقيق فوق شفتيه الداكنتين ببروزهما المستدير المكتنز ، وتحت أنفه المدبب المشرئب إلى أعلى ! وضع سدا أمام الطوفان الهادر الكاسح داخله :

— أريد أن أستمع إلى المزيد ! الإستماع إليك متعة لا تعادلها متعة أخرى فى الوجود !!

عبرت بلسم بوميض نظراتها النافذة فوجدت الشمس وهى توشك بلـونها الأرجوانى على المغيب ، وشاع فى السماء نور الغروب الفضى وقد كسا الكون بلون رمادى جليل . دقت باللهفة على صدرها فرنت حبات عقدها :

— يا لهوى ياسى إيهاب .. المغرب حل ولسه ماغسلتش حاجة !!

— ما فعلناه اليوم أهم ألف مرة من الغسيل والنظافة .. وإذا كنت قلقة وفى عجلة من أمرك ففى إمكانك العودة إلى بيتك الآن .. وسأنتظرك غدا فى نفس الميعاد بإذن الله !

— والغسيل .. مين يعمله ؟!

— غدا .. إن شاء الله !

ثم أخرج من جيبه ورقة من فئة العشرين جنيها ودسها فى يدها لكنها قاومت بكل عنف وهى تنهض ممسكة بحقيبتها وقد انفرج حاجباها :

— عيب يا بيه .. هو كل مرة .. ده شئ كتير قوى .. أنا ما عملتش حاجة انهاردة عشان أستحق عليها ده كله !

ضغط على يدها بعنف أشد وقد قفز واقفا إلى جوارها :

— ما عرفته منك لن أجده فى مراجع كثيرة قد تكلفنى عشرات الجنيهات .. ومع ذلك لن تفيدنى مثلك .. لكن فى المرة القادمة أرجو أن تسمحى لى أن أسجل ما يدور بيننا على الجهاز حتى أرجع إليه وقت اللزوم !

لم تفهم كل ما قاله لكن ثقتها فيه أصبحت عمياء :

— أمرك يا سعادة البيه !

ترك يدها فأسبلت عينيها محاولة إعادة المبلغ إليه ، لكنه دسه فى جيبها وقد استشعر طراوة فخذها البض الساخن . سحب يده هربا من قشعريرة المس الكهربى قائلا :

— عيب !

انعكس وهج الغروب عبر النافذة على حمرة ابتسامتها التى امتزجت خجلا بسمرة وجهها الذى أدمن إيهاب النظر إلى وميضه البرونزى . سارت تجاه الباب وهو إلى جوارها يكاد يلتصق بها وهو يفتحه لها بنفس السكون الصاخب بشتى المشاعر ! هبطت بلسم على الدرجات كالطيف السارى فى الأحلام فى حين لمح إيهاب باب شقة الدكتور بكير يفتح بوصة او بوصتين بحيث لم ير من فتحه برغم أنه يعرفه ! انطلقت بلسم خارجة فعاد إيهاب أدراجه ليتابع شبحها الذى اختفى مع منحنيات الطريق المحاذى للترعة !

صبغ الشفق الكون بحمرته البرونزية فبدت عزبة بهيرة غارقة فى سكون الغروب عند خط انطباق الأفق ! تذكر إيهاب عم شعبان ناظر العزبة الذى هرب ابنه مع إحدى الغجريات ، والذى لم يرفع رأسه فى وجه أحد منذ ذلك اليوم الذى لطخه فيه ابنه بالعار والفضيحة ! تعجب إيهاب لهؤلاء الفلاحين شبه المعدمين الذين يترفعون عن الغجر ، ويصبون احتقارهم على رءوسهم كما لو كان الإنسان قد خلق ليبحث بالضرورة عمن يحتقره ، والتمس إيهاب العذر فى الوقت نفسه لابن عم شعبان ، ذلك أن للغجريات سحرهن الذى لا يقاوم ! هذا السحر الوحشى الذى لم تشوهه الأيام بعد !

كانت الشمس قد غرقت عند خط الأفق خلف عزبة بهيرة ، لكن الوهج الأرجوانى دل على إصرارها على أن تلف المدينة فى ردائها الساخن الشفاف ! هبت بعض النسمات الرقيقة لكن ضعفها امتزج بخجل وحياء بالغين ! ياله من صيف !! إن سخونته لا تقل عن لهيب بلسم التى افترش وجهها صفحة السكون أمامه ببريق عينيها الحاد الأسود ، وضفيرتيها الغليظتين المنهمرتين تحت طرحتها القاتمة ، وأذنيها الصغيرتين بقرطهما النحاسى اللامع على شكل مخرطة صغيرة ، وشفتيها الغليظتين

فوق خطوط الوشم الأخضر حتى أسفل الذقن ، وأنفها الحاد المشرئب إلى أعلى بحلقته المعلقة من الجانب الأيسر ، ونهديها النافرين دون رباط تحت ثوبها الأسود الذى استرخى عليه عقد من حبات زرقاء وحمراء ! ورائحة المسك المتضوعة من مفرق صدرها !

هل كان إيهاب يتصور أن هذه المدينة الوادعة المغمورة فى قلب الدلتا يمكن أن تحتوى على كل هذا السحر والنشوة الغامضة ؟! شعر أن عالما جديدا قد فتح بأسره أمامه ، وأن الأيام القادمة تحمل له بين طياتها من الإثارة ما يعجز عن تبين ملامحه ! قرر ألا ينتظرها بل سيذهب إليها كالسهم المارق لعله يزيل كل رواسب الصدأ التى لطخت معدنه البراق !

ما هذه البرودة السارية فى الأطراف ؟! ولماذا يصر المطر على أن ينهمر دون انقطاع كما لو كانت السماء لا تريد أن تكفكف الدمع ؟! لماذا تختفى الشمس خلف هذه السحب الرمادية الكثيفة الداكنة التى تحيط المدينة الهائلة بستائرها الثقيلة الكئيبة ؟! السيارات والمركبات والحافلات تنطلق أسفل الشرفة فى ضجيج لا يكاد يصل إلى الآذان المتوارية خلف الواجهات الزجاجية ، وقد أضاء بعضها الأنوار الكاشفة برغم أن الساعة لم تتجاوز الرابعة مساء ! أرض الميدان الفسيح تسعى جاهدة لابتلاع دموع السماء التى جعلتها تلمع وتومض كالمرآة العاكسة للمصابيح الثابتة فى الزوايا والمنحنيات وعلى الطوار ، والمتحركة مع السيارات ! الجميع يهرعون فى صمت ذهابا وإيابا ! لا أحد يلتفت إلى الآخر ! الشعر الأصفر والأحمر يتطاير مع الرذاذ التى يلطم العيون الخضراء والزرقاء وسط الوجوه المستديرة والطويلة ببياضها الناصع المشرب بالحمرة ! بعضهم يدخل المحال المتناثرة فى أرجاء الميدان ثم لا يلبث أن يخرج حاملا كيسا أو علبة ! سيارات الأجرة السوداء المكعبة كالصناديق الضخمة تقف فى هدوء لتحمل راكبا أو اثنين ثم تنطلق مختفية فى الشوارع الجانبية ! الحافلات الحمراء ذات الطابقين تلزم الجانب الأيسر وقد سطعت أنوارها من نوافذها فالتقت بالأضواء المنبعثة من قلب المحال ومن لافتاتها !

تابعت بهيرة هذا المنظر من خلف شرفتها الزجاجية المطلة من الفندق الفاخر على الميدان الفسيح الذى تقع أسوار جامعة لندن على مرمى البصر عند إحدى زواياه النائية ! داخل هذه الأسوار عاش إيهاب ، وحلم بها ، وكتب إليها الخطابات التى كانت تصلها كل يوم تقريبا ، والتى لا تزال تحتفظ بها فى بيتها ! لماذا يطاردها شبح إيهاب حيثما تذهب وحيثما تحل ؟! حتى الفندق الذى تصادف أن نزلت به يكاد

يطل على جامعته التى كثيرا ما قص عليها ذكرياته فيها ؟! كذلك فإن سلوك وسيم الذى تعرىٰ أمامها بسرعة لم تخطر ببالها ، كان يذكرها دائما برقة إيهاب ، ونضج فكره ، ودماثة أخلاقه ، وسعة علمه ، وقلبه الذى يتسع لكل البشر ! كان نقيضه فى كل شئ ! نفس التناقض بين برودة إنجلترا وسخونة مصر ! كان وسيم قادرا على أداء دور العاشق الولهان ، لكن من أجل متعته فحسب ! أما شريكته فالمفروض فيها أن تكون مستمتعة وغارقة بين أمواج الرغبة والشهوة حتى لو عانت من الألم والإيذاء ! وبمجرد أن ترتوى شقوق أرضه ، ينام ملء جفونه تاركا إياها للألم والأرق والسكون الذى يجتر ذكريات الماضى القريب السعيد ! وليس لها أن تشكو أو تتبرم ! يكفى أنها مع الساحر الذى خلب لب كل النساء اللاتى يتمنين نظرة أو لفتة يتعطف بها عليهن ، ناهيك عن الحب والزواج !

بدا أمام عينيها الأنانية تسير على قدمين ! لا يرى فى الحياة سوى متعها الحسية وخاصة الجنسية منها ! حتى فى شهر العسل كان يسير إلى جوارها فى شوارع روما ثم باريس ثم لندن ، وعيناه على وشك الخروج من محجريهما خلف النهود والأرداف والسيقان والشفاه بنظرات تكاد تعرى السائرات من كل ملابسهن ! ولا مانع من تبادل الابتسامات ، البريئة من ناحيتهن ، المسمومة من ناحيته ! كان يظن أنه لا توجد الأنثى التى تستطيع أن تصمد لحظة أمام سحره الآسر ! و لم تكن له هواية مفضلة مثل التردد على الأندية الليلية التى تقدم فقرة خلع الملابس ، حتى لو كان جمهورها من السوقة والرعاع ! ولذلك أقسمت ألا تذهب معه إلى مثل هذه الأماكن بعد أن وقع ما وقع آخر مرة !

اصطحبها إلى أحد هذه الأندية الواقعة فى شارع وندميل أو طاحونة الهواء ، ذلك الشارع الضيق المتفرع من ميدان بيكاديللى ! كان النادى تحت الأرض وهناك وجدت نفسها بين الرعاع ذوى السترات الجلدية ، والسوالف الكثة ، ورائحة العرق التى تزكم الأنوف ! لم تشأ بهيرة أن تلهب الموقف وأن تهرع إلى خارج المكان الخانق بدخان التبغ الكريه . بل صبرت كعادتها منذ أول يوم لزواجها ، لكنها أقسمت بينها

وبين نفسها ألا تتردد معه مرة أخرى على مثل هذه الأماكن ، فإذا شاء أن يذهب فليذهب وحده أو حتى إلى الجحيم ! وبدأ العرض وإذ به هذه المرة بين رجل زنجى كالأبنوس اللامع ، وامرأة شهباء كالحليب ! شرعا فى خلع ملابسهما قطعة قطعة على إيقاع طبول مجنونة كأنها صادرة من قلب غابات أفريقيا وأحراشها إلى أن أصبحا كيوم ولدا ! عندئذ تعالت صيحات الجمهور من أنحاء القاعة المكتظة به : افعلها .. افعلها !! ثم ألفاظ نابية جارحة كالقذائف الموجهة دون أن يلون الخجل وجه أحد الحاضرين ! فى حين ارتسمت ابتسامة مقيتة على وجه وسيم الذى نسى وجودها إلى جواره تماما وتعلقت عيناه بما يدور وبما سوف يدور على المسرح الهابط الصغير !

وسرعان ما شرع الذكر الأسود اللامع والأنثى البيضاء الشهباء فى ممارسة الجنس على المنصة بين آهات المعجبين ، وتصفيق الحاضرين على نفس إيقاع ما يدور على المسرح ، وتعليقاتهم الصارخة التى بدت للآخرين شيئا طبيعيا للغاية ! لم تصدق بهيرة هذا الكابوس الحى الذى ترزح تحت وطأته ، فتحركت أمعاؤها ببوادر طوفان من القئ ! قفزت ناهضة وأخبرت وسيما دون أن يسألها عن وجهتها ! ذهبت إلى دورة مياه السيدات لعلها تتخلص مما جثم على أنفاسها وأمعائها ! تراجع إحساسها بالغثيان بمجرد سيرها المتسرع ، لكن كان المنظر الذى وقعت عليه عيناها عند لحظة دخولها سببا فى أن تفرغ كل ما فى أمعائها فى أول حوض أمامها ! فبرغم الإضاءة الخافتة لدورة المياه رأت عدة فتيات وقد التصقن فى جسد واحد وهن واقفات شبه عاريات !! الشفاه على الشفاه ! والألسنة تدور داخل الأفواه لتنهل من لعاب الأخريات ! والسيقان والأرداف متداخلة فى بعضها بعضا بحيث يتعذر التفرقة بين هذه وتلك ، بل أن إحداهن ركعت أو جلست القرفصاء لتترك وجهها يتقلب بين الأرداف ، ولسانها يلهث ويسيل هنا وهناك !

دارت الأرض تحت قدمى بهيرة ، واصفرت الأضواء فى عينيها ، وسرت البرودة فى أطرافها مع بوادر رعشة كهربية انتشرت تمس قلبها وتوحى إليه بأن يتوقف حتى تغيب عن الوجود ! تماسكت بعد أن استدعت كل احتياطى القوة من أعمق

أعماقها وسارت إلى حيث مقعدها ومالت على زوجها بين صرخات الجالسين الذين طالبوها بالجلوس حتى لا تحجب رؤية اللحظات المصيرية التى تدور رحاها على المنصة ! لم تعبأ بصياحهم بل صرخت فى أذن زوجها :

ــ إذا لم تخرج معى حالا فسأذهب وحدى إلى الفندق !

حاول أن يثنيها عن عزمها بحجة أن العرض على وشك أن ينتهى ، لكنها أصرت بل تحركت بالفعل فاضطر إلى اللحاق بها ! صعدت الدرجات الرخامية إلى أن وجدت نفسها فى الشارع حيث الهواء النقى البارد والرذاذ الخفيف المتناثر ، تنفست الصعداء وهو يسير إلى جوارها فى صمت حانق حتى استقلا سيارة أجرة إلى الفندق !

فى الغرفة ذهلت للصفرة التى زحفت على وجهها الذى تلاشى بياضه المشرب بالحمرة ، والهالات الداكنة التى أحاطت بعينيها العسليتين الواسعتين ، ولسعها الندم لأول مرة بسياطه الشائكة اللاهبة لتركها قيادها حتى وقعت فى براثن هذا العربيد التافه ؛ وقررت منذ تلك اللحظة أن تنفذ ما يحلو لها كما يفعل هو تماما ! فالحقوق لا تنفصل عن الواجبات ! ولن تخضع من الآن لنزواته التى إذا لم يهذبها فليذهب معها إلى الجحيم ! ويجب أن يعلم أنه مجرد موظف علاقات عامة فى مشروعات أبيها الذى لولاه لظل عاطلا يعيش مع أمه على اجترار أمجاد الماضى الذى لن يعود ! أما كونه ابن خالتها فأمر لا يعنيها على الإطلاق بعد أن أثبتت لها الأيام القليلة الماضية أن صلة العقل والفكر والوجدان أقوى ألف مرة من صلة الدم والقربى والأصل الواحد التى ليس فيها للإنسان إرادة أو اختيار ! أما وسامته الساحرة فقد أصبحت فى عينيها القبح عينه ! بل إن العنجهية الفارغة التى يكاد يتفجر بها داخله ، ليس لها أى أساس ! فهو لم يفعل فى حياته ما يمكن أن يفخر به أمام الآخرين ، إذ أنه لافضل له سواء فى وسامته الجذابة من الظاهر أو أصله الأرستقراطى الذى فقد كل سند اقتصادى له !

غيرت ملابسها فى لحظات استقلت بعدها فى الفراش لتدير له ظهرها دون أن تتبادل معه كلمة واحدة ! أهملها وفتح الثلاجة الصغيرة ليخرج زجاجة بيرة صبها كلها فى كوب طويلة ، وأشعل سيجارا شاعت رائحة دخانه النافذة فى أرجاء الغرفة .

جلس فى المقعد الوثير ليدير التليفزيون ويفتش بين قنواته حتى عثر على برنامج منقول على الهواء من أحد الأندية الليلية ! كان العرض زاخرا بالأغانى الصاخبة ورقصات الكان كان ، لكنه لم يجد بغيته وسطها ! تثاءب وتمدد فى مقعده لكنه واصل المشاهدة الصاخبة دون أن يعبأ بمشاعر تلك التى تحاول النوم أو التناوم فى هدوء ! كانت تتقلب من حين لآخر وتتململ دون أن تدير وجهها ناحيته !

أطفأ التليفزيون ونهض ليدير قرص التليفون مرتين أو ثلاثا ثم يطلب الاتصال بالقاهرة ويخبر الموظف برقم ليس غريبا على بهيرة التى سرعان ما تذكرت أنه رقم علياء ! رفعت ذراعها التى كانت تغطى بها رأسها فرأته فى المرآة المقابلة للسرير يتأملها بنوع نسائى من الكيد والتشفى ! لم تفتح عينيها على آخرهما حتى لا يشك فى تناومها ! وضع السماعة وظل يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، يملأ جوها بدخان سيجاره النفاذ حتى سمع رنين التليفون فأسرع إليه وإذ بالقاهرة على الخط ! وصوت وسيم يجلجل فى السماعة :

— أهلا يا لولا .. كيف حالك ؟! إننا نفتقدك كثيرا ! لا تؤاخذينى فقد طلبتك فى هذه الساعة المتأخرة لأننا لم نستطع صبرا ....الحمد لله ..... سنعود إلى مصر بعد خمسة أيام بالتمام والكمال .... إنها تهديك أحر القبلات والأحضان .... ذهبت إلى فراشها مبكرة كعادتها .... يبدو أن شهر العسل عندها مثل أى شهر آخر .... بل يبدو أنها سئمت منى .... تريد العودة بأسرع ما يمكن إلى مصر .... وأنا أيضا لكن لأسباب أخرى يا لولا .... كيف حال الشلة ؟! .... سلامى الحار إلى الجميع فردا ..... فردا ...... الجو هنا بارد جدا .... والإنجليز أنفسهم يقولون إنه أبرد صيف مر بهم منذ سنين كثيرة ...... ما الذى يمكن أن نعمله ؟! إنه قدرنا وأمرنا لله ...... وهل يمكن أن تنسى هذه الأيام والليالى ؟! .... يبدو أن الإنسان لا يشعر بالسعادة إلا عندما يفقدها ...... تعرفين صراحتى فى إبداء آرائى ...... لست على استعداد كى أبدل من تفكيرى وسلوكى من أجل الآخرين .... عليهم أن

يتقبلونى كما أنا ..... لن أطيل عليك كثيرا .... سأتركك الآن لتنامى ...... لن أخبرك بميعاد وصولنا ...... لا أريد أن أرهقك .... سنأتى لزيارتك بمجرد وصولنا ..... سأبلغها سلامك وقبلاتك الحارة ..... باى باى ..... مع السلامة ..... نراك بخير ..... مع السلامة !

وضع السماعة وعاود النظر إلى بهيرة كما كان يفعل من حين لآخر لكنها واصلت التناوم والتجاهل ولسان حالها يقول : هذا الولد لم يؤدبه أحد ؟! فهل يمكن أن توفق فيما فشل فيه الآخرون أو نسوا أن يقوموا به ؟! ارتمى إلى جوارها . أضاء الأباجورة الحمراء وهو يطلق صفيرا جزلا ! لم تتحرك وظلت متشبثة بحافة الفراش العريض ذى الخشب البنى الثقيل والذى ينتمى إلى الطراز الكلاسيكى العريق ! تقلب حتى التصق بها لكنها لم تتحرك قيد أنملة بل حاولت قدر إمكانها أن تشد جسدها بحذاء الحافة حتى أوشكت على السقوط ! تلقى الرسالة واستوعبها ليبتعد بدوره إلى الطرف الآخر وهو يقسم بينه وبين نفسه على ألا يقربها حتى تعرف معنى الحاجة وتذوق طعم الذل !

لكنه فى الصباح وجدها لا تزال متشبثة بحافة الفراش ! كيف يلاطفها وقد أدارت له ظهرها ؟! بدأ يهابها ! كان قد أغمض عينيه على نية أكيدة لإذلالها ، لكن إصرارها على موقفها حتى الصباح يدل على أنها يمكن أن تصل معه إلى نهاية المطاف ! أيا كان هذا المطاف ؟! كانت فى نظره مجرد دمية جميلة يستمتع باللعب بها ، بالإضافة إلى أن زواجه منها كان تدعيما لمكانته عند أبيها الذى منحه علاوة شهرية كبيرة قبل سفرهما لقضاء شهر العسل ! ولذلك عليه أن يتحاشى الضغط عليها أكثر من اللازم حتى لا يفيض بها الكيل طالما أنها قادرة على الاستمرار فى إصرارها على تجاهله ليلة بطولها ، وهو ما لم يمر به من قبل مع جميع الحسناوات والفاتنات اللاتى وقعن فى غرامه !

أدار المذياع الذى صدح بموسيقى خفيفة منعشة ! وبعد حوالى ساعة من الانتظار الممل تململت فى فراشها ثم نهضت جالسة فأسرع بإلقاء تحية الصباح وهو يحتضنها ويقبلها ، لكنها ردتها فى اقتضاب شديد ثم نهضت إلى الحمام ! تشاغل بالنظر عبر زجاج الشرفة التى أزاح عنها ستارها . برزت فوق الميدان غيوم كثيفة سوداء ،

وزحفت بسرعة عبر السماء مدفوعة برياح مجنونة ، حجبت بوادر الشمس بحيائها وخجلها ، وحبست المدينة فى خيمة قاتمة كئيبة ! وقف وسيم يفرك كفيه بحركة عصبية لم يألفها من قبل ! غابت فى الحمام لكنه لم يجرؤ على الذهاب إليها ! ماهذا التردد الذى يسرى فى عروقه كالدماء الفاسدة ؟! بل التردد كلمة مهذبة لما يعانيه ! إنه الجبن بعينه ! لقد اعتاد الحصول على رغباته وسط ابتسامات المحيطين به وتدليلهم ، وفى مقدمتهم خالته أم بهيرة ! لكن ما العمل مع بهيرة نفسها إذا كانت قد قررت أن تسير على هذا النهج الشائك الغريب ؟! هل يشكوها إلى أمها بمجرد عودتهما ؟! إن هذا من شأنه أن يجعله أكثر ضآلة وضعفا سواء فى نظر زوجته أو أمها ! لقد أراد أن يثير غيرتها بالإتصال بعلياء اتصالا حميما لا يليق بعريس فى شهر العسل ، ومع ذلك لم تحرك ساكنا برغم تأكده من انصاتها إلى كل كلمة نطق بها !

أخيرا عادت من الحمام وقد انزاحت عن وجهها المسحة الصفراء التى غلفته منذ عودتهما مساء أمس ! أسرع فطلب الإفطار بالتليفون ! تشاغلت بإكمال زينتها مع الرد باقتضاب شديد الأدب على كل تساؤلاته التى اصطنعها كى يزيل الجفوة أو الفجوة الطارئة بينهما ! دارت تعليقاته حول الطقس والغمام والغيوم والأمطار والرياح التى تلطم زجاج الشرفة فى عنف ! كاد تحفظها أن يقتله كمداً ! كان يفضل أن تتطاول عليه ببعض إهانات أو ألفاظ جارحة لعله يستطيع تسخين الموقف وإزالة الثلوج التى بدأت تتراكم بينهما ، لكنها ظلت على هدوئها ، بل إنها تشاغلت أثناء الإفطار بمتابعة الحركة فى الميدان ! ثم تصفحت الصحف والمجلات ، وعندما أبدى رغبته فى الخروج أوضحت له أن الجو فى الخارج لا يسمح بذلك ! لكن كعادة الطقس الإنجليزى فإنه سرعان ما توقفت الرياح عن لطم الشرفة ، وانفتح سقف الخيمة القاتمة الكئيبة ! مما اضطرها إلى الخروج معه والتجوال المعتاد فى الشوارع .

كانت هوايتها المفضلة تأمل ما تحويه واجهات المحال الزجاجية من أزياء حديثة ، فى حين كان زوجها المبجل ينهمك فى متابعة النهود والأرداف والسيقان والشفاه ! لكنه هذه المرة شاركها اهتماماتها وأصر على شراء معطف من الفراء الأبيض لها برغم مقاومتها

الشديدة لقبول هذه الهدية !

واصلا تجوالهما حتى ميدان الطرف الأغر حيث لمحت بهيرة مطعما شعبيا من تلك التى تقدم السمك والبطاطس ! لا تعرف لماذا سال لعابها لتلك الأكلة الشعبية ؟! انطلق الهواء نقيا باردا فى الميدان حول العمود الرخامى البنى الداكن الشامخ لدرجة تجعل تمثال نلسون أعلاه يبدو ضئيلا فى مواجهة مبنى المتحف القومى الذى يضارع اللوفر فى باريس ! تناثرت جماعات الحمام بألوانها البيضاء والرمادية والبنية حول قاعدة التمثال مع ثنائيات العشاق من كل الأجناس والذين انهمك بعضهم فى تبادل القبلات والأحضان الساخنة ، فى حين قبع البعض الآخر ليداعب الحمام ويطعمه ! ملأت بهيرة عينيها بالمنظر ورئتيها بالهواء وهى تشير إلى المطعم :

ـــ سأتناول الغذاء هنا !

سعد وسيم لكسرها حاجز الصمت ، لكنه أحبط فى الوقت نفسه لأنها لم تقل « دعنا نتناول » ! ولذلك اعترض :

ـــ إنه مطعم لا يليق بنا !

ـــ إذا لم تكن متحمسا له فيمكننا القيام بجولة فى المتحف القومى للاستمتاع بمشاهدة اللوحات والأعمال الفنية العالمية التى تحويه !!

أشاح بيده وقد أوشك السأم أن يقتله :

ـــ لا أريد أن تتكرر مأساة اللوفر حين قضينا اليوم بطوله واقفين على أقدامنا لمشاهدة لوحات لا تهمك فى كثير أو قليل .. فأنت طبيبة ولست فنانة على أية حال !

تذكرت خطابات إيهاب التى حكى لها فيها عن الأيام العديدة التى قضاها فى المتحف القومى والمتحف البريطانى وغيرهما من متاحف لندن إيمانا منه أن الثقافة الإنسانية لا تتجزأ ! تذكرت أيضا تردده على مطعم السمك والبطاطس بعد أن يستسلم تماما لهجمات الجوع فى أعقاب كل جولة من جولاته فى المتحف القومى ! نظرت حولها فى الميدان فلم تجد مطعما بارزا مثله . قالت لوسيم بلهجة لم تخل من أمر :

ـــ عليك أن تختار بين المطعم وبين المتحف !

سرى الخنوع والرضوخ لأول مرة فى كلماته :

— أمرى لله .. المطعم أرحم .. على الأقل سنجلس فيه ولن نمكث أكثر من نصف ساعة !!

دخلا المطعم فإذ به مزدحم بالشباب من كل الأجناس البيضاء والصفراء والسوداء ! نضح التشفى على وميض نظراته إليها وهى تمسح بعينيها القاعة الصاخبة بالموسيقى بحثا عن مائدة شاغرة ! لكن سرعان ما جاءت فتاة فى عمر الزهور والابتسامة السعيدة تشع من زرقة عينيها ، وقالت فى رقة متناهية وهى تزيح جدائلها الذهبية المشاكسة من على جبينها الناصع البياض والنابض بالحمرة :

— مرحبا بكم .. أرجوكم .. اتبعونى !

سارت بين الموائد المتراصة التى تكاد تتلاصق ، ونظرات وسيم قابعة على حركة ردفيها الراقصين فى رشاقة شعرية حتى بلغوا ركنا قصيا اختفى خلف عمود ضخم التف ببعض الأشكال السيريالية المجنونة ! هناك كانت مائدة مستطيلة صغيرة جلس إلى أحد أضلاعها فتاة وفتى تلألأ العشق فى عيونهما . جلست بهيرة إلى الضلع المقابل وإلى جوارها وسيم متأففا ! لم تستطع بهيرة أن ترخى عينيها مع علمها بأن الإنجليز لا يستريحون إطلاقا للنظرات المتسللة أو المتلصصة !

كانت الفتاة إنجليزية شكلا وموضوعا ! لهجتها وشعرها البنى الفاتح اللامع القصير وهيمنتها على الشاب الجالس إلى جوارها الذى كان ينطق الإنجليزية بنفس طلاقتها لكن ملامحه كانت وكأنها نحتت من صخر ! لم تخل من صرامة بل من قسوة ! الوجه برونزى ، والعينان تمزجان اللونين الرمادى والأسود فى وميض وقور ، والشعر طويل أسود لامع ينحسر داخل طوق من الصوف الأسود ويتدلى على جبينه العريض ، واليدان ضخمتان وعلى ظاهر الكف الأيمن وشم صغير لحورية الماء ! أما الصدر العريض فقد اختفى تحت سترة من الجلد اللامع ! فى حين تدلى من الأذنين قرط زيتى اللون !

فوجئت بهيرة بالفتاة تبتسم لها فى عذوبة بالغة ثم تسألها :

— تركية أم أسبانية أم يونانية ؟!

أجابتها بهيرة وسعادة غامضة تسرى فى عروقها التى استرخت :

— مصرية !

لكن وسيما سرعان ما أضاف :

— لكن من أصل تركى ! وكذلك زوجها الذى هو أنا !

انفجر وسيم ضاحكا ظنا منه أن الفتاة ستشاركه دعابته لكنها نظرت إليه فيما يشبه التعجب ثم قدمت صديقها إليهما :

— صديقى سام .. ممثل وراقص فى فرقة هوايت هول المسرحية القريبة من هنا !

هز الشاب رأسه فى كبرياء دون أن ينبس ببنت شفة . لم يسترح وسيم لحركاته فسأله:

— هل أنت إنجليزى ؟!

ردت الفتاة وهى تداعب شعر الفتى فى إعجاب وفخر :

— إنجليزى لكن من أصل غجرى !

لم تتصور بهيرة أن إيهابا يمكن أن يطاردها بهذا الشكل وحيثما حلت ! نظرت دون تفكير إلى وسيم الذى اجتر مشاعر الكبر والعنجهية والتشفى ! لكن وجبة السمك والبطاطس سرعان ما وصلت وافترشت المائدة أمامهما تظاهرت بهيرة بالانشغال فى تقطيع شرائح السمك بالسكين ثم التقاطها بالشوكة إلى فمها وهى تقول :

— كنت أظن أن الغجر يوجدون فى مصر فقط ؟!

لم يتخل الشاب عن كبريائه وهو يشعل سيجارة ذات رائحة عطنة بعد الانتهاء من وجبته :

— يعيش فى بلاد العالم ما يقرب من ستة ملايين غجرى موزعين فى مناطق متفرقة من العالم .. وكان يمكن أن يكونوا أكثر من هذا إذا لم تقم حكومة النازى بعزلهم وإبادتهم فى ألمانيا ثم فى البلاد التى احتلتها ألمانيا فى أثناء الحرب العالمية الثانية !!

كانت شهية بهيرة مفتوحة للتساؤلات أيضا :

ـــ لكننا لا نعرف شيئا عن أصل الغجر !!

ـــ ينتمى الغجر كلهم إلى الجنس الهندى .. وكانوا قبيلة متجولة فى أحد الأودية الهندية إلى أن طردهم الغزاة التتار من ديارهم .. ولهجة الغجر تشبه تماما لهجات شمال الهند لدرجة أن الرجل الهندى المعاصر يمكن أن يفهم تماما لغة قبائل الغجر الأوربية ! ولا أحد يعرف التاريخ الدقيق الذى ترك فيه الغجر الهند .. ومن المحتمل أنهم تركوا الهند فى مناسبات متعددة فى أعقاب غزو التتار .. ولأسباب مختلفة غير الغزو نفسه .. ومن المرجح أنهم رحلوا إلى فارس ثم انقسموا إلى فرعين .. فرع رحل جنوبا وغربا إلى مصر وشمال أفريقيا .. أما الفرع الآخر فقد اتجه شمالا إلى أوروبا وبلاد البلقان .. ثم إلى المجر .. ثم بلغوا الأجزاء الغربية من ألمانيا عام ١٤١٧ .. وهو نفس العام الذى وصلوا فيه إلى بولونيا .. وكذلك عسكروا فيه على أبواب باريس !

ذهلت بهيرة لهذا الغجرى المثقف الذى يحاضرها بهذه الجدية وهذه الثقة عن أصول أجداده وتاريخهم دون أى خجل . قالت دون تفكير :

ـــ لم أكن أعرف أن للغجر تاريخا حافلا بهذا الشكل ؟! لكن اسمح لى أن أتساءل عن السر الذى جعلهم فى نظر الآخرين بشرا من الدرجة الثانية إذا جاز لى هذا التعبير ؟!

سعد وسيم الذى كان يتميز غيظا وحنقا لسؤال بهيرة لعله يثير حفيظة الفتى الذى اعتبرته انسانا من الدرجة الثانية بحيث تنفض الجلسة السخيفة بأسرع ما يمكن ! لكن الفتى واصل تدخينه فى هدوء ونظرات الإعجاب من صديقته تحيط به من كل جانب ! فكر قليلا ثم أردف قائلا :

ـــ عانت الجماعات الغجرية فى أوروبا .. على وجه الخصوص .. معاناه شديدة من ألوان التحيز والاحتقار والاضطهاد خلال تاريخها الطويل الذى عاشته بين شعوب تلك المناطق .. وقد تسبب المفهوم العنصرى الذى رسخ فى عقلية الغربى فى أن البشرة السوداء أو السمراء أو الملونة تعنى التخلف والإنحطاط والشر فى كثير من المتاعب التى تعرض لها الغجر .. فهناك مثل يقول إن الشمس التى تجعل الكتان أبيض تجعل فى

الوقت نفسه الغجرى أسود ! ومثل آخر يقول « إنه أسود كغجرى » .. كذلك أدى الغموض الشديد الذى غلف لغة الغجر .. وجهل الناس بأصولها ومصدرها أن شك الناس فيهم .. والشك غالبا ما يؤدى إلى الكراهية !!

صمت الفتى ليلتقط أنفاسه فى حين أطلق وسيم زفيرا طويلا وهو ينظر إلى ساعته بعد أن توقف عن الأكل وعافت نفسه الطعام فلم يكمله ! أما بهيرة فلم تكلمه للإثارة التى اجتاحتها من أعماقها ، وجعلتها تتشبث بحديث الفتى حتى تعرف منه كل ما يمكن معرفته عن هذا العالم المبهر الذى أراد إيهاب أن يفتحه فكان جزاؤه أن طردته من جنتها لتذهب هى بدورها إلى جحيم التافه الجالس إلى جوارها يزفر ويتأفف ! ولذلك قررت إطالة الحوار قدر الإمكان حتى يعلم أنها استردت إرادتها أخيرا أو هى فى سبيلها إلى ذلك ! سألت الفتى الذى أحكم الطوق الصوفى الأسود حول خصلات شعره المتهدلة :

ــ أرجو ألا أكون قد أثقلت عليك بأسئلتى !! لكننى أود أن أعرف حقيقة العلاقة بين الغجر والجريمة ؟!

لم تبد على وجهه أية بوادر للامتعاض أو الإستنكار ، بل أطفأ سيجارته فى هدوء واستأنف حديثه الذى أنصتت إليه فتاته كما لو كانت تسمعه لأول مرة :

ــ بالإضافة إلى التفرقة العنصرية والغموض الشديد فإن الغجر وقت وصولهم إلى أوروبا لم تكن لهم ديانة محددة ولذلك تعرضوا لهجوم رجال الدين الذين كانوا أقوى من الملوك أنفسهم فى ذلك الوقت .. ولا شك أن هذه الضغوط وغيرها أدت بالغجر إلى ممارسة بعض الجرائم مثل الاحتيال والسرقات الصغيرة والكبيرة عندما تتاح لهم .. لكن الأساطير التى نسجت حولهم كانت أبشع من ذلك بكثير !!

توقف الفتى ليرتشف نصف كوب من الماء المثلج ، ويشعل سيجارة أخرى فى حين تساءلت بهيرة فى حرج واضح :

ــ أخاف أن نكون قد عطلناكم عن قضاء مصالحكم ؟!

نظرت الفتاة إلى ساعتها الرقمية السوداء وقالت لبهيرة :

— لا يزال أمامنا نصف ساعة قبل أن تبدأ بروفة سام فى المسرح الذى لا يبعد عن هنا أكثر من خمس دقائق على الأقدام !

أضافت بهيرة :

— لا أستطيع أن أكتم شوقى لمعرفة تلك الأساطير التى نسجت حول الغجر ؟!

أجاب سام بنفس الجدية والكبرياء :

— أشيع عن الغجر أنهم من المغول .. واعتقد الناس أنهم أبناء حام بن نوح .. وأنهم ما زالوا يحملون لعنة جدهم .. كما ذكرت إحدى القصص أنهم أبناء سفاح لعلاقة بين جن وجنية .. وقصة أخرى تقول إنهم سلالة جنس من الأقزام عاش فى مرحلة ما قبل التاريخ .. وقد وضع الغجر فى موضع شك فيما يتعلق بأصولهم لأنهم لم يكونوا سلالة نقية .. وامتزجت لغتهم الأصلية بلغات الأماكن التى انتقلوا إليها واستقروا فيها ففقدت شخصيتها المتميزة .. كما أنهم يرتدون ملابس البلد التى يعيشون فيها باستثناء بعض الملامح المشتركة بينهم مثل الأطواق والأقراط والخناجر والوشم .. ولم ينتج هذا فقط من اختلاطهم بالشعوب التى مروا بها أو عاشوا بينها .. بل أيضا بسبب اختلاطهم وتزاوجهم من أحقر الجماعات الإجرامية بين كلكتا وستوكهولم !! أما فى تركيا وألبانيا فقد اعتقد الناس أن الغجر يحفرون القبور ويأكلون الجثث .. ويرجع ذلك إلى أن الغجر فى هذه البلاد كانوا يدفنون موتاهم فى أماكن مجهولة .. ففى المجر مثلا قبض البوليس عام ١٧٨٢ على مائتى غجرى بتهمة التهام بعض الأشخاص .. وبعد محاكمتهم وإعدام بعضهم اتضح أن هؤلاء الأشخاص ما زالوا على قيد الحياة !

صمت الفتى للحظات ألقت فيها الفتاة برأسها فى دلال واضح على كتفه . أشعل سيجارة من السيجارة التى تآكلت فى المنفضة :

— كذلك أشيع عن الغجر فى مناطق متفرقة فى أوروبا أنهم يخطفون الأطفال .. وقد ساعد على ترسيخ هذا المفهوم كثير من المسرحيات التى قدمت الغجر على أنهم خاطفى أطفال .. أنا شخصيا دعيت للاشتراك فى مهرجان بريستول المسرحى بتمثيل دور غجرى فى مسرحية من هذا النوع لكننى رفضت برغم الأجر المغرى الذى عرض

عليّ .. فأنا نجم مثقف قبل أن أكون نجما محترفا ولذلك فإننى أتناول فى هذا المطعم السمك والبطاطس باستمرار مع سالى !

ثم ربت على وجنة سالى وقبلها فى شفتيها بحنان دافق وهى تقول بهمس مسموع برغم ضجيج الموسيقى الصاخبة :

ـــ كان سام من نجوم مسرحية « شعر » ومسرحية « أوه .. كلكتا » وهو فى طريقه كى يكون من أشهر نجوم التمثيل والرقص فى إنجلترا على الأقل !

ابتسم سام لأول مرة وهو يستأنف حديثه الشائق المبهر لبهيرة ،والسخيف الثقيل على قلب وسيم الذى فقد تماما المبادرة من يده :

ـــ ويرجع السبب فى هذه القصص والشائعات إلى أن الناس عادة ما يلاحظون عددا كبيرا من الأطفال فى معسكرات الغجر .. وبعضهم يتميز ببشرة شقراء وشعر أصفر .. ويعتقدون أن هؤلاء الأطفال ليسوا أبناء الغجر السود وبالتالى فقد تم اختطافهم !! كذلك اتهم الغجر فى بلاد كثيرة بأنهم يجلبون القاذورات .. ويتسببون فى تفشى الأوبئة .. وهنا فى إنجلترا بالذات اتهموا بأنهم السبب فى ظهور الفئران فى الشوارع .. وبالتالى السبب فى تفشى الطاعون الشهير فى لندن عام ١٦٦٥ وعام ١٦٦٦ اللذين هلك فيهما ما لا يقل عن سبعين ألف نسمة ! لكننا إذا نظرنا إلى معسكرات الغجر سنجد أنهم يتبعون قواعد للنظافة لا يتبعها غيرهم من الناس .. ولكن هناك معتقدات غجرية تمنعهم من الإفادة من الوسائل الصحية التى يستفيد منها غيرهم !! كذلك اعتبرهم الناس فاسدين أخلاقيا لدرجة أن كاتبا ألمانيا قال إن كل ملكات الدعارة كن من الغجريات !! كما نظر الناس إلى الرجال الغجر على أنهم فاسدون يحاولون إغراء نساء غير الغجر !!

انفجرت سالى ضاحكة وقد رفعت رأسها من على كتفه وهى تقول له مداعبة :

ـــ أتنكر أنك نجحت فى إغرائى أنا الفتاة البريئة غير الغجرية ؟!

ابتسم سام ابتسامته المغناطيسية الآسرة :

ـــ نجحت فى إغرائك لكننى لم أفسدك .. فقد وقعت فى حبى بمحض إرادتك..

كما أننى لم أمارس معك أى لون من ألوان السحر !!

سألته بهيرة والشوق للمعرفة يسيل من وميض عينيها :

— هل يمارس الغجر السحر والشعوذة فعلا ؟!

— أحب أن أؤكد لك أولا أن بعض الجماعات الغجرية تخضع لنظام أخلاق صارم .. ولكن أدى الجهل بواقع حياة الغجر والحقد عليهم إلى مثل هذه الفروض والتصورات عنهم .. أما الشئ الطريف الوحيد فى حياة الغجر فقد تمثل فى نظرة أبناء الطبقة الأرستقراطية فى أوروبا إليهم بصفتهم جماعة ذات حياة فريدة خلابة . وقد كانوا يدعونهم فى بيوتهم لإمتاعهم بالغناء والرقص .. وفى مقابل هذا حاول بعض الأمراء والأشراف حماية الغجر من بعض القوانين القاسية التى صدرت ضدهم .. كما نظر كثير من الناس إلى الحياة الغجرية نظرة رومانسية .. فقد صور أحد الشعراء غجرية تصف حياتهم بقولها : « نحن سادة الأرض والمحاصيل والغابات والآبار والأنهار . فالغابات تمدنا بالخشب دون مقابل ، والشجر يمدنا بالفاكهة .. والعنب بالنبيذ .. والحدائق بالخضروات ، والينابيع بالمياه .. والأنهار بالأسماك .. والصخور بالظل .. والتلال بالكهوف والهواء النقى .. كل هذا ببساطة انطلاق الريح إلى قلب الغابة .. ببساطة نومنا على الأرض كما لو كنا ننام على سرير لين !! نحن بشر لا نبالى بالألم » .

لم تتخل بهيرة عن تحفزها عندما صمت للحظات يلتقط فيها أنفاسه :

— لكنك لم تقل شيئا بعد عن ممارسة الغجر للسحر والشعوذة ؟!

نظر إلى ساعته قائلا فى بعض من العجلة :

— وأنا لا أزال عند وعدى ... ففى الواقع كانت هذه الممارسة أحد الأسباب التى أدت إلى الخوف الشديد منهم .. فقد مارسوا رؤية الطالع وقراءة الكف .. وكانت الأعمال السحرية تصاحب العلاج بالأعشاب .. كما استخدم السحر وحده فى علاج مآسى الملتاعين فى الحب .. وكان استخدامهم للسحر فى معظم الأحيان لأغراض خيرة غير ضارة .. كما ساد بين الناس اعتقاد بأن الغجر لديهم قدرة السيطرة على النار .. وأن القرية التى يسكنون فيها لا يشب فيها حريق .. لكنهم فى الوقت نفسه كانوا ينهالون

باللوم عليهم بصفتهم السبب فى إشعال الحرائق فى المستنقعات والغابات ! ويشاع عن نساء الغجر أيضا أنهن يملكن قوى سحرية خفية .. وأنهن يستطعن عن طريق بعض التعاويذ علاج عقم النساء .. كما يمكنهن إرجاع الزوج أو الخليل الهارب إلى أذرع المفتونات !

تذكرت بهيرة عالم إيهاب الذى بدا مبهرا لأول مرة ! تذكرت قارئة البخت عند باب مستشفى شبين القناطر ! تذكرت الشمس الساخنة ، والخضرة النضرة ، والهواء الساكن ، والعزبة النائية ، واليوم الذى ركبت فيه رأسها لمجرد تفاهات زرعتها أمها فى رأسها ! ليت إيهاب كان معها ليحصل على هذا الكنز من المعلومات ، أم أنه كعادته قد شرع فى قتل الموضوع بحثا من كل جوانبه ؟! استيقظت من شرودها على صوت سام :

ـــ أما فى إنجلترا الآن فيعمل الغجر فى صناعة دبابيس المكاتب .. وفى جمع الفاكهة .. وفى الأعمال المتعلقة بالخيل .. كما يقومون بعمل السلال والمناخل والأمشاط والحصير .. وقد تخصصت بعض الجماعات فى أعمال الخردة وتجارة البضائع المستعملة .. أما الغجر المستقرون فيعملون فى التعدين وفى مقاولات الزراعة والمعمار وحفر القنوات وفى التجارة .. وبعضهم يملك الجراجات فى حين يتاجر البعض الآخر فى السيارات المستعملة كما يفعل أبى !!

نهض سام ومعه سالى مستأذنا فوقفت بهيرة بدورها ومعها وسيم متثاقلا . سألتها بهيرة فى عجلة :

ـــ وهل تنوين الزواج منه ؟!

ـــ لم نفكر فى هذا الموضوع بعد على المستوى العملى .. لكن عندما نقرره فلن نتردد لحظة واحدة برغم رأى أبى !!

ـــ يبدو أن أباك غير موافق ؟!

قالت باسمة مداعبة :

ـــ أبى عضو فى حزب المحافظين .. ولم يقتنع بوقوعى فى غرام غجرى .. وله

أن يبدى رأيه بكامل حريته .. لكنه فى الوقت نفسه لا يملك حرية فرض رأيه علىّ .. إنها حياتى ومستقبلى ومسئوليتى فى النهاية ! باى .. باى .. كانت فرصة سعيدة أن نراكما ونقابلكما ونتحدث إليكما !

أخرج سام بعض الأوراق المالية وألقى بها على المائدة الصغيرة ، ثم ودعهما وسار محتضنا سالى التى مالت برأسها على كتفه فى مشيتهما الوئيدة بين الموائد المتراصة ، وسرعان ما اختفيا خارجا ! أخرج وسيم بعض الأوراق المالية وفعل ما فعله سام ، لكنه ترك بهيرة تحمل معطف الفراء الأبيض هذه المرة ، فليس هكذا ترد هديته !! ويكون جزاؤه هذه الوجبة السخيفة والجلسة الأسخف ، وتضييع الوقت فى محاضرة مملة عن حثالة الأرض الذين يستميلونها بدرجة لا تحتمل ! لو لم يكن على علم بأصلها وفصلها لظن أنها تنتمى إلى جذور غجرية !

كانت رغبة بهيرة فى مواصلة المشى والتجوال واضحة ، لكن وسيما ادعى إحساسه بالتعب ورغبته فى بلوغ الفندق بأسرع ما يمكن للراحة ! استقلا سيارة أجرة ران الصمت داخلها برغم ضجيج محركات السيارات الأخرى خارجها مع الرذاذ الذى بدأ يتناثر مرة أخرى ويداعب زجاجها . استغرق كل منهما فى تأملاته الشاردة ! كان أكثر ما ضايق وسيم استشعاره على البعد شبح إيهاب من خلال شغف بهيرة فى حديثها مع الغجرى وعن الغجر ! استشعر رنة ندم وأسى لأنها تركت هذا العالم الذى وصفته بأنه حافل أو مثير أو مبهر ! لا يتذكر اللفظ الذى استخدمته على وجه التحديد ولكنه لا ينسى بريق الشغف فى عينيها ! هل يشعر بالغيرة على آخر الزمن ؟! عيب بل عار على وسيم ساحر النساء ومعبودهم أن تثير غيرته فتاة عادية وزوجة تقليدية لم يتزوج منها إلا لكونها ابنة خالته ، فى حين أن مكالمته التليفونية مع علياء لم تثر فيها أية بوادر للغيرة على ما يبدو !

أما بهيرة فقد تضاءل وجود وسيم فى حياتها إلى أن أصبح قزما بالمقارنة بالعملاق الغائب بعيدا فى أحضان الريف هناك فى مصر الدافئة بل الساخنة ! لكن ما العمل إذا كان السيف قد سبق العذل ؟! إن الطلاق ليس بالبساطة التى تتصورها ! فليس هناك

شئ ملموس محدد يمكن أن يؤدى إلى هذا ؟! فالأمر لم يتعد مجرد توترات تافهة على السطح وإن كانت توحى بمدلولات خطيرة فى العمق ! كل ما استطاع أن يفعله على سبيل الانتقام بل التحقير أن ترك لها المعطف الذى أهداه لها كى تحمله بنفسها ، وهو يتجاهل أنه يعيش فى خير أبيها ، وأن ما يحصل عليه من مرتب خيالى ليس لخبرته الثمينة وكفاءته النادرة ولكن لأنه زوجها ! وهى ليست فى حاجة إلى أمها كى تخبرها بهذه الحقيقة البارزة ! بل إنه لم يتكلف إيجارا لشقة مستقلة بهما ، ففى بيت أبيها مرتع مجانى ! ويبدو أنه اعتاد الحصول على كل شئ بالمجان ، حتى هى نفسها ! ولذلك لا يشعر بقيمتها أو بقيمة أى شئ آخر فى الوجود ، بل يتحتم على كل البشر والأشياء أن يدوروا فى فلك سيادته ! هذا فى الوقت الذى أدارت فيه ظهرها للرجل الرزين ، العالم ، الحكيم الذى أحبها من كل قلبه ، وجهز لها عشا فاخرا لتنتقل إليه ، وكانت كل جريمته أنه أراد أن ينهل من العلم حيثما وجد فى وطنه !! إنها مهما دفعت من ثمن للتكفير عن خطيئتها تلك ، فلن تستطيع التغلب على بوادر الإحساس القاتل بالذنب ، والتى بدأت تلح عليها وتتزايد فى الأيام الأخيرة ! ثم جاءت سالى برأيها المتحرر كى تشعلها ناراً حامية !!

إنها لا تعرف معنى لهذا الغرور الزائف الذى يغلف تصرفات وسيم وسلوكه ! لكنه من الآن فصاعدا يجب أن يرى نفسه على حقيقتها وأن يعرف حجمه الضئيل وكيانه المتهافت ! صحيح أنه لم يمر شهر على زفافهما بعد ، لكنه كان من التفاهة والسطحية بل السذاجة كى يكشف أوراقه كلها بأسرع ما يكون ؛ وكلها أوراق خاسرة وإن كان غروره قد زين له أنها لا تخيب أبداً ! حتى براعته فى ممارسة الجنس والتى ظنها سحرا لا يقاوم ، لم تكن سوى أنانية طفل يلهو بدميته حتى يملها أو يحطمها ، وهى وإن لم تكن حريصة على عدم إصابته بالملل ، فإنها لن تسمح له أبداً بتحطيمها ! خاصة وأنها ليست دميته ، كما أنها أقوى من أن يحطمها ! وها هى إرادتها القديمة تعود إليها أقوى ما تكون ، لتعيد صنع قدرها الذى تركته ليتلاعب به الآخرون ويفرضون أنفسهم عليه ! لقد تعلمت من سالى درس العمر : للآخرين الحق فى إبداء آرائهم

فيما يخصها،لكن ليس من حقهم اتخاذ قرار بشأنها طالما أن المسئولية ليست مسئوليتهم فى النهاية ! فالقرار قرارها وحدها بحكم أنها الوحيدة التى ستتحمل نتائجه !!

بلغت السيارة الفندق فهبطا منها إلى حيث المصعد الذى أقلهما فى صمت متبادل إلى غرفتهما ! أسرع بتغيير ملابسه ودس نفسه فى الفراش بغضب طفل يدعى التعب والإرهاق بهدف الهروب من موقف لا يعرف كيفية الدخول فيه أو الخروج منه ! لكن بهيرة لم تعبأ به ، بل اتخذت جلستها المفضلة أمام الشرفة الزجاجية المطلة على الميدان الفسيح الزاخر بالسيارت والحافلات والمركبات الزاحفة تحت المطر الذى بدأ ينهمر دون انقطاع كما لو كانت السماء لا تريد أن تكفكف الدمع ؟! اختفت الشمس وراء السحب الرمادية الكثيفة الداكنة فأضاءت المحال والسيارات أنوارها وأضواءها برغم أن الساعة لم تتجاوز الخامسة مساء ! شرعت المحال فى إغلاق أبوابها مع ترك الواجهات تكشف عما بداخلها للعيون العابرة ! واصلت أرض الميدان ابتلاع دموع السماء التى جعلتها تومض كالمرآة العاكسة للمصابيح الثابتة فى الزوايا والمنحنيات وعلى الطوار ، والمتحركة مع المركبات ! إنها لحظة العودة إلى البيت ! الجميع يهرعون فى صمت ذهابا وإيابا فى زحام لم يشهده الميدان إلا فى الصباح ساعة الانطلاق إلى العمل ! لا أحد يلتفت إلى الآخر ! الحافلات مزدحمة ، وفتحة محطة المترو التى تؤدى إلى باطن الأرض تزدرد المئات وتلفظ غيرهم ! و لم تمض ساعة حتى عاد الميدان إلى هدوئه ، لكنه هدوء رهيب كئيب هذه المرة بعد أن أغلقت المحال أبوابها وأصبح المارة أفرادا متناثرين هنا وهناك ! و لم ينقطع المطر الذى تراقصت قطراته المتدفقة على أرض الميدان !

سرت برودة شديدة فى أطراف بهيرة برغم الغرفة الوثيرة الدافئة ! وفى وجدانها زحفت وحشة مخيفة برغم زوجها النائم أو المتناوم فى الفراش ! واجتاحها الحنين إلى دفء مصر وشمسها الساخنة ، خاصة تلك التى تسطع على أشدها فوق الحقول والحدائق ، وخلال النخيل والأشجار بين أحضان الريف الحانية المتدفقة بفوران المشاعر الساكنة والعواطف الصامتة !

ـــ ياج يعنى نار .. وبانى ين يعنى ماء .. زويل جحش .. وصانو يعنى كلب .. وهانتيف جمل .. ودامانى حرامى .. وبيتوج معناها فضة أو فلوس .. وأتريشنت لبن رايب .. وهنداويل درة شامى .. وباروواه يعنى سمنة .. وبوهوز فول أو لوبيا .. وأشوم معناتها روح .. وهنداويل الدرة الشامى ! والقرد شمول .. والفرخة شورية !!

صمتت بلسم للحظات فى جلستها على السجادة التى اشتراها إيهاب أخيرا من محل عمر أفندى بشبين القناطر . كان لا يزال ممسكا بالميكروفون ليسجل لها كل ما تقول بالصوت وقد قبع أمامها على السجادة . لم تكن بلسم ترتاح لجلسة المقاعد ولذلك كانت سعادتها غامرة متدفقة وهى تقول له بدلال من رفع كل الحواجز :

ـــ دى ياسى إيهاب الكلمات الصعبة اللى مايفهماش غير الغجر .. لكن فيه كلام تانى اللى يدقق فيه يمكن يعرفه !

ـــ هل هذا ما يسمى بالسيم أو الرطان ؟!

ـــ هو بعينه !

ـــ وما الكلمات التى يمكن استنتاجها بعد التدقيق فيها ؟!

ـــ تانى معناتها تونى .. وتقول على النور أو النار مأنورة .. وعلى « قوى »أو .. وقليل إلا .. وصباح مأصبح .. وصغير مأصغير . وكبير مأكبير .. وبيض مدحرج .. وإيد شمالة .. وجلابية خوامة أو لفلافة .. وبق ملأ لم .. والعشرة قروش الفضة أبيضة .. والشعر سبساب .. والجاموسة نفاخة .. والخروف مئ ماء .. والسيجارة تفتافة .. والإنسان كيرة .. والراجل برغة أو أروب .. والست كوديانة .. والولد سمأ والبنت سمأونة واللى مش غجرى خشنى .. والعسكرى

دازى !

قاطعها إيهاب برقة باسمة تسيل عذوبة :

— لكن الكلمات الأخيرة يا بلسم من المستحيل أن يعرفها غير الغجرى .. إنها بعيدة تماما سواء عن الفصحى أو العامية ؟!

لملمت ثوبها الفضفاض من حول فخذيها النابضتين بالدم الساخن :

— يوه ياسى إيهاب .. وأنا إيش عرفنى .. أنا باقولك اللى أعرفه وبس .. وانت بقى شوف اللى يعجبك !

ابتسم سعيدا فواصلت حديثها بمنتهى الفخر والاعتزاز :

— ونقول ع السمك مرعاو .. والعيش شنوب .. والرز نقولله مـرزان .. والحشيش نقولله سوجة !!

— أتقصدين حشيش الجناين والغيطان ؟! أم حشيش الكيف ؟!

— حشيش الكيف طبعا ياسى إيهاب ! أمال حشيش الوز والأنارب ؟! ونقول للقرية أنتة .. والبيت موكنة .. والليل غلموس .. والجزمة إزة !! لكين فيه كلمة « ماخ » ودى بتتقال على حاجات كتير زى الأرض والبحر والشجرة والجبل .. والباب .. وأكرة الباب أو مفتاح الباب اللى نقول عليه « ماخ الماخ » .. والبير « ماخ الموجة » .. وكلمة موجة بنقولها ع الميه والمطر والبحر والخمرة .. وكلمة أنتة على القرية والمدينة .. بس نقول الأنتة الصغيرة والأنتة الكبيرة زى شبين القناطر كده .. ومأنور تتقال ع النور والشمس والقمر والنجوم والنار والبندقية والمسدس !

ارتكز إيهاب بمرفقه على ركبته حتى يريح ذراعه التى تحمل الميكروفون :

— وهل لجميع الكلمات العربية مقابل فى لغة الغجر ؟!

— مش كله .. زى مثلا ما فيش كلمة لكلمة صياد .. فنقول : البرغة اللى بيكيف المرعاو .. يعنى الراجل اللى بيصيد السمك .. وع الراجل أو الست اللى بتشوف البخت نقول : البرغة أو الكوديانة اللى بيحصحص المبختيش .. لكين فيه كلمات سهل أنك تعرفها زى برد أو تلج .. نقول عليها مصقيعش .. وأصبع .. مصبيعش ..

وخاتم .. مخيتمش .. ودهب مدهييش .. ودهن مدهينش !!

أسند إيهاب ظهره إلى الجدار بعد أن أرهقه تقوسه :

ــ هذا عن الأسماء .. لكن ماذا عن الصفات مثل جميل وقبيح .. أخضر وأصفر ؟!

ــ سهلة قوى ياسى إيهاب .. نقول على جميل .. صهيل أو بهيل .. والقبيح الوحش .. شلف .. والأخضر مخضيرش .. والأصفر مصفيرش .. والأسود مسويدش !

صمتت لتلتقط أنفاسها وتمسح قطرات العرق المتلألئة على جبينها البرونزى العريض . فأكمل إيهاب كلماتها فى سعادة دافقة :

ــ والقوى .. أو .. والقليل إلا .. والصغير .. مأصغير .. والكبير مأكبير أو مأكبر !!

أطلقت ضحكة صافية عالية سرعان ما كتمتها بيدها حتى لا تتسرب فى سكون العصر إلى الدور الأسفل أو البيوت المجاورة ، فى حين انفرج حاجباها عن دهشة حرجة :

ــ مش حايفوت شهر ياسى إيهاب .. إلا وحاالاقيك بتتكلم السيم بتاعنا !!

تدفق الحماس من كلماته مع وميض الإصرار فى عينيه الغجريتين :

ــ ليس هذا فقط .. بل أتمنى أن أعيش ولو فترة قصيرة بينكم !!

ــ كله إلا ده ياسى إيهاب .. الغجر أذكيا جدا .. ويعرفوا الغريب من أول نظرة .. ده أنا أخاف عليك قوى !!

ــ أليس من الممكن أن أدعى أننى غجرى جئت من مكان آخر .. بعد أن أتعلم لغتكم ؟!

ــ الغجرى ياسى إيهاب .. مش سيم وبس .. ده فيه حاجات كتيرة تانية بنعرف بيها بعضينا .. النظرات والمشى والحاجات اللى إحنا اتعودنا عليها فى بيوتنا .. الحاجات دى حا اقولك عليها كلها وحاتعرفها .. لكن مش ممكن حاتقدر تعملها إلا إذا كنت

اتربيت عليها من يوم ما تولدت !!

ــ أليست هناك طريقة للاختلاط بكم حتى ولو من بعيد ؟!

ــ ما فيش غير الموالد والمواسم والأسواق اللى بيتقابل فيها الغجر بالحشانة !!

ــ وهو كذلك سأكون سعيدا إذا تمكنت من حضور إحدى هذه المناسبات !!

ــ من عينى ياسى إيهاب !

ثم سال الدلال العذب الصافى من عينيها وهى تسند ظهرها إلى الحائط مع استرخاء حاجبيها فوق عينيها شبه المسبلتين :

ــ هو أنا مش كفاية وللا إيه ياسى إيهاب ؟!

أمسك بيدها وربت عليها فى حنان ساخن :

ــ أنت الخير والبركة يا بلسم !! أنت الدنيا التى انتزعتنى من وسط أعنف أزمة مرت بحياتى !!

ثم انحنى ليقبل يدها لكنها انتزعتها منه هربا من مس كهربى :

ــ أستغفر الله ياسى إيهاب .. أستغفر الله ياسى إيهاب !

خرج صوته هامسا كحفيف العشاق :

ــ أنت لا تعرفين قدر نفسك يابلسم ؟! أنت دنيا بأكملها ؟!

ــ بلاش الكلام ده أحسن أصدق .. ده أنا مش خايفة ياسى إيهاب قد خوفى من أنى أحبك .. ربنا يرجع لك الأمورة اللى لسه صورتها فى قلبك من جوه قبل ما تكون فى جيبك من بره !!

تحولت السجادة الصغيرة إلى بساط سحرى طار به فوق عوالم غامضة مثيرة لم ير مثلها من قبل فى أحلامه وشطحاته الشاردة ! انطبقت صورة بهيرة على صورة بلسم واكتشف أنهما تبدءان بنفس الحرف ! وتذكر آخر زيارة قام بها للقاهرة فى نهاية الأسبوع الماضى ! كان خارجا من بيته فى المقطم للقاء أستاذه الدكتور جوهر لإطلاعه على آخر تطورات البحث وتلقى تعليماته وتوجيهاته ، فإذ بها تهبط من السيارة مع زوجها . لا يعرف لماذا غردت عصافير النشوة فى أعماق وجدانه الحزين لمجرد رؤيتها

وإحساسه بأنها أصبحت قريبة منه لمجرد عودتها من الخارج بعد قضاء شهر العسل ؟!
كان يجتر ذكرياته مع بلسم بكل لفتاتها ولمحاتها ولمساتها فى بعض الأحيان لكن بمجرد أن التقت عيناه بنظرات بهيرة تلاشى الكون كله وعاد الماضى بكل ثقله ونشوته !
كانت نظراتها عابرة إذ سرعان ما أمسك وسيم بذراعها وجذبها على درجات السلم إلى داخل الفيلا ، لكنها كانت نظرات عميقة عمق الماضى كله ، قالت فى وميضها أشياء لا يمكن أن تمت إلى الأوهام الكاذبة بصلة ! ولعل أكثر الأشياء وضوحا وتأكيدا أنها غير سعيدة مع زوجها ! لكنه سرعان ما أوضح لنفسه وهو يدير محرك عربته أن سعادتها أو تعاستها أمر لا يدخل فى دائرة اختصاصه ، فهى سيدة متزوجة أمام الله والناس ، ولم يضربها أحد على يدها حتى تتزوج من تزوجته ! وكل إنسان فى هذه الدنيا حر فى اتخاذ قراره ، لكن عليه أن يتحمل مسئولية هذا القرار والتى لا مفر منها ! ومع ذلك لا ينكر أنه سعد بتلك النظرات التى كانت تحمل بين طياتها إشارة استغاثة به ! حتى وجهها الأبيض الصبوح المشرب بالحمرة شابته صفرة غريبة ! وفى الوقت نفسه سعد إيهاب بتجاهل وسيم له وجذبه لبهيرة من ذراعها ، فهذا إن دل على شئ فإنه يدل على أن وجوده القديم لا يزال راسخا فى حياتها بطريقة أو بأخرى ، وإلا كان من الممكن أن يبادله التحية والسلام بصفته جارهم القديم ولا شئ غير ذلك !

— سرحت ف إيه ياسى إيهاب ؟!

شدته بلسم بعنف من تأملاته الشاردة وخواطره الخاطفة فاستدرك :

— أبداً .. كنت أفكر فى أول فرصة يمكننى فيها الاختلاط بكم !!

ربتت على ركبته فى حنان ممزوج باللوم وابتسامة ناضحة بالعتاب :

— إحنا الغجر ياسى إيهاب بنقرا النظرات قبل ما بنسمع الكلمات ! انت كنت بتفكر فى الست بهيرة ! ربنا يرجعهالك بالسلامة .. قادر يارب !!

هذه الغجرية تحمل فى جعبتها مفاجآت متجددة بل متفجرة ! إنها ترى عودة بهيرة إليه وكأنها شئ يمكن أن يحدث بمنتهى البساطة ، وأن يتم اللقاء بينهما مرة أخرى كما

تلتقى فروع الغدير الصافى بين أحضان الطبيعة :

ـــ تتكلمين يا بلسم كأن شيئا لم يحدث على الإطلاق ! إنها سيدة متزوجة الآن وعودتها أصبحت من رابع المستحيلات !

ـــ الدنيا علمتنا أن العبد فى التفكير والرب فى التدبير ! الواحد ما يقدرش يعرف إيه حايحصل له بعد لحظة واحدة !

ـــ وأنت التى تقرءين الطالع للناس ؟!

غيرت وضع ساقيها فى جلسة القرفصاء المستكينة فتعرى نصف فخذها البرونزى الساخن الذى أصبح مرآه يسكره من حين لآخر ، ولم تعد هى بدورها تعبأ بتغطيته . سال الدلال من نبراتها وارتعاشة حاجبيها :

ـــ ما قلت لك عن سر المهنة ؟! الغيب ده حاجة بتاعة ربنا بس !

ـــ كذب المنجمون ولو صدقوا !

ـــ أديك قلتها بنفسك ياسى إيهاب !

ـــ لولاك يا بلسم لما عرفت كل هذا عن دنيا الغجر .. وأتمنى من الله أن يمكننى من أن أرد بعضا من أفضالك علىّ !!

ـــ أستغفر الله ياسى إيهاب .. كفاية رضاك عنى .. والخير اللى أنت مغرقنى فيه من راسى لرجلى !!

ـــ لا تقولى هذا ! فالخير خير ربنا.!! لكننى حتى الآن لا أعرف شيئا عن الرقص والغناء اللذين أشتهر بهما الغجر ؟!

ـــ تحت أمرك .. أمى عاشت طول عمرها غازية .. ولسه بترقص فى حفلات الجواز والختان والسبوع لما يكون أصحابها ناس عزاز قوى !!

ـــ أأقدر أن أتفرج عليها ؟!

ـــ لما تيجى المناسبة !! أحاول أدخلك وسط الموجودين .. لكن أنا كان باعرف ارقص .. ما فيش واحدة غجرية ما بتعرفش ترقص !!

ـــ هذا ما أتمناه من كل قلبى !

تراقص حاجباها مع وميض عينيها المشتعلتين بفرحة الحياة :

— عندنا عيلات عايشة ع الرقص والغنا .. وبيحيوا الأفراح والختان والسبوع .. ورجوع الحجاج والعمال من الحجاز وبلاد العرب .. ده طبعا غير الموالد اللى بتنتقل ليها العيلة كلها وتفضل عايشة فيها لحد ما تخلص .. نسوان العيلة كلاتها ترقص وتغنى .. والرجالة تغنى وتلعب على الطبلة والرق والربابة والناى والزمارة .. يعنى مثلا كان جرحى بيشتغل سفرقى !

نظر إيهاب مستفهما وقبل أن يفتح فمه أجابته بلسم :

— سفرقى يعنى طبال أو زمار .. لكينها شغلانة مش دايمة .. لكين مش ده هو اللى خلاه يحرم علىّ الرقص والمغنى .. ده أصله بيغير علىّ موت !

لأول مرة يغبط إيهاب جرحى هذا لقرابته وحبه لهذه المخلوقة الساحرة التى لا يمل أبداً من جلستها ، ويفتقدها بجنون عندما تغيب أو تعجز عن المجئ فى ميعادها !. هل هو حب جديد ؟! أم استغراق فى الهروب من حب قديم ؟! استمع إليها بكل نبضات قلبه وهى ترفع حاجبها الأيمن :

— فى الأفراح الستات والرجالة بيشاركوا فى الرقص والمغنى .. لكن النسوان بيروحوا لبيت العريس فى الصباحية لوحديهم ويفضلوا يغنوا ويرقصوا لحد الضهرية !!

— واضح أن الرجال لا يشعرون بأية غضاضة من اشتغال نسائهم بالرقص والغناء ؟!

أمسكت بلسم بميكروفون المسجل حتى تريح ذراع إيهاب الذى تربع على السجادة ببيجامته البيضاء الخفيفة التى كشفت عن سمرته تحتها :

— بعض رجالة الغجر بيحبوا يتجوزوا من الرقاصات خصوصا وهم لسه صغيرين .. مهما قالوا عنهم كده وللا كده .. لا سمح الله .. ومرة حاول أب أنه يخلى بنته الرقاصة تهجر بيت جوزها عشان ترجع له ومعاها مكسبها .. وفيه بعض الغجر يحبوا يتظاهروا بأنهم صرفوا النظر عن الرقص والمغنى .. وبيتخانقوا مع نسوانهم

بحجة أنهم عاوزينهم يبطلوا الرقص والمغنى .. لكين اذا دورت ع الحقيقة حاتلاقيهم بيتخانقوا معاهم عشان عاوزين يهبروا كل رزقهم من الرقص والمغنى على داير مليم ! والرقاصة الغجرية مش ممكن تسيب الرقص إلا لما تعجز خالص .. ده بيجيب لها رزق ما يجيبه أجدع راجل من أيها شغلانة .. وكانت فيه واحدة رقاصة صاحبتى اتجوزت راجل غنى حكم عليها بالقعاد فى البيت .. وفى كل مرة تشوف فيها صحابتها تقوللهم إنها عصفورة صبحت مسجونة فى قفص لحد ما حاتموت .. وفيه واحدة مرات عمدة هنا جنب شبين القناطر فضلت ترقص بعد جوازها وما قدرش يمنعها أبداً !

توقفت لتلتقط أنفاسها اللاهثة . مدت يدها بالميكروفون الذى أمسكه إيهاب لتخرج منديلا وتمسح به حبات العرق المتألقة على جبينها وعنقها مثل شظايا الماس على تمثال من برونز . كان شهر أغسطس موجة من القيظ اللاهب والسعير اللافح ، لكن الإثارة المجنونة كانت قد جرفت إيهابا فلم يعد يشعر ويفكر ويرى إلا بلسم التى كثيرا ما امتزجت ملامحها بوجه بهيرة المشع من دهاليز الماضى الرطبة برغم الفوارق والحواجز بينهما ! تنبه للشريط الذى انتهى فقام بتغييره قائلا :

ـــ واضح أن جمال الغوازى الساحر لم يسلم منه أحد ؟!

ـــ أنت ماسمعتش ياسى إيهاب المثل اللى بيقول « زى ضرب الغازية فى حمارها » يعنى الدلال والمياعة كلها فيهم !

لاحظ إيهاب أن الشمس التى كانت تلهب الغرفة بسياطها المتقدة قد شحبت بعض الشئ ، فانتفض واقفا لدرجة أنه اصطدم بالمروحة الكهربية القديمة التى أعارها الدكتور بكير له ، وكانت على وشك السقوط من على المائدة المتراقصة . صاحت بلسم واقفة هى الأخرى :

ـــ سلامتك ياسى إيهاب !! فيه إيه ؟!

ـــ أبداً !! أبداً !!

ثم أسرع إلى حقيبة السفر الكبيرة الموضوعة فى الركن وفتحها ليخرج منها كاميرا فيديو.نظرت إليها بلسم وكلها شوق لتعرف سر هذه الآلة السوداء اللامعة التى لم تر

مثلها من قبل ! عاد إليها قائلا :

— هذه آلة تصوير يا بلسم ! أريدك أن ترقصى أمامها حتى أسجل رقصاتك وأحللها فيما بعد !!

— كله الا ده ياسى إيهاب !! ده لو شاف أهلى التصاوير دى يقتلونى على طول !! وانت طبعا ما ترضاش ان ده يحصل لبلسم !!

لم تغب عنه نبرات الدلال الذى يدعى التمنع :

— هذه الصور سر بينى وبينك .. لن يراها أحد غيرنا !!

— إذا سرقها حد .. يبقى رحنا احنا الاتنين فى ستين داهية !

— بعد يومين سأسافر بها إلى القاهرة !

— لكين لا بد للرقص من طبلة ورق وربابة وناى وزمارة وصاجات !! أمال الهزة والرعشة حاتيجى منين ؟!

— العين بصيرة واليد قصيرة .. حتى لو كانت معنا الآن لما استطعنا استخدامها !! أتريدين أن يكشفنا الجيران والحى كله ؟!

دقت على صدرها وقد شهقت مع ارتعاشة حاجبها الأيسر :

— دى كانت تبقى فضيحة بجلاجل !

— كل ما أريده منك حركات الرقصة حركة حركة فقط !

— وأنا ما أقدرش أرفض لك طلب ياسى إيهاب .. حتى لو كان على رقبتى !

— تسلم لى رقبتك ! أنت لا تعرفين أننى أعد الساعات ساعة ساعة قبل مجيئك !! وأثقل ساعة على قلبى ساعة خروجك من هنا !

التحفت عيناها الواسعتان بمسحة براقة من دمع الشجن المثير :

— أنا مش قد الكلام ده ياسى إيهاب ! ده برضه العين عمرها ما تعلى ع الحاجب !!

— أريد أن أسمع اسمى من لسانك الحلو بلا ألقاب !

— كان يتقطع لسانى !

— بعد الشر عنك !

— الوقت حايضيع فى الكلام ومش حانعمل حاجة !!

ثم انحنت تمسك بالطرحة السوداء التى كانت قد ألقتها إلى جوارها على السجادة ، وصنعت منها حزاما عريضا احتوى الردفين بحيث أبرز جمال الفخذين النابضين بسخونة البرونز تحت الثوب الزيتونى الخفيف ! أسرع إيهاب ليضبط العدسة على السهام الذهبية التى أغرقت الساحرة البرونزية التى رفعت ذراعيها وفتحت ساقيها ثم دارت نصف دائرة ، والكمان الواسعان الفضفاضان حول الذراعين يحدثان حفيفا مع دورانها الباسم بحركات الرأس والشعر ذات الدلال الأنثوى المتفجر مع تتابع السهام الذهبية والظلال الداكنة على قمم وجهها البرونزية ! شكلت خطواتها الرشيقة إيقاعا مع ارتجاج نهديها وردفيها المحبوسين داخل الحزام المفترى ، وهى تدور كأنها تضرب الصنج بأصابعها ، ثم ترفع يدها إلى أعلى رأسها كأنها تحمل عصا ثم تهبط بها كما يفعلون فى رقصة التحطيب ! كان كل شئ فيها يهتز بنشوة الحياة : ضفيرتاها الغليظتان ، والقرط النحاسى المتدلى من أذنيها على شكل مخرطة صغيرة لم تفقد لمعانها ، وعقد عنقها بحباته الحمراء والزرقاء ، والقرط المخترق لجانب أنفها الأيسر ! حتى خطوط الوشم الخضراء على ذقنها بدت وكأنها ترقص مع ابتساماتها المتتابعة وميل رأسها إلى اليمين واليسار ثم إلى الخلف! فى حين ظلت عيناها ترسلان شواظ لهيبها إلى إيهاب الذى احتمى بالآلة كأنه مصور محترف ! لكنه لم يسلم من الشظايا حتى أوشكت الأرض أو الدنيا كلها أن تدور تحت قدميه !

اختلط الحلم بالواقع وتلاشت الحدود بينهما ! تصبب العرق فائرا بسخونة مسكرة ! أما حاجباها فقد أدارا حواراً مع عينيها لم يسمع إيهاب مثل كلماته من قبل سوى فى الأساطير التى كانت أمه تحكيها له قبل النوم ! كانت ترقص كأنها تؤدى طقوسا مقدسة قد تكون جذورها كامنة فى عصور الوثنية الأولى ! حركات لاتمت للعشوائية بصلة وإنما تجسد آلام الإنسان وآماله ، إحباطه ونشوته ، مرضه وصحته ، عذابه وفرحه ، إدباره عن الحياة وإقباله عليها ، نومه ويقظته ، أحلامه السعيدة وكوابيسه الثقيلة ، ارتعاشة شهوته وانحسارها ، ضجة الحياة وسكون العدم ، فتحة

أحضانه للدنيا واعتصاره لرحيق شبقها ، شمس النهار وقمر الليل ، موجة البحر ودوامة النهر !

تلاشت الدنيا والكون والوجود حول بلسم التى لم تعد ترى سوى إيهاب الذى أصبح محور عينيها حيثما مالت ، وأينما طافت غير عابئة بوابل العرق المنهمر من جبينها وعنقها ، وتحت إبطيها ! دار إيهاب حولها بالكاميرا كأنه يشاركها مد الذراعين ورعشتهما ، وفتحة الساقين ودورانهما مع رعشة الردفين ، وارتجاج النهدين النافرين ، المنطلقين المحطمين لأية قيود ، وسلام اليد على الخد ، وانفراج الشفتين الغليظتين الوحشيتين مع تصاعد الحركات الرعاشة عند الوسط الذى تمحورت حوله تيارات اليمين واليسار صعودا وهبوطا . كانت قاربا ترك شراعه مع هبات الرياح ، ودفته لضربات الأمواج ، ثم فجأة تتحول إلى جبل أشم تنحسر عند سفحه هجمات المد ! ثم تتهادى كبجعة على سطح بحيرة صافية يغازلها النسيم العليل ويداعب ريشها فتنفض الرذاذ بجناحيها ، ثم تمد عنقها وتطعن الماء بمنقارها بحثا عن سمكة شاردة ! ثم تنقلب إلى جنية تدور بعصا الوهم السحرية فتصيب من حولها بالدوار ! أصبح كل شئ يرتعش فيها كأن هذا الجسد البرونزى المتفجر اللاهث يعجز عن احتواء دوامات الحيوية الفائرة داخله والتى بلغت من القمم ما أوشك الزبد أن يغطيها بجليده الذائب ! لكن الدوامة شرعت فى الهدوء بعد أن تخلت عن صخبها الصامت ، وتراخت الأعضاء المشدودة فى دورة ناعمة آذنت بانتهاء طقوس الجنون الوحشى ، وهبطت الشمس مقتربة من خط الأفق ، وفاحت رائحة المسك من جسد بلسم المخضب بالعرق ، وتمالكت نفسها وهى تستكين لاهثة لجلستها على السجادة فى ركنها مرة أخرى !

وضع إيهاب الكاميرا على المائدة التى نالها من حبات عرقه بعض الرذاذ ، وأسرع منتشيا إلى جوارها وقد فقد القدرة على التحكم فى مشاعره أو كلماته أو حركاته أو أعضائه ! ارتمى إلى جانبها ملتصقا بجسدها النابض بالسخونة التى رطبها العرق ، وأمسك بيدها دون مقاومة تذكر منها ، وقبلها بشفتين ملتهبتين ! حاولت أن تجذبها لكن ما سرى فى جسدها أسكرها بنشوة المجهول ، فنظرت إليه بعينين حالمتين شبه

مسبلتين ، فلم يملك سوى أن ينهال على شفتيها يرشف رحيقهما ، وهمساتها المبحوحة الغائرة تقاوم فى يأس قاتل :

— بلاش ياسى إيهاب .. أنا فى عرضك ياسى إيهاب .. إحنا مش قد اللى بنعمله ده ! .. أنا بحبك صحيح .. لكن مهما كنت .. أنت مش ليّ !

— إذا لم أكن لكٌ .. فلمن أكون ؟! أنا على استعداد أن أتزوجك أمام كل الناس .. ومن يعترض منهم فليذهب إلى الجحيم !

انتفض جسدها بين ذراعيه عندما ذكر الزواج ! لم تكن تدرك أن قيمتها عنده تصل إلى هذا الحد ! تراجعت حتى التصقت تماما بالجدار فى محاولة للتخلص من ذراعيه المتشبثتين بجسدها المستكين :

— وحتى لو وافقت أنا ياسى إيهاب ! جرحى يروح فين ؟!

— هل الزواج بالإكراه ؟!

استكانت لأحضانه برغم جسدها المشدود بينها :

— مش بإيدى ياسى إيهاب .. ده فيه حاجة عندنا اسمها جواز الدم !! —

أسرع لاهثا هامسا بمقاطعتها :

— قرأت عنه وأعرفه جيدا .. فيه يحتفل الغجر بمزج دم العروسين بجرح معصمى الفتى والفتاة ويلتصقان ببعضهما كى تختلط الدماء معا !! حتى لو كانا فى سن الصبا المبكر فيمكنهما الانتظار .. فلن يتقدم أحد لخطبة الفتاة التى تحدد زوجها وانتهى أمرها !

— وده اللى حصل بينى وبين جرحى لما كان سنى اتناشر سنة ! ومتنساش كمان إنه ابن عمى !

— وماذا يمكن أن يفعل لوتزوجتك أمام الله والناس ؟!

— يقتلنى أنا وأنت ويروح فى ستين داهية .. مش مهم !!

— هل الحياة رخيصة إلى هذا الحد ؟! هل يمكن أن يفرض الرجل نفسه على المرأة بهذا الشكل حتى لو لم تكن تحبه ؟!

— إحنا مش حانغير الكون ياسى إيهاب !

— ولماذا لم يتزوجك حتى الآن ؟! فأنتم تتزوجون فى سن مبكرة ؟!

— أبوى كان نفسه يشغلنى رقاصة .. أنا شاطرة كده زى ما أنت شفت .. كان ممكن أجيبله فلوس كتيرة قوى .. لكين لما حكم علىّ جرجى بأنى مارقصش .. عصانى أبوى عليه وقاللى بيتحكم على ايه ؟! اشحال لو ماكنش حتة سفرتى لا راح ولاجه !! لكين أنا عارفة جرجى مجنون وقلبه طيب زى العيال .. مارضتش أخسره .. لكين اشترطت عليه أنه يشتغل شغلانة ثابتة عشان يبقى راجل ملو هدومه .. وخصوصا ان أبوه براد شاطر قوى .. واحنا عندنا الولد دايما بيورث شغلانة أبوه .. وفى الآخر سمع جرجى كلامى عشان أطاوعه واتجوزه قوام !!

سرى إحباط مرير فى عروق إيهاب فتراخت ذراعاه متسائلا :

— ماذا تقصدين بكلمة « براد » ؟!

— إحنا نقول ع السمكرى براد .. علشان بيبرد المفاتيح للكوالين .. وجرجى دلوقت بيفوت طول النهار ع البيوت يبرد المفاتيح ويصلح الكوالين ويعمر بوابير الجاز .. بيشتغل ليل نهار وبإيديه وسنانه قبل ما يهل الشتا !

تقهقر العاشق داخل إيهاب أمام شوق الباحث :

— وما المشكلة فى الشتاء ؟!

— فى الشتا بندفى من البرد بالمنقد اللى بنطبخ عليه ونعمل الشاى .. وعشان كده بتسمع الفلاحين والغجر يقولوا « نار الشتا زفر » .. عشان نار المنقد بتدفى تمام وبتسوى الأكل زى الفل .. وما حدش بيرجع لوابور الجاز إلا لما ييجى الصيف !

فجأة انطلق نداء منغم شق غلالة السكون أسفل الشرفة :

— نصلح كوالين .. بوابير الجاز نعمر !

دقت بلسم على نهديها فارتجا مع شهقة رفعت حاجبيها :

— يا لهو بالى .. ده جرجى .. افتكرنا القط !! تبقى مصيبة لو كان شافنى وجاى يطقّس وراى .. يبقى أنا خلاص انطنيت !!

تساءل إيهاب فى شرود حرج :

ــ انطنيت ؟!

ــ يعنى مت .. يعنى خلاص اتقتلت واللى كان كان !

احتواها بعنف زائد فلفح وجهه لهيب أنفاسها :

ــ لا تخافى طالما أنا معك ! روحى فداك !

زاد انكماشها بين أحضانه فشعر برعشة جسدها الرطب :

ــ تسلم لى ياسى إيهاب ! لكن نعمل إيه بقى فى الوعد والمكتوب ؟!

ــ لو كان قد جاء ليطاردك لما صاح مناديا على مهنته !

هدأت أنفاسها ، وتتابعت نداءات جرحى التى خفتت وتلاشت بين طيات السكون . نهض إيهاب ليتأكد عبر حافة الشرفة فلمح شبح جرحى يتوارى عند المنحنى حاملا صندوقه المعدنى الذى علاه الصدأ فلم يعكس أشعة الشمس الغاربة نحو الأفق ! تسلل همس بلسم المبحوح من ركنها إلى أذنيه :

ــ مشى ؟!

ــ اختفى تماما !

نهضت بدورها وقد قبع الرعب على ارتعاشة حاجبها الأيسر :

ــ أروح بقى .. أحسن يروح ما يلقانيش تبقى وقعتى سودة !

ــ هل يعلم أنك تعملين فى خدمة عيادة الدكتور بكير ؟!

ــ أبوى بس هو اللى يعرف .. وطلب أنى أكفى على الخبر ماجور .. عشان جرحى ما يهبرش رزقى !!

انحنت بلسم لتلتقط طرحتها التى أسدلتها على شعرها ، وأمسكت بحقيبتها الجلدية من على المائدة :

ــ تعود بالعافية ياسى إيهاب !

مد يده إلى جيب بيجامته لكنها سرعان ما قبضت عليها بأصابع من فولاذ :

ــ عيب ياسى إيهاب .. لو كنت بتحبنى صحيح بلاش !!

ــ رزقك وتعبك ؟!

ــ مستعدة أشتغل فعلا فى عيادة الدكتور بكير .. ولا أخدش منك مليم واحد !

ــ لو كان لكل الناس قلبك الكبير لأصبحت الدنيا جنة !! لكن لو عملت عند الدكتور لما استطعت أن أراك !!

تراجعت إلى الباب فى عجلة :

ــ معلهش ياسى إيهاب .. مش كل مرة .. خلينى أحس أن قيمتى عندك أكبر من البيتوج !

ــ أنت عندى أغلى من الدنيا كلها !

أمسك بيدها وانحنى ليقبلها بحرارة تدفقت من شفتيه وجرت فى عروق ذراعها لتنتشر فى جسدها كله بنشوة اثارت الرعب داخلها ، فهرعت إلى الباب لتفتحه فى هدوء ، وتهبط على درجات السلم فى خفة الغزال الشارد فى نفس اللحظة التى فتح فيها باب شقة الدكتور بكير مسافة بوصة لا توشى بمن خلفه !

أغلق إيهاب باب شقته وهرع إلى شرفته ليتابع بلسم وهى تنحرف نحو أول زقاق لتختفى فيه! خفق قلبه بوحشة مخيفة زحفت متسللة فى الهواء الساكن الساخن حوله! هل يستطيع أن يحتمل وجوده بدون بلسم ؟! تراقصت علامة الاستفهام الكئيبة عبر الأفق الذى ابتلع نصف القرص الأحمر ، ولم يعبأ بالبحث عن إجابة مقنعة له ! ففى غيابها يكاد يرى وجهها البرونزى اللاهب ، وينصت إلى لكنتها الغجرية المثيرة ، ويشم رائحة المسك المتضوع من موجات جسدها تحت ثوبها الزيتونى اللامع ! لكن هل يمكن أن يدمنها إلى درجة الخطورة ؟! لا .. لن يسمح لنفسه بأن يحقد على جرحى ، فهذا أمر لا يليق به ، وليترك التيار متدفقا مع بعض الحيطة والحذر حتى نهاية المطاف !! أيا كانت هذه النهاية !! ومع ذلك تمنى ألا تغرب هذه الشمس المبهرة التى أشرقت على وجوده فسرت فيه بالحياة والخصوبة والنماء !

لم تتخيل بهيرة أن حياتها بهذه التفاهة بحيث تقضيها فى التكفير عن قرار اتخذته فى لحظة ضعف وتردد وغباء ! كذبت إحساسها الداخلى وداست عليه فى نوبة عناد وكبرياء ، وسدت أذنيها عن سماع همسه الصارخ ، وخدعت نفسها بأوهام سعيدة ربما تحولت إلى حقائق راسخة فى حياتها مع وسيم ! لكن آه من ذلك الصوت الخافت المقلق النابع من أعماقها السحيقة !! لم يشأ أن يقول لها شيئا فى حق إيهاب ، لعله يريحها بأن قرارها كان صحيحا ، أو أنها اضطرت إلى اتخاذه تحت ضغوط لا قبل لها بها ! ظلت تؤكد لنفسها أنه من الممكن تغيير وسيم مع استمرار العشرة ، وأن شيئا فى هذه الدنيا لا يمكن أن يبقى على حاله . وبالفعل ثبتت القاعدة وتأكدت صحتها فى الشهرين اللذين عاشتهما مع وسيم ! تغير وسيم فعلا ولكن إلى أسوأ ، أو أنه كان يحاول إخفاء شخصيته الحقيقة قدر الإمكان ، لكنها تعرت يوما بعد يوم !

وتحول الصوت الخافت إلى أجراس إنذار تدق من حين لآخر فى أرجاء نفسها ، وسرعان ما أصبح الدق ضجيجا سرى فى نهارها بالاكتئاب ، وفى ليلها بالكابوس ! لكن منذ تلك اللحظة التى التقت فيها عيناها بوميض إيهاب عندما لمحته لأول مرة بعد زواجهما فى نهاية الأسبوع الماضى ، وقد تحول الضجيج إلى دوى يكاد يصم أذنيها ! بل أكد وسيم حقيقة هذا الدوى بنفسه وذلك عندما أمسك بذراعها وجذبها على درجات السلم إلى داخل الفيلا ! أين ثقتك بنفسك يا وسيم ؟! بل أين غرورك ؟! هل يمكن أن يتحول الغرور إلى غيرة فى لحظة خاطفة من الزمن ؟! لماذا تجاهل إيهابا بهذا الشكل المتشنج ؟! لا بد أنه شعر دون أن يصارح أحدهما الآخر بأنه لا يزال راسخا فى أعماقها ! فمهما كان الأمر فالمفروض فى إيهاب أنه صديق قديم وجار عزيز طالما أن وسيما يفضل تقمص السلوك الأوربى المتحرر الذى يوحى بالثقة المفرطة فى النفس !

لكن كل هذا الادعاء تلاشى لمجرد التقاء النظرات ! وماذا كان يمكن أن يكون موقفه لو تم تبادل السلام والكلام ؟!

كان حجمه يتضاءل باستمرار فى نظرها حتى تحول إلى قزم كريه فى مواجهة ذلك العملاق الغائب الذى شحن الماضى كله فى لحظة واحدة وألقى به فى وجهها الشاحب على متن نظرة بدت عابرة ! قالت النظرة إنها لا تزال كامنة فى أعمق أعماقه وإن تظاهر سلوكه المتباعد المتجاهل بغير ذلك ! ولا تنكر أنها سعدت بتلك النظرة العابرة التى عادت بها إلى الماضى المبهر من أوسع أبوابه ، الماضى الذى حاولت إغلاق أبوابه طوال فترة وجودها فى لندن ، لكن لقاءها مع الغجرى الإنجليزى فى مطعم ميدان الطرف الأغر ، أكد لها — من حيث لا تدرى — أنها تريد التعلق بأية قشة تحمل إليها عبير إيهاب !

عندما عادت إلى مصر مع وسيم،وهدأ ضجيج السفر ، ألحت عليها فكرة استهجنتها فى أول الأمر ثم استنكرتها ثم ناقشتها مع نفسها لتبين مدى معقوليتها ، ثم استراحت إليها ثم استكانت بل وسعدت بها سعادة بلغت فى الأيام الأخيرة مرتبة النشوة ! فكرت فى أول الأمر فى الانفصال لعل فيه فرصة لكل طرف كى يعيد حساباته بحثا عن أرض مشتركة يقف عليها مع الطرف الآخر ! لكن يبدو أن هذه الأرض لا توجد إلا فى الأحلام والأوهام ! فكيف لقطبين متنافرين أن يتجاذبا لمجرد لقائهما فى لحظة من الزمن لامعنى لها على الإطلاق ؟! قلبت الأمر على كل وجوهه فبدا الطلاق باباً فسيحا رحبا مؤديا إلى الحرية والانطلاق ! لكن ماذا سيقول الآخرون و لم يستمر زواجهما أكثر من شهرين ؟! ابتسمت ابتسامة ساخرة مريرة عندما تذكرت الآخرين وفى مقدمتهم أمها أو بالأحرى أمها التى سافرت مع أبيها فى جولته هذا الصيف فى أوروبا وهى تداعب ابنتها فى سعادة لا طعم لها بأنها قررت ترك البيت لها لقضاء شهر عسل مصرى بعد شهر العسل الأوربى !! وها هى الآن وحيدة مع هذا الوسيم التافه المدلل الذى لا يسأم دعوات علياء وحفلاتها بسبب وبلا سبب ! إنها لا تشعر بالغيرة التى قتلته يوم تبادلت النظرات واللمحات مع إيهاب فى لحظة عابرة ، لكن السأم يكاد يقتلها ، حتى

الكلمات ، إذا عثرت عليها ، لا تملأ فراغا ، ولولا عملها فى المستشفى الذى عادت إليه فى منتهى الشوق واللهفة ، بعد أن كانت تغادره بنفس الشوق واللهفة للقاء إيهاب ، لولا عملها هذا لراحت ضحية السأم والضياع والتمزق والإحباط !

كانت زملاؤها قد قرروا إعفاءها من نوبات البيات الليلى حتى تمل طعم العسل وتشتاق لتوابل المستشفى ! لكنهم ذهلوا عندما وجدوها تصر على القيام بكل واجبات عملها ، وواجهوها بإصرار أشد ظنا منهم أنها لا تريد التخلى عن شهامتها المعهودة ! لكن زميلة مقربة منها شعرت بغريزة الأنثى أن الملل وربما الفشل هو الدافع وليس الشهامة والأريحية ، فطلبت من زملائها فى دعابة باسمة أن يتركوها على راحتها حتى لا تغرق فى بحر العسل وتصاب بأسفسكيا الخنق !! وكانت سعادتها قلقة لكن غامرة عندما تخلو إلى نفسها فى المستشفى تضرب أخماسها فى أسداسها وهى ترنو ببصرها عبر النافذة صوب أضواء القاهرة التى تبدو فى صمت مهيب من على قمة المقطم . ذات مغرب كانت تجلس إلى جواره فى السيارة فى طريقهما لتلبية إحدى دعوات علياء ! لمحت على البعد والسيارة تنهب الأرض قلعة المقطم فقتلها الحنين إلى إيهاب ، فإذ بها دون تفكير تردد أصداءه الكامنة فى أعماقها ! شرحت لوسيم كيف أمر محمد على باشا بإنشاء هذه القلعة لتحمى قلعة الجبل ، فكان البدء ببناء طريق المدرج المؤدى إليها ، وكيف أطلق على هذه القلعة خطأ اسم نابليون ! وتكلمت عن أسوارها ، والكوبرى المتحرك فوق الخندق المحفور أمام بابها الكبير الذى فتح بجانبيه مزاغل صغيرة للضرب منها بالبنادق وأخرى كبيرة للمدافع ، والسرداب المستطيل المعقود بالحجر على امتداد الوجهة الغربية ، والحوش المحاط بعقود وحجرات متعرجة ، والبرج القائم من الأرض من الوجهة الشرقية ....

ثم تذكرت القبلات التى طبعها إيهاب على وجنتيها وشفتيها بحروف من نور ونار وقت المغيب تحت أسوار القلعة ! سرت قشعريرة حرجة فى مسام بشرتها وهى تلتفت إلى وسيم الذى كان منهمكا فى القيادة المجنونة،ويبدو أنه لم يستمع إلى كلمة واحدة مما قالت ، فانداح الحرج من القشعريرة وسرت النشوة القديمة فى عروقها ، وانتابها

هاجس بأنها لا تخون زوجها بمثل هذه الذكريات الماثلة فى وجدانها بكل لمساتها ولمحاتها وهمساتها وآهاتها ، بل على النقيض من ذلك تماما ، فوجودها مع وسيم خيانة مستمرة ومتجددة لإيهاب ، لدرجة أنها فكرت فى الإتصال بالدكتور بكير أو الدكتورة نيرة لمعرفة أحوال الحبيب الغائب ، لكنها سرعان ما تراجعت لتدرس إمكان اختراع حجة تتذرع بها لزيارة العزبة . فى اللحظة نفسها برز سؤال كمارد انطلق من قمقم غير مرئى : ما العمل إذا أصر وسيم على اصطحابها وسوف يفعل ؟!

كان وسيم منهمكا فى القيادة المجنونة الصامتة باستثناء أزيز المحرك ، وحفيف الإطارات على الطريق ، وضجيج الموسيقى المنبعثة من مسجل السيارة . هكذا يقودها دائما وهو فى طريقه إلى علياء ! الغريب فى الموضوع كله أن رسائل العيون المتبادلة بينهما لم تكن خافية عليها ! رسائل لم تقتصر على النظرات بل البسمات ثم الابتسامات ، وذات مرة لمحته من طرف خفى وهو يغمز لها مستغلا انهماك الراقصين والراقصات فى الحفل الذى أقامته بمناسبة عودتهما من الخارج ، ودعت إليه كل أعضاء الشلة دون استثناء !

كانت بهيرة تظن أنه يجيد كيد النساء حتى يشعل الغيرة فى قلبها ، وهو الذى تقاتلت عليه الحسان غيرة وجنونا ! فلم تعبأ أول الأمر لأن شيئا ساخنا أو باردا لم يتحرك داخلها ، برغم أنها كانت تكن لعلياء مقتا دفينا لم تتبين ملامحه منذ ذلك الحفل الذى شهد انفصالها عن إيهاب ، بل منذ حفل خطبتها إلى إيهاب عندما تجلى وسيم فى الرقص الذى شاركته علياء بعض فقراته المجنونة ! وها هى علياء فى هذا الحفل الأخير تعود إلى تصدر القاعة كملكة بين رعيتها ، وقد وضعت ساقا على ساق داخل ثوبها الأحمر اللامع الناعم والطويل المفتوح من اليمين حتى أعلى الفخذ مثل معظم أثوابها للسهرة ! وكأن الحفل قد عقد لها وليس لاستقبالهما والترحيب بهما بعد عودتهما من شهر العسل فى أوروبا ! أزاحت خصلاتها المصبوغة بلون البلاتين إلى الخلف فى حين وضعت السيجارة المعطرة بين شفتيها ، تضغط عليها أحيانا وتكاد تمتصها أحيانا أخرى ، ثم ترسل نفسا عميقا كثيفا هادئا يحيط وميض عينيها الرمادى بغلالة صافية

زادتهما غموضا وسحرا ، وهى تلقى بابتسامة منتشية متسائلة إلى بهيرة :

— كيف تتركين وسيم المسكين وحده ليلا لتبيتى بالمستشفى بين المرضى والأدوية والحقن ؟! المرضى يمكنهم الانتظار حتى الصباح أما وسيم فلا يستطيع !

تذكرت بهيرة نفس الحرج الذى أصاب إيهاب يوم ألقت بخاتم الخطبة إليـه ، فاجتاحتها موجة عارمة من المرارة أوشكت على دفعها لسحق هذه الحيـة الملساء الناعمة ، خاصة بعد أن ضج الحاضرون بالضحكات والقفشات التى لم تلتفت إليها فى تربصها حتى ساد السكون لتقول بنبرات هادئة :

— تسكين آلام مبرحة لمريض فى منتصف الليل لا يقل أهمية وضرورة عن امتاع زوجى !!

سرت حمرة الحرج فى بشرة وسيم الناصعة البياض ، ترددت عيناه بين علياء وبهيرة لعله يجد إجابة لكنه فشل ! لم تسترح علياء لهذه الجدية التى طغت فجأة على أنفاس الحاضرين ، فافتعلت ابتسامة منتشية أخرى :

— أول مرة أرى فيها امرأة تفضل الواجب على العاطفة !

أحست بهيرة بروح إيهاب تتقمصها بكل إصرارها وتحديها :

— العاطفة شئ أكبر وأشمل من مجرد إمتاع الزوج عند منتصف الليل !

لم يستطع وسيم التزام الصمت أطول من هذا :

— تتكلمين كما لو كان زوجك فى نهاية المطاف بالنسبة لاهتماماتك ؟!

— إننى أرد على علياء بنفس منطقها !! كما أن حاجتك إلىّ ليست بالإلحاح الذى تصوره !! فإذا كنت أنت مشغولا دائما بحفلاتك وأصدقائك فلا أقل من أن أنشغل أنا بعملى ومستقبلى !!

كانت علياء تتابع التراشق بانتصار لا يكتم متعة التشفى والشماتة ، أما الحاضرون فتابعوا الموقف كأنه مسرحية مثيرة مشوقة ! بعد لحظات صمت مشحون متفجر قال وسيم :

— لا مستقبل لزوجة بدون زوجها !

لم تشأ بهيرة لمنطقه المتهافت أن يسود بين هؤلاء التافهين السطحيين :
ـــ هل لى أن أعرف كيفية ارتباط مستقبلى كطبيبة بك ؟!
أسقط فى يده ونظر إلى علياء فى حيرة وهو يخرج منديله ليجفف عرقه . لم تخيب ظنه كعادتها فقالت مبتسمة فى نعومة شفافة :
ـــ طالما أن حياة الزوجين حياة واحدة .. فلا بد أن يكون المستقبل واحداً !!
قررت بهيرة أن تصيب الحية الملساء برصاصة فى حلقها :
ـــ ربما كنت تفهمين زوجى بطريقة أفضل !
سرى فى جو القاعة مس كهربى أصاب شفتى علياء برعشة أوشكت أن تسقط بالسيجارة المعطرة الملطخة بأحمر الشفاه ، فى حين نهض وسيم قائلا لعلياء فى اعتذار شبه ذليل :
ـــ يبدو أن بهيرة قد أساءت فهم كلماتك !! إنها تجهد نفسها كثيرا فى المستشفى ولا بد أن يؤثر هذا بدوره على أعصابها !!
نهضت بهيرة بدورها ومعها علياء التى حاولت إصلاح ما أفسده الدهر :
ـــ لا نتمنى لها سوى التوفيق فى عملها ! لكننا لا نتمنى أن نحتاج إليها ! فالبعد عن الأطباء غنيمة !
ابتسمت علياء فانطلقت بعض ضحكات الحاضرين ، وتم تبادل القبلات والتحيات ، وقامت علياء بتوديعهما حتى باب السيارة وهى تمسك بيد بهيرة بحرارة غريبة :
ـــ إياك والغضب منى !! فأنت لا تعرفين قدرك عندى !!
ثم قبلتها مرة أخرى مما دفع ببهيرة إلى أن تقول :
ـــ سامحينى يا لولا .. فلاشك أن أعصابى قد أفلتت على رأى وسيم !
وانطلقت السيارة وبهيرة فى ذهول من الرقة الحالمة التى هبطت فجأة على علياء برغم الرصاصة التى سددتها بإتقان إليها ، وهى التى لم تتعود أن تتلقى سوى التحيات والقبلات والابتسامات ، كما أن نظراتها الخابية لوسيم كانت مشحونة بالحرج

والندم ! هل كانت قاسية عليها أكثر من اللازم ؟ لا تعرف ! كل ما تعرفه أنها انتقمت لنفسها ولإيهاب بدليل هذا الإرتياح المشبع بالإنتصار السارى داخلها ! كان وسيم يختلس النظرات إليها فى ظلام السيارة ، ثم قال بلهجة مستكينة لم تألفها منه :

— لم أر مثل هذه الأخلاق من قبل ؟!

تحفزت بهيرة مرة أخرى إذ استشعرت أنه يعرض بها :

— ماذا تقصد ؟!

— لم أر مثل أخلاق لولا ! كانت فى منتهى الرقة والعذوبة برغم جرحك لشعورها !!

— هى التى ورطت نفسها فى حديث لا يخصها !

— لولا ليست غريبة ! إنها صديقة عمر !

— ولو !

تراجع فى استسلام عجيب :

— عندك حق ! على كل حال .. فهو درس لنا ولها !

وانطلقت السيارة دون أن يتبادلا كلمة واحدة حتى بلغت الفيلا لينام كل منهما وظهره للآخر ! وفى الصباح ارتدت ملابسها للذهاب إلى المستشفى الذى ستبيت فيه ليلتها ! كانت تراقبه من طرف خفى فوجدته يتحاشى نظراتها كما لو كان طفلا يعانى من إحساس بالذنب أو يخفى شيئا لا يريد لعينيه أن تفضحاه ! أنبأته بمبيتها ثم خرجت من غرفة النوم فهرع خلفها بدلال مفتعل : .

— وأين القبلة المعتادة ؟!

أجبرت نفسها على طبع قبلة عابرة على خده وهو يقول لها :

— سأمنح الدادة إجازة الليلة لتكون بجوار ابنتها التى على وشك الوضع !

— كما تحب .. باى باى !!

خرجت لتنطلق بسيارتها إلى المستشفى أو المكان الوحيد الذى تشعر فيه بالراحة والإنطلاق بعد أن أصبح وجود وسيم معها نوعا من الضغط المستمر على أعصابها ؛

لم تعد تحب خلع ملابسها أمامه ، وهى التى طالما تعرت أمام المرآة لتتأمل بصمات إيهاب على جسدها ! والغريب أن وسيما لم يحاول أن يضغط عليها برغم نهمه الجنسى الذى اشتهر به ! بدا أو تظاهر باحترامه لرغبتها أو لزهدها فلم يقربها طوال الأسبوع الأخير ! لكن هل بلغت به أخلاق الفروسية هذا الحد ؟! هل يمكن أن يتحول الإنسان بهذه السرعة عن ذاته المتضخمة إلى حد إنكارها ؟! تراءت أمامها صورة علياء لتغطى الطريق أمام سيارتها إلى المستشفى ! هل يمكن أن تكون علياء خلف هذه التحولات ؟! خاصة وأنها صديقة عمره كما يحلو له أن يسميها ؟! أم أن العلاقة بينهما لم تنقطع بزواجها منه ؟! أم أنه يستخدم علياء لإثارة غيرتها النائمة فى نظره والميتة فى نظرها لاستمتاعه بتكالب الحسان عليه واشتعال الغيرة بينهن ؟! وهى وإن كانت زوجته فإنها لا تعد استثناء من هذه القاعدة ؟! بل كان من الأجدر بها أن تموت غيرة وكمدا بسبب سحر زوجها ! لكن الواقع يؤكد لها احترامها لذاتها والذى يمنعها من أن تلهث وراء تافه مثله ! فالحب فى نظرها مشاركة وجدانية وفكرية وعقلية وروحية وجسدية وليس نوعا من الملكية أو الاستحواذ الذى يحتم أن يطارد كل طرف الطرف الآخر !

فى المساء عندما خلت إلى نفسها فى غرفتها الخاصة بها فى المستشفى ، عاودتها فكرة الطلاق ولكن بإلحاح أشد بعد أن أكدت لها الأيام القليلة الماضية استحالة الحياة معه ، فهى لا تحبه ولا تكرهه لأنه لا يثير فيها سوى الملل والسأم والضيق والضجر ، أى جحيم من نوع بارد قاتل !! أما عما سوف يقوله الآخرون عن طلاقها بهذه السرعة ، فليذهبوا جميعا إلى الجحيم الذى وضعوها فيه بأيديهم بعد أن أتاحت لهم الفرصة فى لحظة ضعف وتردد وغباء ! ثم ابتسمت رثاءً لنفسها وسخرية منها لأنها سمحت لأمها بالذات أن تمارس ضغوطها كى ترضى أفكارها البالية السقيمة ، وها هى الآن تتجول فى أوروبا مع أبيها ظنا منها أنها تركتها غارقة فى عسل وسيم الذى ركز مذاق السم على طرف لسانها ! كم تود بهيرة أن تجهز للجميع مفاجأة تشفى بها غليلها منهم ؟! وفى مقدمتهم أمها ؟! لكن هل يمكن أن يحدث مثل هذا الطلاق السريع والمدوى بلا سبب واضح ملموس لكل من سيحاول الدس بأنفه فيما لا يعنيه ؟! الغريب أن استحالة

التفاهم أو التجاوب لا تعد فى نظر النفاق الاجتماعى سببا وجيها للطلاق ! لكن كيف ستفاتحه فى الموضوع وهو المدلل المراوغ الذى ينفذ خطط أمه وأمها بمنتهى الدقة والبراعة ؟! لا بد من عاصفة عاتية عارمة تجتثه من جذوره ! لكن هل يمكن تحويل الهواء الساكن الحار إلى إعصار لا يبقى ولا يذر ؟! إنها الآن واثقة تماما من إرادتها وقوتها وإصرارها ، لكن أين المدخل أو المخرج أو نقطة البدء والانطلاق ؟!

أغمضت عينيها فى فراشها الذى استرخت عليه فتراءت لها صورة علياء ! هل يمكن أن تكون المفتاح الذى تفتح به باب الحرية ؟! إنها لا تستبعد دورها الخبيث فى دفعها إلى التخلص من إيهاب ، فهل يمكن استخدامها أداة للتخلص من وسيم ؟! لكن إذا كانت مرتبطة كل هذا الارتباط بوسيم ، فلماذا تركته يتزوج منها طالما أنها تملك كل هذه السيطرة عليه ؟! هل هناك دليل مادى ملموس يمكن الإمساك به وقلب المائدة على رأسيهما ؟! إن أخلاقها لا تسمح لها بالادعاء الكاذب على أبرياء ، لكن هل حكم عليها بالسقوط والغرق فى بحر الحيرة والضياع بكل أمواجه المتلاطمة ؟!

رأسها يكاد ينفجر من الصداع الذى لازمها فى الأيام الأخيرة ! لم تعد تطيق الأمور وهى تسير على هذا المنوال ! حتى زملاءها ينظرون إليها نظرات مستفسرة أحيانا وقلقة أحيانا أخرى لدرجة أن زميلتها المقربة سألتها عن أحوالها فلم تجبها إلا بالحمد لله ! كان إصرارها على القيام بواجبها فى النوبات الليلية غريبا بالنسبة لعروس مثلها وهم الذين رحبوا جميعا بتوزيع نوباتها عليهم ! نظرت عبر النافذة فحسدت القاهرة الساكنة الناعسة عند أقدام المقطم على أضوائها التى تتلألأ على البعد ، فكم ودت أن تنير مثل هذه الأضواء رأسها المظلم ؟! وكم سعدت باستدعائها إلى غرف بعض المرضى الذين يحتاجون إلى رعايتها ومشورتها حتى تهرب من جحافل الأفكار السوداء التى تزحف لتحاصرها فى غرفتها الصغيرة ؟! فى أيام إيهاب كانت هذه الاستدعاءات تنتزعها قسرا من أطيافها وأحلامها التى كانت تهدهدها كلما خلت إلى نفسها ، وسرعان ما كانت تهرع عائدة لتغلق بابها على نفسها وعلى طيف إيهاب الذى لم يكن يفارقها ، لكنه إذا صاحبها الآن فبالحسرة والندم الذى يمر على قلبها بحد سكين

باردة برغم يقينها بأن الندم لا ينفع بعد فوات الأوان ! لكن هل فات الأوان فعلا ؟!

توقفت حكيمة النوبة عن استدعائها بعد منتصف الليل فغفت قليلا لتحلم بمطاردة بالسيارات بين وسيم وإيهاب انتهت بسقوط سيارة إيهاب فوق أحجار سفح المقطم ، فانتفضت جالسة فى فراشها وخيل إليها أنها صرخت : اللهم اجعله خيرا ! اللهم اجعله خيرا ! ثم دقات متصاعدة على الباب المغلق وصوت الحكيمة يطلبها فى حرج لنجدة أحد المرضى ، فقد الوعى لنزيف مفاجئ .

وفى الصباح عادت بهيرة إلى البيت فلم تجد أحداً ! خرج وسيم إلى عمله ، ولم تعد الدادة بعد من زيارة ابنتها . أسرعت إلى تغيير ملابسها والتمدد على الفراش طلبا لبعض نوم لم تنله طوال الليل ، لكن مزيجا من الوحشة والعزلة والقلق جثم على أنفاسها بالأرق فنهضت من فراشها والحنين الممض القاتل يطاردها إلى إيهاب ! لدرجة أنها فكرت فى زيارة مفاجئة للعزبة لكن سرعان ما انحسرت الفكرة وتلاشت تاركة زبدها على ساحل خواطرها المثقلة بكثبان الرمل ! تذكرت خطابات إيهاب إليها من إنجلترا فأسرعت إلى غرفة المكتب حيث تحتفظ بها مع حليها ومجوهراتها فى درج سرى به لا يعرف أحد طريقة فتحه سواها !

مدت يدها للإمساك باللفافة المتفجرة بالذكريات الحبيبة إلى قلبها فلم تعثر عليها ! أخرجت الدرج بجنون حارق ظنا منها أن لصا قد سطا على أشيائها الثمينة ، لكنها وجدت القرط الماسى ، والساعة الذهبية المرصعة بالماس ، والأساور والخواتم ، والعلبة التى تحتوى على التاج ودبابيس الشعر والصدر ، كل شئ كما هو باستثناء خطابات إيهاب !

لم يفعلها أحد سواه ! كانت الجملة التى مرت بأذنها كرصاصة مارقة ! هل بلغت به الغيرة هذا الحد ؟! إن ما فعله سرقة فاضحة بكل المقاييس ! كيف سولت له نفسه أن يستغل غيابها كى يفتش عن أشيائها الخاصة ؟! كيف تواجهه بفعلته الشنعاء وهو القادر على اللف والدوران ؟! بل ربما اعترف وصاح مدافعا عن الشرف الذى أهدرته زوجته التى لا تزال تحتفظ بخطابات عشيقها ؟! أو ربما اتهم الدادة أو الطباخ أو الخادم

بالسرقة ؟! لكن كيف ستواجهه أصلا وقد لوى ذراعها التى تؤلمها بالفعل ؟! هل أصابها فى مقتل ؟! كم تمقته الآن ؟!

ذرعت الغرفة جيئة وذهابا كالأسد الحبيس فى القفص ! لن يهدأ لها بال إلا إذا تخلصت من هذا الثعبان الذى ينام فى فراشها وتحت غطائها ! والذى لا تصلح الطرق المستقيمة سبيلا للتعامل معه!آه من رأسها الذى يكاد ينفجر برغم أقراص الأسبرين المتتابعة !أمواج التفكير المحموم تكاد تشل مخها !ولا يعقل أن تعيش على الأقراص المهدئة كما فعلت طوال الأسبوع الماضى وهى أدرى الناس بمضارها ، كما أنها تمقت البلادة التى تصيبها من جرائها وهى التى لم تعرف فى حياتها سوى الحيوية والانطلاق ! لقد نجح الثعبان فى إصابة الوردة النضرة المتفتحة بالذبول فهل يتمكن من الالتفاف حولها تماما لخنقها ؟!

عادت إلى غرفة النوم لتبتلع قرصا مهدئا دون تفكير ثم لمحت جسدها فى المرآة داخل قميص نومها الشفاف القصير فكرهته بعد أن كانت تعشقه من أجل إيهاب ! جلست أمام المرآة لتتأمل شحوب وجهها الذى لم تعرفه من قبل سوى فى مرات المرض ! أين لمعان شعرها البنى الفاتح الناعم ؟! أين بياض الوجه المشرب بالحمرة ؟! لم يتبق منه سوى النمش الخفيف المتناثر على الوجنتين والذقن بغمازتها التى أصابتها الضحالة ! أين وميض العينين العسليتين الواسعتين كالبللور الصافى تحت إطارى الحاجبين ؟! أين اكتناز الشفتين المنطبقتين على انفجار وشيك ؟! لكن الأنف الدقيق لا زال شامخا إلى أعلى !

أما جسدها وإن كان قد نحل بعض الشئ إلا أنه لا يزال يحتفظ بمرتفعاته وتلاله البضة ! النهدان تحت الإطار الأسود الدقيق فوهتا بركان لكنه خامد هذه المرة ! الخصر زاد نحولا فبدا الردفان فى إطارهما الأسود الدانتيللا متكورين وقد أوشك القميص الأبيض القصير الشفاف أن ينحسر عنهما !

كان هذا الجسد معبدا لإيهاب فانتهك وسيم حرمته بمنتهى البساطة ! حتى الخطابات التى كانت زادا روحيا وملاذا تلجأ إليه كلما خلت إلى نفسها ، حرمها منه ! والله

وحده يعلم ماذا فعل بها ؟! هل أحرقها أم مزقها إربا وألقاها فى المرحاض ؟! تلك القطعة الحية النابضة المضيئة المعطرة بعبق الماضى وأريجه !

تحولت بلادة القرص المهدئ إلى خمود سرى فى عروقها وأعصابها بدءا بأطرافها ، فنهضت متثاقلة لتلقى بجسدها على الفراش وقلبها فى صلاة صامتة أن يلهمها الله مخرجا من قاع البئر التى تردت فى ظلامها فى لحظة غاب فيها وعيها ! دست وجهها فى الوسادة تبللها بدموعها الصامتة التى امتزجت بعطر تعرفه كل المعرفة ! قفزت جالسة فى فراشها وهاجس داخلها يؤكد أن الله قد استجاب لصلاتها ! ثم انبطحت مرة أخرى على الوسادة تشمها وقد سرت الحمرة فى وجهها ، وشع الوميض من عينيها ! إنه العطر الذى لم تستخدمه سوى مرة واحدة لأن إيهابا لم يسترح لعبقه النفاذ ، والذى كانت علياء قد أهدته إياها فى أحد أعياد ميلادها ! إنه عطر علياء المفضل الذى لا يمكن أن يخطئه الأنف المدرب ، والذى اشترى وسيم خمس زجاجات منه هدية لها عندما كانا فى باريس !

مهما كان المجرم أو اللص حريصا ، فلا بد أن يترك أثراً فى مكان الجريمة يدل عليه ! وأحيانا يكون الأثر ضعيفا أو باهتا لكنه يكفى للوصول إليه أو إليهما ! لقد قضيا الليلة بطولها فى فراشها ! منذ متى كان وسيم حريصا على راحة الدادة ومنحها إجازة لزيارة ابنتها التى على وشك الوضع وهو الذى لم يعرف شيئا فى حياته اسمه الاعتبارات الإنسانية ؟ منذ متى كان وسيم حريصا على الخروج إلى عمله مبكرا هكذا ، وهو المدلل الذى لم يحمل يوما ما يسمى بالمسئولية ؟! منذ متى كانت علياء بهذا التسامح والرقة والتواضع وهى التى تلقت كلمات كالرصاصات المسددة بإتقان فى آخر حفل أقامته لهما ؟! ما سر نظراتها الخابية لوسيم والتى كانت مشحونة بالحرج والندم برغم موقف بهيرة التى اعتبرته قاسيا ؟! هل كان حديثهما حول ضرورة امتناعها عن نوبات المستشفى الليلية ولو مؤقتا ، إكراما لعريسها ، مجرد تغطية لحقيقة أهدافها الخفية ؟! هل بلغت بهما الضعة والحقارة هذا الحد ؟! إنها لا تحترق بنار الغيرة فليذهب معها إلى الجحيم ، لكنها لا تحتمل أن تبدو مغفلة فى نظر أحد ، خاصة فى نظر هؤلاء الرقعاء !

يقوم بسرقة خطابات إيهاب والتخلص منها ثم يتمرغ فى فراشها طوال الليل مع علياء ؟! يستكثر عليها الاحتفاظ بخطابات إيهاب فى حين يحتفظ هو بجسد علياء وبراءة الأطفال فى عينيه !!

انكفأت مرة أخرى على الوسادة لتتمسح بأنفها فى بقايا العطر حتى لا تتسرب إلى داخلها ذرة شك ! الآن فقط وجدت إجابات عن معظم الأسئلة الغامضة التى تراقصت فى الظلام أمام عينيها منذ الحفل الأخير. لم تكن فروسية منه فى الأسبوع الأخير حين تظاهر بأنه يحترم رغبتها أو بالأحرى زهدها ولذلك لم يقربها ! لم يكن داهية حين راقبته من طرف خفى فوجدته يتحاشى نظراتها كما لو كان طفلا يخفى شيئا لا يريد لعينيه أن تفضحاه ! كان فى غاية الافتعال عندما طلب منها القبلة المعتادة وهو يهرع خلفها معلنا منح الدادة إجازة لتكون بجوار ابنتها عند الوضع ! كان يخطط لكل شئ اعتمادا على أنها فقدت الاهتمام بكل شئ !!

لن تفلت من يدى يا وسيم الوجه فقط ! ترددت فى أرجائها كأقوى وأعلى وأعنف ما تكون ! لكن كيف ؟! شعرت بكل طاقاتها الكامنة فى أعماقها والتى أوشكت على نسيانها ، تتجمع وتحتشد مع أمواج التحفز والإثارة التى اكتسحت أمامها الضياع والتشتت والإحباط والمرارة ! لكن كيف ؟! لن تفاتحه فى موضوع الخطابات التى أصبحت قضية فرعية ! إنها الآن فى مواجهة لقضية مصيرية لا بد أن تعالجها بمنتهى الحكمة حتى لا تخسر أكثر مما خسرت ، ولا بد أن يعرف كل طرف حجمه الحقيقى من الآن فصاعدا ! لكن كيف ؟!

كيف ؟! كيف ؟! كيف ؟! طاردها السؤال كدقات المطرقة على رأسها فقامت تذرع الغرفة جيئة وذهابا حتى توقفت فجأة ! الأمر فى حاجة إلى منتهى الدهاء والحيطة والحذر فى الإمساك برأس الأفعى قبل أن تستدير لتلدغها مرة أخرى! وربما لدغة مميتة هذه المرة ! لا بد من فضحهما متلبسين بجريمتهما ! لكن كيف ؟! عادت تذرع الغرفة من الباب للنافذة حتى أشرق رأسها فجأة ! لا بد أن تضعه فى امتحان عصيب لا يمكن أن ينجح فيه ! وتفتحت الفكرة وتفرعت فذهبت إلى الحمام لتلقى بجسدها المنهك

فى مياه البانيو الدافئة . لم تكتف بفقاقيع الصابون المعطر التى داعبت كل أجزاء جسدها بل نهضت لتحيطه بالمنشفة التى تشربت قطراته وهى عائدة إلى غرفة النوم حيث أطلقت رذاذ العطر تحت إبطيها، وبين نهديها ، وحول عنقها . أكملت تجميل نفسها لتسترخى فى فراشها قطعة من الأنوثة المتوهجة فى انتظار زوجها الحبيب !!

وعاد الزوج الحبيب فى الثالثة بعد الظهر فوجد زوجته الفاتنة تغط فى نوم عميق تجسد فى أنفاسها الهادئة وجسدها المسترخى فى قميصه الأحمر الشفاف القصير الذى لم يستطع بلوغ منتصف الردفين ! لمحته من بين رموش عينيها فوجدته واقفا يتأملها . استمرت فى التظاهر بالنوم فهرع إلى خلع ملابسه فى لحظات ، وأغلق الباب ليرتمى إلى جوارها محاولا ضمها بعنف إلى صدره ! لكنها تظاهرت بالانزعاج ونهضت جالسة فجلس إلى جوارها هامسا :

— افتقدتك كثيرا يا حبيبتى !

— ياه .. نمت حتى الثالثة ؟!

ركزت عينيها على المنبه الصينى المذهب الصغير على حافة الكومودينو ، فاحتضنها قائلا :

— صح النوم يا روح قلبى !

سألته دون استجابة لأحضانه المتوسلة :

— هل جاءت دادة فهيمة ؟!

— وتزاول عملها فى المطبخ !

— والطباخ ؟!

— أنسيت يا حبيبتى ؟! إنه يوم عطلته !

ربتت على جبينها برقة :

— آه ! افتكرت !

ثم هبت تاركة الفراش وارتدت روبا أحمر من الحرير الطبيعى :

— أكاد أموت جوعا !

تبعها إلى غرفة المائدة فى ذلة حاول كتمانها لكن عينيه الخضراويـن فضحتها كعادتهما . جلسا إلى المائدة وسرعان ما جاءت فهيمة بالأطباق والأكواب والملاعق والشوك والسكـاكين ، واختفـى الغطـاء الأبـيض تحت اللحـوم المشويـة ، والخضروات ، وفواتح الشهية ، وعصير الفاكهة المثلج بحيث لم يبد منه سوى حوافه المطرزة بالخيوط الذهبية !

ران الصمت الذى لم يقطعه سوى إيقاعات الشوك والسكاكين على الأطباق الصينية ، لكن بهيرة لم تتوقف عن تأمله من حين لآخر فى بيجامته الحريرية البيضاء مثل بشرته النضرة اللامعة . تساقط شعره الذهبى على أذنيه ، وكشفت شفتاه الدقيقتين عن حمرة خفية ! هذا هو كل ما يملكه فى هذه الدنيا !! سألته فجأة :

ــ هل تصدق يا وسيم أننى سأضطر للمبيت غدا فى المستشفى ؟!

امتزجت على وجهه ابتسامة بلهاء بعلامة استفهام :

ــ خيرا ؟!

ــ طلبت منى زميلة عزيزة أن أحل محلها لتوديع زوجها المسافر إلى الخارج فى مهمة علمية .. وستظل معه فى المطار حتى الثانية صباحا لحين قيام طائرته !

ــ ألم تجد غيرك لتطلب منه هذا الطلب السخيف ؟!

ــ لا أستطيع أن أنكر أفضالها علىّ .. فقد حلت محلى فى معظم مرات مبيتى فى شهر العسل !

كان يتحسس طريق كلماته بحرص شديد حاول أن يكتم به الإثارة التى أطلت مع وميض عينيه الأخضر :

ــ ألم أقل لك إن علياء محقة ؟! سكتنا له دخل بحماره !! ليس من الذوق أو اللياقة أن تطلب هذا من عروس مثلك !!

ــ ربما وجدت حرجا فى طلب المبيت من زملائها الرجال !! على كل حال فإنه طلب استثنائى أعدك بألا يتكرر! ولم أقبله إلا عندما وجدتك أنت نفسك فى منتهى الشهامة وأنت تمنح دادة فهيمة إجازة لزيارة ابنتها ! وأنا لا أرضى أن أكون أقل

شهامة منك !

كانت فهيمة تستبدل بعض الأكواب والأطباق الفارغة بأخرى مليئة ، فسألتها بهيرة :

ـــ متى ستلد ابنتك ؟!

ـــ قالت الحكيمة .. غدا .. أو ربما بعد غد على أكثر تقدير !

نظرت بهيرة إليه نظرة متسائلة فإذ بالحماس يجرفه ويقول دون سابق تفكير :

ـــ لك إجازة مفتوحة من الغد حتى تلد ابنتك بالسلامة !

انحنت المرأة العجوز تأثرا فى حين تهدج صوتها :

ـــ حفظك الله لنا ياسعادة البك .. وحفظ لك الست الهانم .. ومنحها البنين والبنات والعز كله .. وأعاد الله البك الكبير والست الكبيرة بالسلامة !

ثم ربتت على كتف بهيرة بحنان دافق :

ـــ أتمنى من الله يا ست بهيرة أن يطيل فى عمرى فقط كى أخدم أبناءك كما خدمتك من قبل !

أمسكت بهيرة بيدها بنفس الحنان المتدفق :

ـــ أنت لم تخدمينى يادادة !! بل سهرت على تربيتى كأحسن أم !! إننى لم أر أمى و لم أتكلم معها مثلما عشت معك !!

سحبت المرأة العجوز يدها وبوادر دموع فى عينيها :

ـــ خذى بالك من صحتك يا ست بهيرة !!

قالتها وانسحبت بالأطباق والأكواب الفارغة تجاه المطبخ وصوت وسيم يتبعها فى بهجة باسمة وكأنه يحاول تغطية الصدى الذى تركته جملتها :

ـــ ويمكنك يا دادة القيام بأجازتك المفتوحة من عصر اليوم !

لم ترد المرأة التى ابتلعها المطبخ فى حين افترشت ابتسامة منتشية وجه بهيرة :

ـــ ما رأيك فى قضاء سهرة لطيفة اليوم ؟! إننى أشعر أننا ابتعدنا عن بعضنا بعضا بعض الشئ فى الأسبوع الأخير .. واليوم شعرت بالحنين القاتل إليك !!

تحول وميض عينيه إلى خضرة داكنة :

ــ هذه أروع كلمات سمعتها من بين شفتيك منذ أن رحبت بتقدمى لطلب يدك !

شقت بهيرة قلب تفاحة حمراء نضرة بالسكين :

ــ وما رأيك فى دعوة علياء لتسهر معنا .. كنت قاسية معها آخر مرة .. كما أننى أشعر بالتقصير فى حقها .. دعتنا أكثر من مرة و لم نرد لها الدعوة !

كان وسيم على وشك أن يرتشف ما تبقى فى كوبه من عصير المانجو . توقف فاغرا فاه لتخرج الكلمات شاردة منه :

ــ لن تتصورى كم ستسعد علياء بهذه المفاجأة ؟! لا تتخيلى كم تحبك ؟! فأنت عندها أعز من أخت !!

ــ وأنا أيضا .. أريد أن أرد لها بعضا من أفضالها علينا !

ركزت عينيها عليه وهى تضغط على كلمة « علينا » لكنه كان قد قفز ناهضا ليبلغ علياء بالدعوة تلفونيا ، وأنهما سيمران عليها حوالى السابعة مساءً ! ثم عاد ليجلس لاهثا وبهيرة تسأله :

ــ أليس هذا ميعاداً مبكراً أكثر من اللازم ؟!

لم يلتقط معنى تلميحها بل استمر فى اندفاعه الناضح بنشوة المراهقة :

ــ سأصطحبكما فى المركب السياحى الفاخر الذى يشق النيل من أمام فندق سميرأميس إلى ما بعد حلوان فى رحلة نيلية ساحرة تجمع الماء والخضرة والوجه الحسن .. ثم تعود بنا بعد منتصف الليل !

شعرت وكأنه يتكلم عن جريمة ! نهضت لتغسل يديها وتسترخى على الفراش بعد أن ألقت بالروب الأحمر الحريرى بعيدا فتضوع جسدها بالعطر المكتوم . أسرع وسيم بالارتماء إلى جوارها بعد أن تعرى نصفه الأعلى بحجة قيظ أغسطس برغم الهواء المكيف السارى ! احتواها وهو يمسح جسدها بشفتيه ولسانه ، لكنها صدته برقة قاتلة أوقفته عند حده :

ــ ألم أقل لك إن الميعاد مبكر أكثر من اللازم ؟! لا بد من النوم ساعتين على الأقل

حتى يمكننا السهر بمزاج معتدل !

ــ المركب يبدأ رحلته الثامنة مساء حتى يلحق الركاب بالغروب فى لحظاته الأخيرة !!

ــ ذنبك على جنبك !

ــ ألم تنامى عدة ساعات قبل وصولى ؟!

ــ لا تنس أننى سهرت الليل بطوله إلى جوار مرضاى !

ــ وهو كذلك !

قالها فى استسلام بالغ فى حين تظاهرت بالتوغل السريع فى النوم العميق ! تابعته من بين رموشها شبه المطبقة فوجدته يتقلب على الجانب الأيمن ثم الأيسر وعيناه تحدقان فى السقف تارة وفى جسدها تارة أخرى ! أخيرا أصبحت سيدة موقفها وتمنت أن تصبح فى الغد سيدة مصيرها ! وسرعان ما غطت فى نوم حقيقى لم تستيقظ منه إلا على يد وسيم وفحيح همساته يؤكد لها أن الساعة قد اقتربت من السادسة ، ولا بد من الإسراع فى ارتداء الملابس والانطلاق فورا إلى علياء !

كانت رحلة هى السحر بعينه ! تهادت « عروس النيل » بين الضفتين مارة بالعمائر الشاهقة والسيارات التى تسبقها كالوصيفات فى موكب صاحبة الجلالة ! توارت العمائر والسيارات الفارهة على الضفة اليمنى لتتركها لقمائن الطوب ومداخنها وسط المساحات الخضراء التى بدأت فى الانتشار والسيادة ! أما على الضفة اليسرى فلا تزال القاهرة قابعة بالشواهق الإسمنتية ذات العيون الضيقة فى حين غاص القرص الذهبى عند خط الأفق وترك الكون لسمرة فضية ذكرت بهيرة بالغروب فى شبين القناطر ، وبوجه إيهاب بعينيه السوداوين النافذتين بوميضهما إلى القلب مباشرة ، وأنفه الحاد المدبب ، وشاربه الدقيق فوق شفتيه المستديرتين المكتنزتين !

تنهدت بهيرة بصوت شبه مسموع التقطته علياء وهى جالسة إلى جوارها فى حلتها الوردية الخفية . داعبتها :

ــ من أخذ عقلك فليهنأ به !

ابتسمت بهيرة وهى تنظر إلى وسيم أمامها :

ـــ لكن الهناء لا يبدو عليه !

اصطنع وسيم ابتسامة عريضة :

ـــ إننى فى هذه الليلة بالذات أسعد إنسان على وجه الأرض !

لاحقته علياء بدعابتها الشهيرة :

ـــ تقصد على صفحة النيل !

تناثرت الضحكات ومعها الرشفات من الأكواب ، والاهتزازات الرقيقة من « عروس النيل » التى صدحت الموسيقى فى أرجائها فخلقت جوا أثيريا مشبعا بسمرة المساء الذى افترش المياه الداكنة ، فى حين توارت المصابيح فى حياء خلف فروع الشجر الكثيفة العملاقة المتراصة على الضفة اليسرى ! أما الضفة اليمنى فقد أوشكت الظلمة على ابتلاعها فلم يبد منها سوى أشباح بعض الأشجار والنخيل والمداخن المترامية القريبة من خط الأفق الذى افتقد القمر فى تلك الليلة !

فاحت « عروس النيل » بعطور الأناقة ، ومضت الماسات فى الأصابع الرقيقة ، وحول الأذرع المرمرية والسمراء ، وعلى الصدور البضة النافرة ، وانسابت الثياب الحريرية الخفيفة على الأجساد المضيئة ، وأمسكت الحلل الأنيقة بخناق بعض الصدور والسيقان ، مثل حلة علياء الوردية ! أما وسيم فقد ارتدى حلته البيضاء المفضلة ، فى حين ارتدت بهيرة ثوبا أسود تناثرت عليه ماسات دقيقة مثل النجوم اللامعة فى القبة المظلمة !

ذابت حمرة الشفق فى صفحة النيل الرمادية ، واحتوت العتمة « عروس النيل » فلم يعد هناك ما يمكن متابعته أو تأمله مما دفع بالعيون إلى الالتقاء من حين لآخر ، لكن سرعان ما كانت تتباعد مشغولة أو متشاغلة بوجوه وأشياء أخرى خوفا من أن تتعرى النفوس أيضا ! لكن بهيرة حرصت من طرف خفى على قراءة الرسائل المتبادلة بين عينى علياء وعينى وسيم فى محاولة مستميتة لفك رموزها !

هبت نسمات رقيقة مترددة خجلا بعد يوم قائظ خانق بالرطوبة . لم تعثر بهيرة

فى العيون على معنى معين محدد أو إتفاق واضح على موعد قريب بل اقتصر الأمر على مجرد استنتاجات عابرة طارئة ، فالعيون لاتعرف سوى لغة التلميح والإشارة ، وقد تقول الشئ ونقيضه فى الوقت نفسه إذا لم يتوخ المفسر الدقة فى التحرى وفك الرموز المرتبطة بالموقف الراهن ، ولذلك لم تصل بهيرة إلى ما يشبه اليقين إلا فيما يتصل بعطر الوسادة ! وحتى إذا اقتصر الأمر على مجرد احتمالات وافتراضات نظرية ، فلا بد أن تقدم على خطوتها حتى لو فشلت ! إن مجرد قيامها بخطوة إيجابية ولو فاشلة فى النهاية لا بد أن ينتشلها من ضياعها وحيرتها بل ويؤكد وجودها الذى لم يعد قشة فى مهب الآخرين !

استمرت الرحلة الحالمة مع توغل « عروس النيل » فى الظلام والليل ، وأحاديث أهل القمة تتراوح بين صفقات الأعمال ، ونظرات الغرباء برجاء وصال قريب ، وهمسات العشاق ، والحوار الصامت الصاخب الدائر بين أعضاء أجساد الراقصين والراقصات بين أطياف الموسيقى الحالمة ! سعدت بهيرة بالأضواء الحمراء والخضراء والصفراء الدائرة بنجومها وكواكبها ومذنباتها ونيازكها على جدران قاعة الرقص . فقد بددت ظلمات حناياها ، ورأت وسيما عاريا حتى من ورقة التوت ، وبدت لها سوءات عمره ! كانت ومضة باهرة النور سطعت بين جوانحها كلحظة صدق أو نبضة يقين ! رأت أعماق نفسها خلف زجاج بللورى نقى لامع ، واسترجعت أيامها القليلة معه ، فإذ هى عدوان مع سبق الإصرار والترصد ، ألغى ما كان من أواصر القرابة ، وسد كل منافذ المستقبل ! لن يتحول الماضى إلى كهوف ! طافت بجبال الزمن التى تحد حياة الخلق منذ الوجود ، لكن الماضى لم يغب فى الظلمة التى ابتلعت « عروس النيل » ، لم ينزلق ، لم يتلاش ، لم يصبح أكفانا للذكريات ! الحب القديم لم يقض نحبه ، لم يعد طريحا تحت قدمى وسيم ، ليدوسه بنعليه ، يفقأ عينيه بأصابع الأنانية والانتهازية !!

انتصف الليل و« عروس النيل » تعود أدراجها بعد أن هدأت حركة من عليها ، واقتصروا على تبادل الأحاديث والنظرات والاستماع إلى الموسيقى والشرود فى

اللاشئ ! قطع وسيم صمت النظرات الشاردة :

ــ تصورى يا لولا .. ستعود باهى إلى المبيت بالمستشفى غدا برغم أنها باتت هناك بالأمس .. وهكذا أصبحت أنام الآن مرتين فى الأسبوع بمفردى مثل قرد قطع !!

جثمت عينا بهيرة على وجه علياء التى لم تتحكم فى ارتعاشة الجانب الأيسر من شفتها السفلى وهى تقول :

ــ باهى لا يعجبها رأيى فى هذا الموضوع ولذلك قررت أن أحتفظ به لنفسى !

ــ هذه المرة استثناء من القاعدة أعدك ألا يتكرر !

خيل لبهيرة أن صدر علياء تحت الحلة الوردية يهبط ضامرا ويصعد نافرا كما لو كان سفينة فوق سفوح وعلى قمم أمواج عاتية ! زاد يقينها ورسخت قدماها رسوخ « عروس النيل » على صفحة النيل وهى تتهادى تحت الكبارى فى طريقها إلى المرسى !

انطلق وسيم بسيارته البيضاء الفارهة وبهيرة إلى جواره وعلياء على المقعد الخلفى ! لم تنطق بهيرة بكلمة لعل الصمت بينهما يعترف بما يخفيانه ! لكن ندى ما قبل الفجر أصاب الأعضاء بارتخاء لطيف جعل من الشرود واحة ظليلة حتى ودعا علياء عند باب فيلتها ثم عادا إلى المقطم !

فى غرفة النوم تعرت بهيرة من كل ما ترتديه باستثناء الإطار الأحمر الدقيق الشفاف المحيط بالنهدين ، وأخيه الممسك بخناق الردفين ! ألقت بجسدها على الفراش متثائبة متناومة ولهيب الرغبة يكاد يفقأ عينى وسيم الذى أسرع بالتعرى مثلها والالتصاق بها بعد أن أطفأ كل الأنوار باستثناء الأباجورة الحمراء الصغيرة التى أحالت جسد بهيرة إلى قطعة وردية متوهجة بالحمرة الخانقة ، أعلن فيها كل عضو استقلاله برغم الحماية التى يسبغها الإطاران الدقيقان الرقيقان على القمة وحول القاع ! دار رأسه فى مواجهة كل هذا الانفجار الأنثوى ، فنفذت عيناه إلى ظلمة الحنايا ! وجرت شفتاه ولسانه وأصابعه لتلعق وتمسح قطرات الندى المتألقة كالنجوم فى مجرات بعيدة بعد ملايين السنين الضوئية ! لكنها واصلت تثاؤبها وتناومها وهمساتها تصب فى أذنه قطرات ماء بارد بعد أن كان قد تفاعل بالقشعريرة التى سرت فى مسامها وظنها أبواب الرغبة

المفتوحة والجنة الموعودة :

ـــ نم يا حبيبى .. فأنا الأن متعبة للغاية .. وغدا يوم شاق طويل .. لكننى أعدك بالحصول على إجازة عدة أيام لننطلق إلى الإسكندرية .. ونستأنف شهر العسل من جديد !

من بين رموشها شبه المطبقة رأته يبتسم فى حنق ، ثم ينأى عنها حتى الطرف الآخر للفراش ! أطفأ الأباجورة ليسود الظلام مع فحيح السكون المحدق بقمم المقطم ، لكنه ظل يتقلب دون أن يقربها حتى تسلل النعاس إلى جفونها ! زارها فى المنام بصحبة علياء التى تعلقت بذراعها وابتسامة صفراء تسيل من عينيها ! لكن بهيرة لم تعبأ و لم تهتز و لم تستيقظ ، بل أوحى إليها عقلها الباطن بجملة أو فقرة فى بيت شعر كانت قد تلقتها فى المدرسة الثانوية فى حصة اللغة العربية حين قال الأستاذ فى حسم : اليوم خمر وغدا أمر !!

استيقظت فى الصباح لتجده وقد أخفى وجهه تحت الوسادة ! لم تعرف إذا كان نائما أو متناوما ! لم تهتم كثيرا بل تناولت إفطارها ، وعقلها لم يتوقف عن وضع اللمسات الأخيرة لما نوت الإقدام عليه فى هذا اليوم الحاسم ! ثم انطلقت إلى المستشفى وعقلها يدور بحثا عن حجة معقولة تبرر وجودها بها إلى ما بعد حلول المساء ! لاحظت زميلتها المقربة قلقها وتوترها وشرودها طوال اليوم ، سألتها عن السبب لكنها راوغتها كالعادة برغم رغبتها الحارقة فى أن تحكى لأى أحد ما ينوء به قلبها من هموم وضغوط ! كانت سميرة من أحب وأقرب الزميلات إلى قلب بهيرة ، ومع ذلك واصلت إغلاق فتحة الكهف المظلم داخلها إلى أن انهارت مقاومتها عندما جاء ميعاد انصرافها أخيرا إلى البيت عندما بلغت الساعة الثالثة مساء ! فوجئت سميرة بتذرع بهيرة بحجة التأخر بعض الوقت لإنجاز بعض الأعمال المؤجلة ! عندئذ جذبتها سميرة من يدها إلى غرفتها التى أغلقت بابها عليهما ، وأصرت على معرفة ما ينوء به كاهلها لعلها تستطيع مساعدتها ، ذلك أنها لاحظت مع زملائها جميعا ، غرابة سلوكها القلق المتوتر الشارد منذ عودتها من رحلة شهر العسل ، وأنها لا تحب لها أن تكون مثار ثرثرة حتى بين

الزملاء الذين يكن لها معظمهم منتهى التقدير والإعزاز !

وكأن سميرة بهذا قد رفعت الغطاء عن فوهة البركان الذى تدفقت حممه من فمها وأوشكت أن تحرقها لولا دموعها التى انهمرت لتبلل الجمر ! احتضنتها سميرة وهى تواصل السرد فى نهم الظمآن إلى قطرة ماء يبلغها لسانه ! وعندما أبلغتها قرارها بضبطهما متلبسين بجريمتهما ، أجابتها سميرة فى ذهول لم تفلح فى إخفائه :

ــ هل بلغ اليقين بك هذا الحد ؟!

ــ لا بد أن أتخذ خطوة ما .. حتى لو كانت فاشلة .. وإلا كان الجنون مصيرى !

ضمتها سميرة فى عنف ساخن :

ــ لا يمكن أن أتركك بمفردك لهذه التجربة .. سأصطحبك إلى بيتى .. للراحة والإسترخاء ثم أذهب معك .. فأنت أيضا فى حاجة إلى سند وإلى شاهد لا يمكنهما الهرب بجلدهما !

ــ أفضل البقاء هنا فى المستشفى لاحتمال الاتصال بى تليفونيا على سبيل التأكد !

ــ هل يشتبهان فى شكك حولهما ؟!

ــ علمتنى الأيام الأخيرة أن أعمل لكل احتمال حسابه !! خاصة وأنه اتصل بى أول أمس مدعيا الإطمئنان علىّ !! و لم أعرف فى تلك اللحظة أنه معها .. وأنه كان يحاول الاطمئنان على نفسه !!

ــ عندك حق فى كل ما تقولين !

رفعت سميرة سماعة التليفون وأبلغت عامل التحويلة بتوصيل أية مكالمة خاصة بالدكتورة بهيرة . أدارت مفتاح مسجل صغير فصدح بموسيقى خفيفة ثم داعبت بهيرة وهى تربت على ظهرها :

ــ سنرابط هنا حتى ساعة الصفر بعدها نشرع فورا فى الهجوم !! كم يتمنى الإنسان بعض لحظات من الإثارة هربا من حياته الراكدة .. وعندما يشعر أنها أصبحت على الأبواب يصيبه الخوف !!

رفعت بهيرة عينيها وهى تجفف بقايا الدموع فى تساؤل مبحوح :

— هل تشعرين بالخوف ؟!

أطلقت سميرة ضحكة صافية خففت كثيرا من وطأة الموقف :

— إننى أتكلم عنك ! أما أنا فأعشق الإثارة !

— شخصية وسيم لا تثير الخوف والرهبة .. إنها لا تبعث إلا إلى الاشمئزاز والاحتقار !

— طالما أن هذا هو إحساسك فلا خوف عليك !

ثم رفعت سميرة السماعة لتطلب غداء لهما ، و لم تتوقف سميرة عن الدعابة والمرح أثناء تناوله بتشبيه موقفهما بموقف القادة العسكريين الذين لا بد أن يتغذوا جيدا قبل خوض المعركة حتى يتمكنوا من إدارتها بجسم سليم وعقل سليم ! وبعد الغداء أجبرت بهيرة على الاسترخاء فى السرير الأبيض الصغير ، فى حين قضت هى الوقت فى تصفح بعض المجلات الطبية ! كانت بهيرة سعيدة بسميرة التى غمرتها بأمواج من الراحة والطمأنينة أطفأت كثيرا من جمرات نفسها ، وهى تخطط معها خطوات الهجوم ، وتعد لكل الاحتمالات الطارئة عدتها !

كانت الساعات الخمس التى قضياها سويا كفيلة بدراسة الموضوع من كل جوانبه ، حتى دق التليفون فقفزت بهيرة لترفع السماعة وليأتيها صوت علياء تشكرها على السهرة الساحرة التى دعتها إليها بالأمس ، وتعرب عن أمنيتها فى ردها فى القريب العاجل ! كانت مكالمة متحفظة مقتضبة أثارت فى بهيرة من الهواجس ما جعلها تشعر بهمسات تشبه صوت وسيم إلى جوارها ! وضعت السماعة وصدرها يعلو ويهبط ، ونظراتها تؤكد لسميرة أن شكوكها بلغت مرحلة اليقين ! نظرت سميرة إلى ساعتها لتقول بنفس الدعابة والحيوية والمرح :

— هل حانت ساعة الصفر يا جنرال ؟!

— لا أعرف ماذا يمكن أن أقول على وجه التحديد !

— إياك والتردد يا جنرال !! هيا نقترب من ميدان المعركة حيث يمكننا تحديد ساعة الصفر بعد دراسة الأرض والظروف بطريقة عملية !

نهضت سميرة لتخلع المعطف الأبيض وكذلك بهيرة ! كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساء عندما خرجتا من باب المستشفى حيث انطلقت بهيرة بسيارتها وإلى جوارها سميرة . وسرعان ما كانت تقترب من الفيلا حين طلبت منها سميرة هامسة أن تقف على الطوار المقابل لمراقبة الموقف عن بعد وعن كثب فى الوقت نفسه ! أخبرتها بهيرة بأن المدخل مضاء وكذلك غرفة المكتب ، فنصحتها بالانتظار !

كانت لحظات مثقلة بالصمت والترقب والقلق ! مسحت بهيرة الطريق الخالى الساكن بعينيها فلمحت سيارة علياء أمام فيلا أخرى إمعانا فى التمويه ! كادت صرخة أن تفلت من فمها معلنة يقينها النهائى لولا يد سميرة التى أطبقت على شفتيها ، فأشارت هامسة إلى السيارة :

ــ بلغ بها الفجور حدا جعلها تأتى بسيارتها !

ــ المهم أن تركزى الآن عينيك على البيت !! ولا تفتحى فمك بكلمة إلا عندما تضاء غرفة النوم !

عادت اللحظات ثقيلة بطيئة كأن الزمن نفسه توقف عندها !! لكن سرعان ما لف الظلام غرفة المكتب ، فنظرت بهيرة إلى سميرة هامسة :

ــ من الصعب تبين ضوء غرفة النوم من هنا ؟!

ــ المياه تكذب الغطاس !! هيا بنا !! وإياك أن تحدثى صوتا !

خرجت سميرة من السيارة بمنتهى الهدوء وتبعتها بهيرة وهى تغلق الباب فى سكون زاد من رهبته ووحشته فحيح الفراغ المحيط بقمة الجبل ! سارت سميرة على أطراف أصابعها حتى مدخل الفيلا فى حين انحرفت بهيرة إلى اليسار قليلا ومالت برأسها لتلحق بها وتهمس بأن الغرفة مضاءة بالأباجورة ! أمسكت سميرة بيدها هامسة بدورها :

ــ افتحى الباب واخلعى الحذاء !

صعدتا على الدرجات الرخامية القليلة المؤدية إلى الباب الحديدى المطعم بالزجاج ! أخرجت بهيرة المفتاح من حقيبتها لتدسه فى ثقب الباب فى حين خلعت سميرة حذاءها وحملته مع الحقيبة . فتح الباب مسافة تسمح بمرور كل منهما على حدة . دخلت بهيرة

حافية وخلفها سميرة دون أن تغلق الباب ! فى ضوء المدخل دارت بهيرة أمام السلم الداخلى المؤدى إلى الطابق الثانى وقد اكتسحت الإثارة داخلها كل خوف وقلق ! سارت فى ممر قصير معتم بعض الشئ حتى بلغت باب غرفة النوم وسرعان ما كانت سميرة خلفها ! كان الباب مواربا ناطقا بالآهات والهمسات والقبلات ! غاص قلب بهيرة حتى قدميها وهى تلمح مشهدا حفر فى بصرها وبصيرتها بخطوط من نار ورماد ! تحول الجسدان الورديان فى ضوء الأباجورة الأحمر إلى جسد واحد تلوى يمنة ويسرة ، صعودا وهبوطا مع الإيقاع الخشبى للسرير !

دون تفكير تحولت بهيرة إلى طلقة من مدفع ثقيل بهجومها الصارخ والحذاء فى يدها ينهال بضربات متلاحقة لا تفرق بينهما ! لم تفعل علياء شيئا سوى ستر جسدها بقطع ملابسها المتناثرة على الأرض وحافة الفراش والتى التقطتها حيثما اتفق ، فى حين صاح وسيم محاولا حماية بشرته الرقيقة البيضاء من ضربات كعب الحذاء المدبب الصلب والتى تركت بقعا حمراء هنا وهناك :

— أرجوك .. سأشرح لك كل شئ بالتفصيل ... ت .. ت .. ت .. س .. س .. س.. ب .. ب .. ب ..

ولكن عندما وجد أن كعب الحذاء كان الرد الوحيد أمسك به ولوى ذراعها وألقى به بعيدا فى حين خرجت علياء لاهثة تلملم ثوبها كى تهرب من الكابوس الذى فتح فاه فجأة محاولا ابتلاعها ، واصطدمت وهى فى طريقها إلى الخارج بسميرة التى لم تستطع منع نفسها من السقوط أرضا ومعها علياء ، كما لم تستطع إغماض عينيها عن متابعة المشهد الذى لن تنساه طوال حياتها ! هبت علياء واقفة هاربة وصرخات بهيرة اللاهثة تملأ أذنيها :

— فى فراشى يا مناجيس !! فى بيتى يا كلاب !! فلتلتهمها التهاما لكن ليس فى فراش يا خنزير !

— اخرسى وإلا !!

صرخ محاولا إيقاف الإعصار لعله يرتدى ملابسه بأسرع ما يمكن ، لكنه فوجئ

بالكعب الآخر ينهال عليه مع صرخاتها المذبوحة :

ــ أتهددنى يا كلب ؟! أنا التى سأقتلك وأشرب من دمك !! سأطردك من مشروعات بابا !! ومعى شاهد عيان على حقارتك !!

هرب إلى ركن الغرفة القصى ليرتدى سرواله :

ــ لماذا كنت تدعين اللامبالاة .. والغيرة تنهش قلبك ؟!

ــ الحقارة لا يمكن أن تثير الغيرة .. سترى أنك لا تساوى شيئا حتى فى نظر ساقطة مثل تلك التى كنت معها !!

ــ اخرسى !! إنها أشرف منك !!

هجمت عليه مرة أخرى لكنه كان أسرع منها فى الانطلاق خارجا بعد أن ارتدى ملابسه وصوته يجلجل من المدخل :

ــ لن أطلقك !! سأتركك هكذا كالبيت الوقف ! دخول الحمام ليس كالخروج منه !

ثم صفق الباب خلفه فهرعت سميرة إلى بهيرة التى جلست على حافة الفراش تنتفض ! ضمتها إلى صدرها وصوت نشيجها يهز كيان سميرة بارتعاشة تمكنت من التحكم فيها :

ــ ليس هذا ما خططنا له تماما ؟!

ــ أعذرينى يا سميرة .. لم أمر بموقف عنيف كهذا ؟!

قالتها بهيرة بتنهدات وانتفاضات متقطعة ! أجابتها سميرة وهى تمسح لها دموعها بمنديلها :

ــ لكنك أثبت أنك أقوى من عشرة رجال !

أطلت ابتسامة بهيرة من بين دموعها مثل شمس بين السحب المنقشعة بعد يوم مطير :

ــ فعلا .. أشعر بالسلام السارى فى عروقى وهو يمدنى بقوة عجيبة ! برغم تهديده بعدم طلاقى !

ـــ واضح أنه أضعف من أن يتخذ موقفا حاسما ! على كل حال لن أتركك تبيتين بمفردك بعد ما حدث .. هيا بنا !!

ـــ رأيت بنفسك كم أنا قوية !! لن أثقل عليك !! سأبيت هنا فى بيتى كالعادة !!

ـــ لن تثقلى علينا أبداً !! فأنا أعيش مع أمى فى شقة من خمس حجرات .. بعد أن ذهب كل أخ من إخوتى إلى حال سبيله .. إما بالزواج أو بالسفر أو بالهجرة !! وستفرح ماما بك كثيرا !! على الأقل سنجد من سنثرثر معه !!

ثم جذبتها بقوة لم تستطع بهيرة أن تقاومها :

ـــ هيا أغلقى بيتك ليلتين أو ثلاث على أقل تقدير !

سعدت بهيرة بهذا الحنان الدافق الذى كانت فى أشد الحاجة إليه فى تلك اللحظة بالذات ! أسرعت بإغلاق كل الأبواب ، وإحاطة الباب الحديدى الخارجى بالسلسلة والقفل لحين البت فى الأمر كله وحسمه !

أسرعت إلى السيارة التى انطلقت بهما إلى حى المنيرة حيث تقطن سميرة التى انطلقت ضحكتها صافية مجلجلة :

ـــ يا لها من مغامرة !! ولا حتى فى أغرب قصص الخيال !

شاركتها بهيرة الضحكات وبرد الراحة يسرى فى جمرات عروقها ، ويداها أكثر رسوخا وثقة على المقود ، والسيارة تنطلق على الطريق المتعرج كالثعبان الناعم فى خفة ورشاقة ، والصخور على الجانبين تحنو عليها فى استسلام تام لأضوائها المبهرة التى أنارت كل الحنايا المظلمة والخبايا المعتمة !

كان إيهاب مشغولا فى كانتين المستشفى يلبى طلبات الزبائن من سندويتشات ، وباكوات شيكولاتة وبسكويت ، وأكواب شاى وحلبة ، وزجاجات مياه غازية ، يساعده اثنان من ممرضى المستشفى ، وهو سعيد بالحب الذى يحيط به من كل جانب ! فجأة برز أمامه ساعى الدكتور بكير ليبلغه باستدعائه فورا إلى مكتبه ! سأله عن السبب لكن الساعى لم يكن يعرف شيئا ! انتابه القلق لهذا الاستدعاء المفاجئ فأسرع بخلع المعطف الأبيض وهرع خلف الممرض حتى بلغ مكتب الدكتور بكير حيث جلست الدكتورة نيرة أمامه . لم يكن وجه الدكتور بكير منطلقا منشرحا كعادته فى حين نهضت نيرة لتحييه ببعض القلق الذى تراقص على رموشها وشفتيها . مد الدكتور يده بالسلام مرحبا بصوته الجهورى الذى فقد كثيرا من مرحه ، ومسح بيده صلعته المستديرة اللامعة ، ونظراته لم تكف عن التردد بين إيهاب ونيرة خلف نظارته السميكة :

ـــ لم تحك لى شيئا منذ مدة طويلة عن آخر إنجازاتك العلمية مع بلسم ؟

اهتز إيهاب فى جلسته ، فقد استشعر خطرا كامنا بين طيات السؤال ! طرد حشرجة اعترضت حلقه وهو يهم بالإجابة :

ـــ أوشكت على جمع معظم المادة تقريبا !

خرج صوته منخفضا مبحوحا وسط ضجيج المروحة الكهربية التى تثير الصداع أكثر مما تثير الهواء ! ركز الدكتور بكير نظارته عليها وهو يضيف :

ـــ أستاذ إيهاب .. أنت تعلم مدى ثقتى فيك وتقديرى واحترامى لك .. ولذلك أرجو أن تأخذ كلامى على محمل الحرص والخوف عليك !!

إذاً .. فالأمر جد خطير ولا داعى للمقدمات التى تطيل القلق :

ــ تحت أمرك يا دكتور !! هل وقع ما يعكر الصفو ؟!

ــ لم يقع بعد .. لكن يمكن أن يقع وبأسرع مما تتصور !!

ــ دكتور بكير .. لم أتعود من سيادتك مثل هذه الألغاز !!

ــ أتذكر أننى كنت أول من دفعك إلى دراسة مجتمع الغجر ؟!

ــ وأنا مدين لك بكل التسهيلات التى قدمتها لى !

ــ لكننى الآن خائف من أن يتطور الأمر إلى ما لا تحمد عقباه !

ــ لو كان هناك ثمة خطر يتهدد حياتى .. فلماذا لم تحذرنى بلسم منه وهى القادرة على قراءة الأفكار قبل أن ينطق بها أصحابها ؟!

ــ ربما أصبحت منهمكة هى الأخرى فى دراستك بحيث لم تعد تدرى حقيقة ما يدور حولكما من أخطار !

لم يسترح إيهاب للألفاظ التى يستخدمها الدكتور بكير برغم ظاهرها الذى يدعى الخوف والحرص عليه . ارتسمت فى مخيلته صورة زوجته الحريصة دائما على مراقبة بلسم فى مجيئها ورواحها من خلال تجسسها من فتحة الباب التى تكشف الخارج دون الداخل ، ومنعها أولادها الاقتراب منه ؛ بل إن نيرة نفسها كانت تعامله فى المستشفى فى الشهر الأخير كطبيبة فى مواجهة متعهد للكانتين ! قرر أن يصل إلى قلب الموضوع مباشرة :

ــ إذا كان هناك ما يضايقك .. ففى إمكانى ترك الشقة ومعها العمل بالكانتين أيضا !!

نظر الدكتور بكير إلى نيرة وقال دون أن يخفى أسفه :

ــ كما توقعت تماما !! سوء التفاهم أو سوء الفهم أكبر احتمال قائم فى أى حوار بين أى اثنين من المصريين !! ولذلك سأضع النقاط على الحروف !! إن إساءة الظن بالآخرين ليس من طبعى .. فهناك شائعات فى البلد تلمح من طرف خفى إلى علاقة غرامية بينك وبين بلسم الغجرية !! وأنت الآن أدرى منى بالغجر .. ومن السهل جدا أن يتهور أحدهم ضدك .. وتضيع فى شربة ماء !!

سرى خوف حقيقى شائك داخل إيهاب لكنه تجلد :

— هل لى أن أعرف مصادر هذه الشائعات حتى نتبين مدى صحتها من مدى كذبها ؟!

— ليست هذه هى القضية .. فالشائعات مثل الحقائق تماما لأنها تؤدى إلى نفس النتائج الخطيرة التى قد نعجز عن تفاديها إذا سرقنا الوقت !!

أعادت نبرة الحماس والإخلاص ثقة إيهاب فى بكير ، محاولا طرد صورة زوجته من مخيلته التى تربع جرحى على عرشها :

— وما العمل الآن ؟! أنا تحت أمرك ؟!

— إنها ليست مسألة أوامر !! وإنما طلبتك لأستشيرك حرصا على سلامتك .. حتى لا يقتلنى الإحساس بالذنب !

كان قد أدمن بلسم لكنه أجبر نفسه على أن يقول :

— أعتقد أننى حصلت على كل المعلومات الممكنة من بلسم .. لكننى لا زلت فى حاجة إلى الحياة ولو ليوم واحد بين الغجر !!

تدخلت نيرة فى الحوار بعد متابعتها الصامتة لكل كلمة قيلت . نطق وجهها الأسمر الرشيق الدقيق بدفء الصدق :

— بعد هذه الشائعات أصبحت هذه الرغبة من رابع المستحيلات ! ولا أعتقد أن الحياة أصبحت رخيصة عندك إلى هذا الحد !

— لم أر من الغجر حتى الآن سوى الصدق والإخلاص !

خلع الدكتور بكير نظارته السميكة ليمسح زجاجها بمنديله :

— وأرجو ألا ترى غير ذلك !

ثم سرح ببصره وهو يمسح صلعته بيده متسائلا :

— هل تعنى فعلا أن كل ما ينقصك هو قضاء يوم واحد بين الغجر ؟!

— فعلا .. فأنا لم أعرف منهم سوى بلسم وما حكته عنهم .. وليس من سمع كمن رأى !!

كانت نيرة تراقب خالها فقالت دون تفكير :

— أعرف ما يدور فى ذهنك يا خالى ! لا داعى للمخاطرة .. والباب الذى تأتى منه الريح نسده ونستريح !

عاد الدكتور بكير إلى ضحكته المجلجلة :

— أحيانا أشعر أن نيرة تكبرنى سنا .. على كل حال سأطرح عليك فكرتى ولك مطلق الحرية فى اتخاذ القرار !

اجتاحته أمواج الإثارة التى انحسرت تماما منذ الصباح :

— تفضل ! فلولا سيادتك لما استطعت التقدم خطوة واحدة فى دراستى !

تردد الدكتور بكير قليلا ثم قال وابتسامة حرجة تغلف كلماته :

— لقد دعانى كبير الغجر لحضور حفل زفاف ابنه الخميس القادم .. وهو يكن لى إعزازا خاصا لأن الله مكننى من إنقاذ ابنه من المصران الأعور الذى كان على وشك الانفجار !

ومضت عينا إيهاب كما لو كان قد عثر على كنز :

— ولماذا يرحب الغجر بغير الغجر فى مناسبة كهذه بالذات ؟!

— لأنهم يحرصون على أن يشاهد غير الغجر دم العروس بعد عملية فض البكارة التى يقوم بها العريس كى يثبتوا للمحيطين بهم أنهم غجر ولكن شرفاء !

كاد إيهاب أن يقفز من مقعده :

— لا أريد شيئا أكثر من هذا !! إذا كان فى الإمكان أن أكون فى معية سيادتك !!

— يمكننى اصطحابك بصفتك الممرض الخاص بالعيادة !!

— لا أعرف كيف أرد أفضالك علىّ ؟!

قال الدكتور وهو ينظر مبتسما لنيرة :

— هناك أيضا خبر آخر سأتركه لنيرة !

يبدو أنه يوم الأخبار المخيفة المثيرة ! سالت عيناه باستجداء السؤال ونيرة تتحفز للكلام فى حرج واضح ضاعف من قلقه :

— خيراً ؟!

دقت نيرة بأصابعها السمراء الرقيقة على زجاج المكتب وأزاحت طرف المعطف الأبيض عن ساقيها ثم قالت :

— منذ يومين جاءت الدكتورة بهيرة إلى العزبة .. واتصلت بى تليفونيا فذهبت للقائها !

طغت دقات قلبه على رغبته فى التساؤل والتعليق فلزم الصمت وهى تواصل حديثها المتفجر بالمفاجآت :

— وكانت فى أشد اللهفة فى السؤال عنك وعن أحوالك !

تساءل دون أن يفكر بالمرة :

— وهل جاء معها زوجها ؟!

— انفصلت عنه .. وهى تسعى الآن للحصول على الطلاق !!

يبدو أن بلسم على حق دائما فى كل تمنياتها التى أكدت له عودة بهيرة إليه برغم كل ما جرى ، وما أقيم من حواجز بينهما ! تساءل فى شرود مثير متدفق :

— هكذا ؟! بهذه السرعة ؟! لا أكاد أصدق أذنى !! لكن يبدو أنه لن يطلقها ! فأنا أدرى بأهدافه الحقيقية من الزواج منها ! وكيف حالها وصحتها ؟

تبادل الدكتور بكير ونيرة نظرات مشحونة بالمعانى والخواطر ، ثم استأنفت نيرة حديثها :

— لم تعجبنى صحتها .. اكتسح الشحوب حمرة وجهها الذى أحببنا النظر إليه .. كما أنها كانت قلقة أكثر من اللازم !

— وماذا قلت لها عنى ؟!

— لم أقل لها سوى أنك تواصل دراستك .. لكنها قالت لى عنك أشياء تعجبت كيف عرفتها !!

— ماذا قالت ؟!

— البلدة صغيرة وسرعان ما يصبح السر ملكا للجميع .. فقد اتضح أن الفلاحين

فى العزبة وفى مقدمتهم عم شعبان ناظر الزراعة على معرفة كاملة بكل الشائعات التى ربطتك ببلسم .. لدرجة أن عم شعبان يؤكد فى سهرات المساء أن الغجرية ستخطفك كما خطفت غجرية أخرى ابنه من قبل !! فلا يستطيع أحد أن يقاوم سحرهن !!

ـــ وهل عرف عم شعبان شخصيتى الحقيقية ؟!

ـــ الأمر كله ثرثرة وشائعات وتخمينات !! لكن فلاحا من العزبة رآك فى كانتين المستشفى وعاد ليقول لهم إنك شبه البك خطيب الدكتورة بهيرة .. ثم أقسم بالطلاق بعد ذلك أنكما شخص واحد !

ـــ لكن إذا كانت هذه الشائعات منتشرة بهذا الشكل .. فلماذا واظبت بلسم على الحضور ؟!

علق الدكتور بكير بلهجة الخبير :

ـــ كيف تقطع رزقها بيدها ؟!

ـــ ولماذا لم يرصد الغجر تحركاتها ويتخذوا معها إجراء حاسما ؟!

أضاف الدكتور بكير :

ـــ ليس من السهل التنبؤ بما سوف يفعله هؤلاء الناس !

عاد إيهاب إلى سؤال نيرة بإلحاح :

ـــ وماذا قالت بهيرة أيضا ؟! وهل لا تزال فى العزبة حتى الآن ؟!

ـــ طبعا ضايقتها هذه الشائعات لدرجة أنها فقدت ثقتها فى الرجال تماما .. وعادت إلى القاهرة صباح أمس .. وهى فى منتهى الكآبة !!

ـــ ولماذا لم تتصلى بى فور معرفتك بوجودها هنا ؟! خاصة بعد أن علمت نيتها على الطلاق ؟!

ـــ كانت تنوى لقاءك شخصيا كصديق قديم على الأقل .. لكن بمجرد استماعها إلى هذه الشائعات أجبرتنى على أن أعدها بكتمان أمر مجيئها .. وعندما عبرت لها عن حرجى فى حالة معرفتك من شخص آخر .. سمحت لى بأن أصارحك بالأمر كله بعد عودتها إلى القاهرة !

— هل كانت تلبس خاتم الزواج ؟!

— سألتها عنه فقالت لى بعصبية إنها ألقت به فى الجحيم !

— ياه !! يبدو أنها تمر بأزمة طاحنة ؟! لا بد أن أسافر الآن إلى القاهرة .. على الأقل لأكون بجوارها إذا احتاجت إلىّ !

نظر الدكتور بكير إلى نيرة كما لو كان فى محاولة صامتة لتأكيد معانى حوار سابق بينهما ، ثم قال لإيهاب :

— ليس قبل أن تنهى كل ارتباطاتك الدراسية هنا !! وخاصة مع بلسم حتى تعود إليها وقد قطعت دابر كل الشائعات التى عكرت صفوها !

ومضت عيناه كمن تذكر شيئا تاه منه فى خضم الحوار الساخن :

— لم تكن بلسم مواظبة يوميا على المرابطة عند باب المستشفى .. لكنها غابت الأيام الثلاثة الأخيرة .. وميعادها معى اليوم .. فإذا لم تأت .. فلا بد أن هناك خطرا محدقا بها بالفعل !

تساءلت نيرة فى دهشة :

— هل تخاف عليها أكثر من خوفك على نفسك ؟!

— لم أر منها غير كل خير ؟!

ضحك الدكتور بكير وقد ارتكز بمرفقيه على مكتبه :

— لا تقل مثل هذا الكلام أمام أى أحد آخر .. وإلا أكدت بنفسك حكاية العلاقة الغرامية بينكما !

ثم نهض واقفا كأنه ينهى المقابلة :

— سأصطحبك إلى حفل الزواج الغجرى الخميس القادم حتى تحقق أمنيتك الأثيرة .. ويمكنك بعد ذلك العودة إلى الدكتورة بهيرة لعلها تكون فى حاجة فعلية إليك !

مد إيهاب يده بالسلام الحار :

— شكراً .. دكتور بكير .. وأرجو أن أكون دائما عند حسن ظنك !

ـــ أنا سعيد بمعرفتك .. وأرجو ألا تنقطع صداقتنا بمجرد الانتهاء من دراستك !!

ـــ لن يحدث بإذن الله .. عن إذنكم !

ثم انحنى محييا نيرة وخرج عائدا إلى الكانتين ، لكنه ظل طوال اليوم قلقا حائرا متوترا لدرجة أنه خرج ثلاث مرات تاركا عمله لمساعديه كى يطمئن من وجود بلسم عند باب المستشفى ، لكنه عاد فى كل مرة يخفى حنين وقد تحول القلق إلى بحيرة متلاطمة الأمواج كاد أن يغرق فيها ! وبمجرد اقتراب الساعة من الثالثة مساء أغلق الكانتين وعاد إلى شقته يضرب أخماسه فى أسداسه ! وفوق درجات السلم الحجرية ترك أقدامه المثقلة تحدث إيقاعا رتيبا فتح على أثره باب شقة الدكتور بكير نفس الفتحة الضيقة الخبيثة ، لكنه سرعان ما أغلق فى صمت كئيب !

كانت كل اتهاماته الصامتة تدور حول زوجة الدكتور بكير ، لكن لم يكن فى إمكانه أن يصارح أحدابذلك ! ذلك أن ثقته بالدكتور ونيرة لا تهتز ، أما زوجته فسيدة ثرثارة وصديقة لكل زوجات المسئولين فى المدينة ، ولا يعقل أن سيرته لم ترد على لسانها أمامهن ، ولو على سبيل الانتقام مما ظنته غراما بينه وبين بلسم ، من شأنه أن يشوه سمعة بيتها وزوجها ، ولا يستبعد أيضا أن يكون الدكتور بكير نفسه قد تأثر بكلام زوجته فآثر الابتعاد عن الشر والغناء له ! وطالما أن السيدات الفاضلات قد تبادلن السر فيما بينهن ، فلا بد أن ينتقل إلى الخادمات ثم إلى الغجر ! ولا يمكن أن يكون جرحى الرقيب اليقظ على بلسم آخر من يعلم ! لا بد أن شيئا ما يدبر فى الخفاء !!

غمرته المخاوف فى جلسته المعتادة أمام النافذة التى شهدت أجمل لحظات عمره مع بلسم ! كانت ترجوه فى كل مرة ألا يقلق لو تأخرت أو أخلفت ميعادها ضمانا لسلامتهما هما الاثنين ، لكنها فى المرة الأخيرة أحالت رجاءها إلى إلحاح غريب لم يفطن له سوى الآن ! وهى المرة التى شعر فيها أيضا بأنه أصبح عاجزا عن الاستغناء عنها وإن لم يعترف بوقوعه فى غرامها ! لكن ما العمل الآن بعد ما تدفقت عليه أخبار بهيرة الجديدة المذهلة ؟! هل كتب عليه أن يقع بين شقى الرحى لا يعرف لنفسه خطوة

راسخة فى طريق واضح ؟! يجب أن يعترف لنفسه بأن بهيرة كامنة فى أعمق أعماقه ! كذلك،يتحتم عليه أن يعترف بأن شيئا ما قويا وراسخا قد تركته بلسم داخله!هل يمكن لإنسان أن يحب امرأتين مختلفتين تماما بنفس القوة وفى نفس الوقت ؟! ولا يشعر بخيانته لإحداهما ؟! عجيب أمر هذا الإنسان الذى يسعى جاهدا لاكتشاف المجتمع المحيط به فى حين ينسى أو يعجز عن اكتشاف نفسه !!

ألقى ببصره عبر النافذة حيث كانت الشمس تضرب الأرض والزرع والنخيل والنهر الصغير بسياط من لهيب ، وتعشى العيون بأسلاكها المبهرة ! هذا الصيف الطويل الساخن لا يريد أن يرحل ! نظر إلى ساعته فوجدها قد جاوزت الرابعة ، نظر إلى الطريق يمنة ويسرة فلم يلمح ظلا لبلسم ! قلبه الملهوف يحدثه بأشياء خطيرة ، لكن عقله يؤكد له أن احتمال تخلفها كان احتمالا قائما بصفة مستمرة ! لكن لماذا غابت عن المستشفى الأيام الثلاثة الأخيرة ؟!

تراقصت أمام عينيه كل علامات الاستفهام ! هل يمكن ألا يراها مرة أخرى ؟! كأنها لم تكن ؟! أو كأنها حلم جميل استيقظ منه على واقع ساخن ثقيل ؟! لو ترك العنان لهاجس مثل هذا لأصابه بالجنون ! لكن كيف سيتصرف إزاء بهيرة التى عادت فجأة إلى حياته بكل قوة برغم التعقيدات التى لم تحسم بعد ؟! كان حلم حياته أن تصبح بهيرة ملكه وحده إلى الأبد ، وتحول الحلم إلى كابوس عندما فرقت بينهما الأيام ، ثم تحول الكابوس إلى حلم جميل مرة أخرى بقدوم بلسم إلى حياته ! لكن قلبه يحدثه باحتمال عودة بهيرة إليه ! أى تحقيق الحلم القديم الجميل ! فلماذا كل هذا القلق ؟! هل كان اليأس من بهيرة أو الأمل فى بلسم الدافع وراء عرض الزواج الجنونى الذى طرحه عليها بإلحاح فى المرة الأخيرة ؟! وكانت بلسم من التعقل والرزانة بحيث أكدت له وجود فوارق بين البشر لا يمكن تجاوزها أو تجاهلها ، وهى الحقائق التى يعرفها حق المعرفة ومع ذلك استمرأ اجترار الحلم كالمدمن الذى لا يريد الإقلاع عن إدمانه برغم إدراكه لعواقبه فى النهاية ! لكن هل كان من الممكن أن يواصل الإصرار على عرض الزواج الجنونى لو أنه علم بأنباء بهيرة الأخيرة منذ مدة ؟! لا يعرف ! فقد غلب

التشويش فكره الصافى المتسق عندما وجد نفسه فجأة فى مفترق الطرق ، لا يعرف أى طريق يسلك ! إن الفرض والإجبار أكثر راحة للإنسان من الحرية والاختيار حيث التفكير والمسئولية !

ضاعف السكون المحيط بنافذته من ضجيج الصخب داخله ! أطل منها لعله يلمح شبحها لكن قلبه حدثه بأنها لن تأتى ! أنساه القلق الغداء الذى اعتاد تناوله مع بلسم فى الأسابيع الأخيرة ! حاول الهروب منه بالتريض على ضفاف بحر شبين ! هبط على درجات السلم الحجرى العتيد فإذ بالباب كالعادة يفتح دون أن يظهر الشبح اليقظ خلفه! فلتسعد زوجة الدكتور بكير بإنتهاء أيام سعادته الحالمة التى سيواصل إجترارها طالما ترددت فى صدره أنفاس! لماذا تسعدنا تعاسة الآخرين؟! ماذا كان يمكن أن يكون صدى عرضه الزواج على بلسم عند أهل البلدة لولا أنه ظل سرا بينهما ؟ وبرغم كل هذه التيارات المتضاربة المتعارضة ، فهناك حقيقة واحدة راسخة مبهرة كهذه الشمس اللافحة تماما ، وهى أن هذه الغجرية الساحرة الفاتنة قد أحبته من أعماق قلبها مثل حب الجنيات والحوريات لأبطال الأساطير ! ولماذا لا يكون الحب هدفا فى حد ذاته بصرف النظر عن الزواج ؟! وإلا ما الفارق بينه وبين ابن عم شعبان ناظر الزراعة التى اختطفته الغجرية وهربت بعيدا ، وأصبحت سيرته مضغة الأفواه فى كل جلسة بعد أن جلب العار لأبيه ؟!

لم يسترح إيهاب لهذا الخاطر فى سيره الوئيد على ضفة الترعة ! فربما كان ابن عم شعبان يملك من الجرأة والإقدام والشجاعة مالا يتوفر لمثقف مثله كبلته قيود المدينة التى أصبحت تعادى الطبيعة فى كل مظاهرها البريئة النقية التلقائية العفوية !! جلس على السور الحجرى أمام الهويس القديم الصدىء الذى تجمعت أمامه المياه السوداء بالعفن والقذارة ، والمحملة بكل نفايات البلدة ! تذكر رائحة المسك المتضوعة من جسد بلسم ! تذكر أول يوم هبط فيه شبين القناطر مع بهيرة وتريض معها على ضفاف بحر شبين ! لا تزال النساء شبه العاريات يقمن بغسل الملابس بطول ضفتيه ! ولا أحد من المارين يجرحهن بمجرد التفاتة أو نظرة ! تصاعدت حوله رائحة الجلة والتبن والحشائش

المحترقة فاستأنف السير الوئيد دون أن تتخلى عيناه عن باب البيت خوفا من أن تدخل بلسم دون أن يراها !

غبط إيهاب الرجال النائمين على الخضرة الممتدة على الضفة تحت ظلال الأشجار هربا من لهيب الشمس ، وجماعات الأوز السائرة فى مواكب كالملكات ، والتى يمتزج صياحها بنباح بعض الكلاب البعيدة فى إيقاع يردد السكون صداه ، والأبقار الناعسة فى الحقول ، والسماء الصافية المفتوحة التى لم ير مثلها فى القاهرة !

فجأة انشق السكون عن نداء يعرف صاحبه الذى ظهر كما لو كانت الأرض قد انشقت عنه :

— نصلح كوالين .. بوابير الجاز نعمر ! نسن المقص ونسن السكين !!

التقت العيون فى لحظات خاطفة : شبح حاد الملامح ، نحيف القامة ، كالسيف تحت جلبابه الرمادى الذى يبرز تحته عند يسار الخصر نتوء يبدو أنه لسكين أو لخنجر ! فى حين يغطى الوشم ساعديه وفتحة صدره التى كشفت عن وجه غجرية يكاد يكون لبلسم ! ويحيط برأسه منديل أسود على شكل دائرة تبرز شعره الأسود الناعم الأشعث من قلبها ! نفس عينى بلسم الواسعتين السوداوين الحادتين ، والأنف الشامخ فى كبرياء ، والشفتين الغليظتين الداكنتين ! لكن فكه بدا حديديا مثل صندوقه المعلق فى كتفه والذى علاه الصدأ والذى لم يعكس أشعة القرص الذهبى الذى مال نحو الأفق !

— نصلح كوالين .. بوابير الجاز نعمر ! نسن المقص ونسن السكين !

انطلقت السهام من عينى جرحى فأصابت قلب إيهاب بالرعب ، فتسلل عائدا إلى بيته وأمنيته الوحيدة فى هذه الدنيا ألا تأتى بلسم لزيارته ! فليس هناك أغلى من الحياة نفسها ! دخل شقته ليرتمى على أول مقعد ، لكنه انتفض واقفا فى مواجهة تساؤل مرعب :

— ماذا يقصد بسن المقص وسن السكين ؟! إنها ليست حرفته .. ولا يحمل على ظهره عجلة سن المقص وسن السكين !!

١٤

كانت بهيرة تجلس إلى مكتبها تحاول التركيز فى صفحات مجلة طبية أمامها ، لكن عقلها المحموم كان يدور حول إيهاب الذى أوشك أن يتساوى فى نظرها مع ابن عم شعبان ! وأوشكت هى بدورها أن تفقد ثقتها فى الرجال تماما لولا إحساسها بأن ما سمعته فى زيارتها الأخيرة للعزبة من الممكن أن يكون مجرد شائعات كاذبة ! فهى لم تتحر كل جوانب الحقيقة من كل الأطراف المعنية ، بل أسرعت عائدة هربا من أن تتحول الشائعات إلى حقائق ، وفضلت التعلق بالقشة الأخيرة ! وتصديق كل ما قالته نيرة دفاعا عنه !

كانت قد عادت فى ذلك اليوم منهكة من عملها فى المستشفى لتستريح قليلا ثم ترابط بعد ذلك فى غرفة مكتبها التى تطل على فيلا إيهاب والشقة التى تم تأسيسها وتأثيثها كى تكون عشا سعيدا لهما ، لكنها ظلت منذ ذلك الحين مغلقة موحشة تنعى من بناها ! كانت بهيرة تدعى الاستذكار والدراسة هربا من لقاء أمها التى عادت مع أبيها من أوروبا بزوبعة حاولت أن تعيد بها وسيما إليها متذرعة بحجج عديدة منها أنه لم يوجد الزوج الذى لم يخطىء فى حق زوجته،وأن الطيش من صفات الشباب وخاصة أبناء الأكابر منهم ، وأن الزوج لا بد أن ينظر إلى خارج بيته لو لم تغرقه زوجته فى حبها وحنانها ، وأن الطلاق السريع كارثة لا بد أن تحطم سمعة الزوجة ، فلن يتهم أحد الرجل ، وأن اعتراف وسيم بفعلته أكبر دليل على توبته الصادقة ، ويكفى أنه جاء نادما ، آسفا ،معتذرا أكثر من مرة برغم إصرار بهيرة على رفض مقابلته ورؤية وجهه فى كل مرة ، وأن الصفح من شيم الكبار أبناء الأصول ، وأن أباها نفسه خانها فى بداية حياتهما الزوجية مع أعز صديقاتها ومع ذلك غفرت له فعلته ، واستمرت حياتهما بعد ذلك دون اهتزاز يذكر ، ونجح أبوها فى أعماله ومشروعاته الهندسية الضخمة !

لكن بهيرة تحولت إلى سد راسخ نجح فى صد كل هذه الأمواج ، بل وبعنف فى بعض الأحيان ، عنف جعل أمها تتجنب النقاش معها بقدر الإمكان خاصة بعد أن شعرت بميل زوجها إلى تأييد ابنته ، برغم أنه آثر منذ البداية عدم التدخل فى حياتها الشخصية ، أو محاولة التأثير على قرارها وذلك لثقته فى نضج ابنته وقدرتها على شق طريقها بنفسها ، وإختيار الشريك المناسب لحياتها ، بل ولإعجابه الخفى بإيهاب والذى لم يصرح به إلا أخيرا فى مقارنة عقدت بينه وبين وسيم فى حوار دار بين ثلاثتهم ! وهو حوار جعل بهيرة تميل إلى تكذيب الشائعات التى عادت بها من العزبة ! بل وتؤنب نفسها على عقد مقارنة بين إيهاب وابن عم شعبان !

سمعت دقات خفيفة على الباب وقبل أن تفتح فمها دخلت أمها تتهادى فى روب أبيض خفيف ، وسيجارة فى مبسم ذهبى بين أصابعها الرقيقة وأظافرها المدببة بطلائها الوردى . جلست على مقعد وثير بعيد بعض الشئ ومواجه للنافذة المفتوحة . وضعت ساقا على ساق وقالت :

ــ لماذا لا تغلقين النافذة وتديرين جهاز التكييف؟! حرارة سبتمبر هذا العام فظيعة لولا مكالماتك التليفونية التى أقلقتنا كثيرا .. ولولا ارتباطات أبيك فى مصر لما عدنا قبل انتهاء أكتوبر ؟!

واصلت بهيرة تصفح المجلة أمامها وهى تقول باقتضاب شديد :

ــ أفضل هواء ربنا الطبيعى على هواء التكييف المصنوع !

ــ فى الحقيقة يا باهى .. وبصراحة شديدة .. أنا لا أعرف السر فى العناد الذى ركب رأسك فجأة ! أصبحت أخاف الآن من إبداء أى رأى أمامك .. لثقتى من أنك ستقولين نقيضه على طول الخط !

لم ترفع عينيها عن صفحات المجلة التى لم تعد ترى فيها شيئا :

ــ ليس شرطا أن تتطابق وجهات نظرنا فى كل الأمور !

ــ أوافقك على هذا .. لكن أليس من العجيب أن تتنافر وتختلف وتتناقض فى كل الأمور ؟!

ـــ التطابق فى نظرك لا يعنى سوى التبعية والانقياد !

هزت الأم ساقها فى عصبية وأطلقت نفسا صافيا من أنفها :

ـــ كنت أطمئن اليوم بالتليفون على أحوال العزبة .. فأخبرنى عم شعبان أن السيد خطيبك السابق قد وقع فى غرام غجرية .. ويبدو أنها ستفعل فعلة الغجرية التى اختطفت ابنه !!

أغلقت بهيرة المجلة وهى تدق بقبضتها على بللور المكتب الفاخر :

ـــ إذاً .. فعم شعبان كان جاسوسا علينا طوال الوقت ؟! وما دمت قد عدت إلى سيرة إيهاب مرة أخرى .. فأحب أن أؤكد لك أننى لا زلت على ذمة رجل آخر لا يريد أن يسعدنى بالطلاق .. كما أن السيد خطيبى السابق حر الآن فى أن يقع فى غرام من يشاء !! إلا إذا كنت وصية عليه هو الآخر ! إذ يبدو أنه لم يخرج من حياتك برغم نجاحك فى إخراجه من حياتى !!

ـــ أصبحت لديك قدرة عجيبة على التفنن فى جرح مشاعرى برغم خوفى الشديد على مشاعرك ومستقبلك !

ـــ لن تخافى على مشاعرى ومستقبلى أكثر منى !

ـــ إصرارك على عدم قبول اعتذار وسيم وتوبته أمر غريب للغاية ! وربما أساء الآخرون تفسيره بأن هناك سببا آخر يدفعك إليه !

ـــ قولى رجلا آخر !! بدلا من اللمز والغمز !! وعلى كل حال .. فلنفرض أن هذا صحيح .. ما شأن الآخرين الذين تتكلمين دائما عنهم ؟! ومن هم على وجه التحديد ؟!

أسرعت الأم بإطفاء السيجارة فى المنفضة المرمرية أمامها :

ـــ من هو يا باهى يا حبيبتى ؟! هل هو إيهاب ؟! صارحى أمك حبيبتك !

ـــ ألم أقل لك أنه لا يزال موجودا بكل ثقله فى حياتك ؟!

ـــ لا أعرف فى حياة من منا ؟!

ـــ أنت التى تصرين على ذكره !

— لم أصب بضغط الدم إلا من جراء المناقشات معك !

— العلاج فى منتهى البساطة .. يمكنك الامتناع عنها !

— لكل شئ حدود !

انتفضت واقفة وهى تشعل سيجارة جديدة بيد مرتعشة . أسرعت الخطى حتى خرجت فى نفس اللحظة التى دخل فيها الأب ليقبل ابنته فى حنان دافق وليجلس على مقعد لصيق بها ، لكن سرعان ما عادت الأم لتقبع فى مقعدها مرة أخرى سائلة زوجها :

— هل سيظل هذا الموقف المتميع معلقا هكذا ؟!

ربت الأب على يد ابنته فى حين قال لزوجته :

— فتح وسيم الموضوع معى اليوم فى المكتب .. وبعد حوار طويل استطعت أن أحسم معه الموقف ! فالمشكلة ليست بالتعقيد الذى تتصورينه !

علقت الأم وهى تلوذ بدخان سيجارتها فى حين تحولت بهيرة إلى آذان :

— أرجو أن تكون قد بلغت النتيجة التى اتفقنا عليها ؟!

أشاح الأب بوجهه بعيدا وقال لبهيرة :

— استطعت أن أصل إلى ما يدور داخله وما ينوى أو يتمنى أن يعمله !! لم أعرف أنه ولد مراوغ بهذا الشكل الخطير !! لكننى عرفت أيضا سر نجاحه فى عمله بالعلاقات العامة عندى !! إنه يجيد الكلام واللعب بالألفاظ .. وفهم نفسية من يتعامل معه .. وتحسس ثغرات الضعف كى يتسلل منها ويسيطر عليه ثم يتلاعب به كما يشاء .. مستغلا فى ذلك جاذبيته الأرستقراطية وأناقته اللفظية وخفة دمه فى بعض الأحيان !

لم تستطع الأم إخفاء رنة المرارة فى سخريتها :

— وهل اكتشفت كل هذا فجأة وفى جلسة واحدة ؟! وهل فى إمكان وسيم أن يتلاعب بالألفاظ ؟! وأن يتحسس ثغرات ضعفك كى يتلاعب بك أنت المهندس الكبير ورجل الأعمال صاحب المشروعات الضخمة ؟!

— لا أخفى عليك .. حاول معى .. لكن مع من ؟!

— المهم .. ماذا كانت النتيجة ؟!

— جاءنى أول الأمر وهو يتغنى بحبه وغرامه بباهى .. وبتوبته الصادقة وندمه على فعلته .. وأنه لو كان كاذبا لأنكر كل شئ منذ البداية !

قالت بهيرة دون تفكير :

— وهل كان فى استطاعته الإنكار ؟! كان معى شاهد عيان !

— المهم أننى افترضت أنك لا تحبينه .. فهل يمكن أن يفرض وجوده على زوجة تمقته ؟! فكر للحظات ثم تكلم عن خطابات إيهاب التى عثر عليها بمحض الصدفة !! وعن استمتاعك بالحوار الثقيل الممل مع الغجرى فى لندن .. وعن شرودك الدائم .. وذات ليلة ضبطك تحلمين بإيهاب وتذكرين اسمه .. فما كان منه سوى أن فعل فعلته حتى يصدمك وتثوبى إلى رشدك !!

حاولت الأم ألا تتحول كلماتها إلى صرخات :

— ألم أقل لك ؟! كذلك فإنه لا يعلم أنها ذهبت إلى العزبة خلسة لتقابله .. لكنها أصيبت بخيبة أمل عندما وجدته وقد وقع غرام غجرية !! —

كانت الأم مصممة على مواصلة الحديث لولا صراخ بهيرة المتشنج :

— كذب ! .. كذب ! هذا الكاذب الحقير سرق خطاباتى من درج مكتبى السرى وليس بمحض الصدفة !! وهى خطابات خطيبى وليس عشيقى .. ومن حقى الإحتفاظ بها !! أما عن استمتاعى بالحوار مع الغجرى وشرودى الدائم .. فأنا حرة فى أن أتحدث مع من أشاء .. وأن أشرد كما أحب .. أما عن ذكر اسمه فى المنام فهو كاذب لأننى لست من المتكلمين أثناء النوم .. وفرضا هذا صحيح .. فهو على الأقل لم يضبطنى مع عشيقى فى فراشه ! ولو كانت لديه ذرة من الكرامة لانسحب من حياتى فى هدوء وكفاه ضجة فضيحته !

توقفت لتلتقط أنفاسها اللاهثة فانتهزت الأم الفرصة :

— كان من المفروض أن تدارى على شمعتك بدلا من إحضار الغريب ليشهد فضيحتك !!

— فضيحته هو فقط ! ذلك الذى يعتبر احتفاظى بخطابات خطيبى فضيحة فيقوم بسرقتها فى الظلام كأى لص !!

كانت الأم على وشك استئناف الهجوم لكن صياح الأب ألزمها الصمت اللاهث الساخن :

— كفى ! .. لا أريد إضاعة الوقت فى جدل عقيم .. المهم أننى صارحته بأنه لا توجد ثمة علاقة بين زواجه وبين عمله عندى .. فأنا أحتفظ به لكفاءته وقدرته على جلب العملاء وخاصة العميلات الثريات .. بل أننى قررت رفع مرتبه أخيرا لنجاحه فى صفقة ضخمة مع أميرة عربية جاءت لتبنى قصرا صغيرا لها فى الهرم !

أطفأت الأم سيجارتها و لم تنته بعد من نصفها :

— كيف نفرط فى شاب بهذه الكفاءة التى اعترفت أنت بها ؟!

قال كأنه يحاول حسم الموضوع بعد أن رأى القلق فى عينى بهيرة يكاد أن يصعقها :

— الكفاءة فى العمل لا تعنى الكفاءة فى الزواج !!

ثم نهض وهو ينظر إلى ساعته الذهبية مضيفا :

— وقد اكتشفت أن أمثال وسيم لم يخلقوا للزواج .. لأنه بمجرد أن تأكد من استقراره فى وظيفته .. ومن المرتب الضخم الذى سيصل إليه أبدى أسفه العميق للظروف التى يمكن أن تضطره لفراق بهيرة الذى يعز عليه كثيرا !!

نظر الأب إلى ابنته التى أشرق وجهها بوميض عينيها ثم أضاف :

— وبعد حوار لم يستمر طويلا أبدى استعداده للطلاق .. فهو لا يتمنى لابنة خالته سوى سعادتها سواء معه أو مع غيره !

قفزت بهيرة واقفة فى تساؤل لاهث :

— هل انتهى الكابوس ؟!

ابتسم الأب ابتسامة عريضة فطارت إليه بهيرة لتحتضنه وتتعلق بعنقه وتغرق وجهه بالقبلات ، فدار بها فى الغرفة متذكرا طفولتها العذبة فى حين تفجرت نظرات الأم بالحنق وأسرعت بمغادرة الغرفة !

منذ الصباح الباكر ارتدت معظم البيوت فى حى الغجر أبهى زينتها من معلقات ورقية ومصابيح كهربية ، والتف الأطفال بالبالونات والزمامير والصفافير حول بيت العريس فى الميدان الصغير أمامه . فقد كان العريس ابن كبير الغجر الذى يحرص الجميع على مشاركته أفراحه . انطلقت الزغاريد من نوافذ البيت وبلغت الأذان المحيطة دقات الطبل والرق والزمر ، فى حين بدأ الميدان يختفى داخل السرادق الذى احتواه قطعة قطعة ، ومنع الشمس من افتراشه كالعادة لكن المدعوين الذين توافدوا مع بداية اليوم مهنئين دخلوا إلى الأحواش التى تتوسط حجرات المنزل ليجلسوا فى مجموعات ، فى حين انشغل أهل الفرح فى إعداد الطعام ، وتوزيع عبارات الترحيب بالضيوف كلما مر أحدهم بهم ، وإلقاء بعض العملات المعدنية والورقية الصغيرة من حين لآخر على رءوس الأطفال المتجمعين تحت النوافذ والمتكالبين على جمع أكبر عدد ممكن منها .

شرع الغجر فى احتساء الشاى والقهوة بكميات كبيرة متتابعة بصفتها تسليتهم المفضلة أثناء تبادل الأخبار والأسرار التى شاركتهم فيها النساء برغم أن الغجر يفضلون فى هذه المناسبات عزل النساء عن الرجال . لكن يبدو أن موضوع الساعة لم يفرق بين رجل وامرأة ! لم يدر الحديث كالعادة عن العريس والعروس ، وإنما حول بلسم وجرحى ومتعهد كانتين المستشفى ! بين رشفات الشاى والقهوة وسحب دخان السجائر التى يجيدون لفها ، تناثرت جمل وتعليقات وهمهمات تؤكد وتقول : جرحى لازم ينتقم لشرفه ! يا شيخ إن بعض الظن إثم ! هو شاف حاجة بعينيه .. أهو كله كلام فى كلام .. بيقولوا إنها بتروح له الشقة مرتين تلاتة فى الأسبوع ! يا شيخ حرام عليك .. ده انا سمعت إنها بتشتغل فى عيادة الدكتور بكير . وجرحى نفسه كان مبسوط وهو بياخد فلوسها ! صحيح أن متعهد الكانتين هو خطيب بنت صاحب

عزبة الدخاخنى ؟! .. بلاش كلام فارغ .. هو أى تهجيص تسمعوه تصدقوه !.. ابن العز يفضل طول عمره ابن عز حتى لو الزمان جار عليه ! يا سلام يا زمان بتطول على الغلبان ! والسكر الحلو بيمرر على الغلبان ! وبعينى شفت القوى دايس على الغلبان ! عمال أفكر ولسه مش لا قيلى بر ! صبحت تعبان م الدنيا وفعل الوقت ! خطرى أميل وأنعدل لازم ألاقى بر !

ترددت تمتمات التأثر بجمل الموال الحزين من تحت الشوارب الكثة ، وامتدت السواعد السمراء الحجرية المغطاة بالوشم للف السجائر ، ثم ارتفعت بأكواب الشاى والقهوة نحو الشفاه الداكنة الغليظة ، وامتدت بعض الأصابع تمسح قطرات على الجباه العريضة ثم عادت التساؤلات والتعليقات والآهات لتتربع على عرش الجلسات : عجيبة قوى .. جرجى لسه ما جاش لحد دلوقت ؟! يمكن مكسوف وخايف أحسن حد يتلغ قدامه !! ولا البت بلسم ما حدش شاف وشها هى كمان !! أنا عرفت إن جرجى حرّج عليها الخروج من الموكنة .. حكم هى صهيلة بهيلة !! دى شورية عاوزه الدبح !! حرام عليك .. لف لى تفتافة !! دى تبقى مجنونة .. تسيب الغجرى وتروح للخشنى ؟! طول عمرها بتحصحص المبخيتش وبتكسب عيشها بعرق جبينها !!

حان وقت الغداء و لم يظهر جرجى أو بلسم برغم صلتهما الوثيقة بكبير الغجر ، مما ضاعف من التساؤلات والتخمينات حول الطبالى التى وضعت وسط المجموعات على الأرض ، والتى اختفت تحت أطباق الخضروات المطبوخة . دار بعض شباب البيت لتوزيع قطعة لحم على كل شخص ، فى حين طالب بعض الضيوف المزيد من اللحم على سبيل المزاح والدعابة . أما المدعوون الذين جاءوا متأخرين فإن الطعام كان يقدم لهم بمجرد حضورهم ! ومع ذلك لم يظهر بينهم جرجى أو بلسم !

سأل أحدهم عن آخر أخبار فريزة التى هربت مع ابن عم شعبان ناظر الزراعة ، فجاءت الإجابات المتناثرة تؤكد أنها طارت معه إلى طهواج لكنهم لم يقبلوها هناك بينهم لزواجها من خشنى ، فاضطرت إلى الرحيل معه إلى سنباط حيث عملت غازية وعلمته كيف يعمل سفرقى لها ! أى طبال ! صدر تعليق من فم محشو باللحم أكد

أن بلسم كانت على وشك أن تهرب مع الجدع مثل فريزة تماما لولا أن جرحى واد راجل من ضهر راجل ! واستمر الحديث عن جرحى وبلسم دون أن يظهر أحد منهما !

وبعد الظهر قبل قدوم العروس ، حضر الحلاق الذى قام بحلاقة شعر العريس فى وسط الحوش بين أغانى ورقص الحاضرين . انهال أحد الرجال بقبضته على طبلة ، وآخر على رق ، وثالث رفع عقيرته بموال يتمنى فيه السعادة والبنين للعريس فى حين دارت بعض السمراوات الفاتنات برقصة الحجالة ، وظلت أردافهن ترتعش كالسمك المياس إلى أن نهض العريس ليأخذ حمام الزفاف حيث وقفت الفتيات على بابه يواصلن الغناء والرقص فى لوحة رائعة زاخرة بالوشم على الذقون ، والقلائد الحمراء والزرقاء على الصدور ، والأحزمة النحاسية اللامعة فى الأنوف !

وصل الدكتور بكير فحياه الجميع عند باب السرادق ، لكن الذهول حط على بعضهم عندما لمحوا إيهاب الذى كان يقود سيارة الدكتور وهبط منها بعد أن تركها على ناصية الشارع ليلحق به ! عندما صافح إيهاب أيادى الغجر الممتدة بالسلام لم يلحظ شيئا غريبا على الوجوه ، فهم أقدر الناس على إخفاء ما يدور فى أعماقهم ! جلس الدكتور بكير وإلى جواره إيهاب فى صدارة السرادق حيث تجولت عيناه جولات محمومة فى كل الأركان والأرجاء ثم مال على أذن الدكتور بكير :

ـــ كنت أتمنى أن أحضر معى آلتى التصوير والتسجيل !! إنها فرصة لن تسنح لى مرة أخرى !!

ابتسم الدكتور بكير ابتسامة حرجة :

ـــ اعقل .. ولا تسع لحتفك بظلفك !! يكفى أن تسجل بعينيك وأذنيك !

عاد إيهاب إلى مسح كل المشاهد بعينيه لعله يلمح بلسم ، لكنه تذكر جرحى فتمنى ألا تظهر ! برغم حنينه القاتل إليها ! اجتاحته مخاوف خفية وهو يتذكر أيامه الأخيرة التى ظل فيها معلقا بين شقى الرحى : بين بلسم المختفية دون أن يعرف من أخبارها شيئا،وبهيرة التى لم تصله عنها أية أنباء برغم طيفها الذى عاد لزيارته بعد إحياء الأمل الذى مات ! لم تهدأ مخاوفه إلابإحساسه بمعية الدكتور بكير الذى تكن له البلدة كل

حب وتقدير وإجلال !

هرع بعض أهالى العريس لاصطحاب العروس من بيتها ، وبعد نصف ساعة فقط عاد الموكب فى ثلاث سيارات حيث هبطت العروس عند بداية الشارع يحيط بها أهلها فى زفة إلى باب العريس الذى كان فى انتظارها ليحملها إلى غرفة الزفاف التى دخلتها معه الكثيرات من أهله ومن أهل العروس وهن يواصلن الغناء والرقص ، فى حين ترك أهل العروس السرادق إلى البيت ومعهم الدكتور بكير وإيهاب بناء على دعوة أصحابه لتناول الطعام حيث سمع إيهاب دقات قلبه برغم ضجيج الفرح ! فقد وجد نفسه لأول مرة وسط الغجر وفى مناسبة من أهم مناسباتهم ! لكن قلبه كاد أن يتوقف من الإثارة عندما انتهوا من طعامهم وبدأت مراسيم فض البكارة عند الغروب ، حين دخلت بعض قريبات العريس من كبار السن إلى الغرفة التى تجلس فيها العروس مع بعض قريباتها وقريبات العريس الذى غادرها بعد أن حملها إليها .

سمع إيهاب نداء عاليا على العريس الذى كان جالسا وسط الرجال ، فنهض ليزف بالطبول إلى الغرفة حيث تعالى الغناء الذى تحول إلى ما يشبه الصياح ليغطى على صراخ العروس ، فى حين وقف أخو العريس على الباب يمنع دخول أى شخص بعد أن أثاره بكلمات فى أذنه حول الرجولة والفحولة ! وسرعان ما طغت صرخة العروس على كل هذا الصخب الهادر ، بعدها خرجت إحدى العجائز من الغرفة مهللة وهى ترفع يدها المعروقة بمنديل أبيض ملطخ بدم قانى الحمرة وخلفها النسوة معلنات طهارة العروس وعفتها . تعالى الصياح والطبل والزغاريد ، وأخذ أهل العروس المنديل وغيره من قطع القماش الأبيض الملطخة بالدم إلى خارج السرادق ليبدأن زفافها فى حى الغجر حتى يراها الجميع وسط الصيحات والتهليل : « يا حلوة يا بنتنا ياللى بيضتى عرضنا » .. « حلوة بنت الرجاله » ... « قولوا لابوها إن كان جعان يتعشى » ..

ثم خرج الجميع إلى السرادق لتبدأ الليلة الموعودة ! امتلأ عن آخره بالمدعوين الذين جلس فى صدارتهم الدكتور بكير وإيهاب وإلى جوارهما أبو العريس وكبير الغجر الذى اعتبر قدوم الدكتور شرفا كبيرا لن ينساه العمر كله ، لكنه تجاهل إيهاب بطريقة

ملحوظة أثارت مخاوفه مرة أخرى ! وفى وسط الحلبة بين مقاعد السرداق شكل أهل العريس من النساء والرجال مجموعة تطبل وترقص وتتغنى بشجاعة العريس وجرأته فى فض بكارتها : راجل من ضهر راجل .. صباعه شفر الشفرة والكل شاهد ! كما شكل أهل العروس من النساء والرجال مجموعة أخرى تتغنى بطهارة ابنتهم ، ثم دخل الجميع فى منافسة غنائية راقصة كما لو كان السرادق قد أصبح حلقة ذكر !

كل هذا وإيهاب مفتون نشوان بالغناء الراقص الذى استمر لأكثر من ساعتين عندما ارتمى البعض على المقاعد لاهثا . بدأت الحلبة تخلو بعض الشئ ليبدأ الـراقصون والراقصات المحترفات العرض المثير على دقات الطبول ! دخل أربعة رجال يحملون طبلة ورقا ومزمارا وربابة وخلفهم أربع فتيات ربطن أردافهن فى أقمطة سوداء حتى لا ينفر أحدها هنا أو هناك ، وفى أيديهم الصاجات ! تقدموا جميعا من كبير الغجر فإذ بحامل الرق هو جرحى وبلسم خلفه مع الفتيات ! انهمرت أنهار العرق داخل ملابس إيهاب وهو يلمحهما فى لحظات خاطفة كالبرق بين السحب الداكنة الحبلى بالأمطار ! انحنى جرحى أمام كبير الغجر وقبل يده :

ـــ جينا نشارك فرح ابن البرغة الأو .. ده فرح الأنتة الكبيرة كلاتها !!

ثم استدار يمسك بيد بلسم التى لم ترفع عينيها خجلا أو حرجا وأردف قائلا وهو يرفع رأسه فى كبرياء واعتداد بالنفس :

ـــ وخليت اللى بطلت رقص ترقص مخصوص .. ده فرحنا كلنا !

ثم تراجع جرحى إلى الخلف فلمح إيهابا جالسا إلى جوار الدكتور بكير،استدار فى سرعة البرق ليرى وميض عينى بلسم قد التقى بنظراته المتسائلة الحائرة المترددة ، وسرعان ما نكس إيهاب عينيه مستعينا بإرادة حديدية . رفع جرحى حاجبه الأيسر وأحكم القماط الرفيع الأسود حول رأسه ، ثم استدار ليجلس بحذاء كبير الغجر وإلى جواره ضارب الطبلة ، وعازف المزمار ، ولاعب الربابة ، فى حين ذهبت الفتيات الأربع إلى منتصف الحلبة حيث بدأ إيقاع الصاجات مع رعشات الأرداف والنهود على إيقاع الطبلة الصاخبة ، والرق المجنون ، والمزمار العذب ، والربابة اللعوب ، وعينا

جرحى وميض عينى صقر طائر كالقدر بين إيهاب وبلسم التى لم تكن فى قمة لياقتها برغم قيادتها للراقصات !

نظر إيهاب فى شبه توسل إلى الدكتور بكير الذى انهمك فى متابعة العرض الراقص المثير ، وبدا عليه عدم التفريق بين بلسم والأخريات ! شعر بوحشة قاتلة أشاعتها فى داخله السهام المحرقة المنطلقة مع وميض عينى جرحى ، ونظرات الغجر التى شدت بأسلاك نارية إلى بلسم وجرحى وإيهاب الذى تمنى أن تنشق الأرض لتبتلعه بعد أن تأكد من نظراتهم أن كل ما سمعه كان حقائق مرعبة ! أين أنت يا بهيرة ؟! أين يدك لتنتشلنى من بئر الخوف المظلم الذى يكاد يطوينى بردائه ؟! لا شك أنك كنت خائفة على سلامتى يوم أصررت على ابتعادى عن هؤلاء القوم المرعبين !! لكن كيف أجبن إلى هذا الحد ؟! الخوف إحساس طبيعى وكذلك الشجاعة التى يجب أن أتسلح بها الآن وأواجه بها قدرى !

انتصب ظهره وجلس فى اعتداد بنفسه ، فليس إيهاب المهرانى بخائف من بائس مثل جرحى ! ماذا يستطيع أن يفعل وسط حشد مثل هذا تجمع لهذا الفرح ؟! كلها مخاوف لا أساس لها من الصحة ويكفيه أنه شهد هذه المناسبة التى لم يكن يحلم بها ليفرد لها جزءا كبيرا فى بحثه ! لكن نظرات بلسم المغناطيسية لم ترحل عن إيهاب ، بل دارت برعشاتها واهتزازاتها وإيقاعاتها كالمنومة وعيناها تسألانه عن السر فى وجوده فى مثل هذا المكان ، وعما إذا كان قد جاء بحثا عنها ، وماذا ينوى أن يفعل إذا كان فى نيته أن يفعل شيئا ؟! ووجد إيهاب نفسه دون أن يدرى يتساءل بعينيه عن سر غيابها ، وعما جرى لها فى الأيام الأخيرة ، وهل هناك خطورة على حياته إذا واصل حياته فى البلدة ؟!

دون أن تدرى وجدت بلسم نفسها منجذبة وسط الدقات المجنونة والرعشات المحمومة تجاه إيهاب ، ووميض عينى جرحى يتبعها لاهثا لحظة بلحظة ، فى حين تصبب العرق على جبينها وغامت عيناها لكنها واصلت الارتعاش والميل إلى اليمين واليسار ، إلى الأمام والخلف . اشرأبت رقاب الغجر وبلسم تتماوج ثم تنتفض أمام كبير الغجر ، لكن نظرات الجميع قالت إنها ترقص خصيصا لإيهاب ! قرأ جرحى النظرات

و لم يحتمل تجرع الكأس حتى الثمالة فنهض واقفا يدق الرق دقات مسعورة ، وقطرات العرق تنهمر على وجهه وتغطى الوشم على صدره وذراعيه ، ثم تحرك خطوتين إلى الأمام ، وأخرى إلى الخلف حتى اقترب من بلسم وهو يلوح بالرق حولها يمنة ويسرة . أفاقت على وجوده إلى جوارها ونظرات إيهاب المتوسلة تستعطفها أن تبتعد ، لكن جرحى كان قد رفع يسراه ليواصل اهتزازات الرق ، فى حين تسللت يمناه إلى داخل جلبابه المرفوع بحزام عند الوسط ، وإذ بخنجر يومض بنصله البتار تحت أضواء السرادق ، وفى سرعة البرق كان إيهاب يجذب بلسم بعيدا عن النصل الهابط كالصاعقة عليها ، فإذ به يغرس فى كتفه لتتدفق منه نافورة دماء ساخنة فوارة قانية !

أطبق السكون على رءوس الجميع كيوم القيامة برغم الشهقات المنبعثة بالذهول على الألسنة التى تدلى بعضها من الأفواه الفاغرة ! تدارك الدكتور بكير الموقف وإيهاب يسقط اعياءً على مقعده ، فأسرع بشد الخنجر فى حين دوت صرخة جرحى كعواء ذئب ، وشهقة بلسم التى ارتمت لتحتضن إيهاب بمقعده وقد عجز لسانها عـن الصراخ ! تراجع جرحى إلى الخلف محاولا الهرب لكن كبير الغجر أمسك به بقبضة من حديد وسار به خارجا من السرادق ! جذب الدكتور بكير القماط حول ردف بلسم فخلعته فى الحال ليربط به كتف إيهاب ، لكن النافورة لم تتوقف وواصلت تدفقها تحت الرباط لتلطخ قميصه الأبيض والجانب الأيسر من وجهه الذى زحفت عليه الصفرة ! أسرع الدكتور بكير بجذبه واقفا مادا ذراعه المرتخية على كتفه ، فالتف حوله شباب الغجر الذين حملوا إيهابـا وبلسم خلفهم تلطم الخدود ثم تلقى بوجهها تمرغه فى البساط المترب !

هرع الدكتور بكير إلى الخارج ليحضر سيارته من ناصية الشارع حتى باب السرادق الذى توقف عنده الشباب مع إيهاب المتداعى المتهافت بينهم . فتح الباب ووضعوا إيهابا على المقعد الأمامى وأسرع اثنان منهم للجلوس على المقعد الخلفى ، وانطلق الدكتور بالسيارة وسط حشود السرادق التى تجمعت خارجه فى حين تعلقت بلسم بمؤخرة السيارة التى طوت الطرق المتربة المتعرجة ، وعبرت قنطرة صدئة حتى

بلغت محطة القطار الذى قطع الطريق بمروره الوئيد وعرباته التى لا نهاية لها ! وبمجرد غياب آخر عرباته عن المزلقان انطلقت السيارة فوق المطبات لتحدث اهتزازات تصاعدت بآهات إيهاب حتى بلغت باب المستشفى حيث هرع الخفير الذى عرف سيارة الدكتور بكير ففتح الباب على مصراعيه لينهض ممرضان فى غرفة الاستقبال كانا يغالبان النعاس ، وهما فى ذهول لرؤية إيهاب المضرج فى دمائه ! أسرعا بإحضار نقالة حملاه عليها وقد بدأ يغيب عن الوعى إلى أن دخلا به غرفة العمليات .

سرعان ما كان اثنان من الأطباء المناوبين مع الدكتور بكير فى الغرفة يبحثان عن عينات دم لنقلها إلى إيهاب الذى أخرج أحدهما بطاقته الشخصية من جيبه ليعرف فصيلته لكن شيئا لم يكن مكتوبا فى الخانة ، كما أنه لم تكن هناك عينات من أى فصيلة ! استشعر الدكتور بكير الخطر على حياة إيهاب لكنه لم يترك القلق يعصف بصفاء ذهنه ! طلب من أحد الطبيبين الإسراع بالبحث عن غجرية تدعى بلسم كانت معهم فى سرادق الفرح ، وتبرعت بدمها أكثر من مرة وذلك لفصيلتها التى تصلح لكل الناس . خرج الطبيب ليجد غجرية جالسة القرفصاء تنتحب عند باب الغرفة وإلى جوارها الغجريان اللذان جاءا معهم ! سألها الطبيب عن غجرية باسم بلسم فصرخت :

ــ أيوه أنا !! عاوزنى فى حاجة ؟! ازيه دلوقت ؟! ربنا حايشفيه بإذن الله .. ده جدع طيب وابن حلال !

جذبها الطبيب الشاب من ذراعها وأدخلها إلى الغرفة حيث سعد الدكتور بكير لرؤيتها ، وأمرها بالنوم فورا على السرير الموازى للمائدة الممدد عليها إيهاب الذى يبدو أنه حقن بالمخدر لأنه لم يعد يحرك ساكنا . كانت بلسم على وشك أن تسأله عن صحته لكنها لزمت الصمت ، ومدت ذراعها التى تعرت لتدخل فى أحد عروقها الإبرة التى سرعان ما امتصت الدماء لتجرى فى الخرطوم الرفيع الشفاف إلى ذراع إيهاب تحت إشراف أحد الطبيبين ، فى حين انهمك الدكتور بكير فى تطهير الجرح بمساعدة الطبيب الآخر ، وإيقاف النزيف بخياطته !

لم يقطع سكون الغرفة سوى تعليمات الدكتور بكير التى كان يلقيها من حين

لآخر على الطبيبين ، وضجيج الغجر وأهل البلدة الذين تجمعوا حول سور المستشفى ، ولولا البوابة الحديدية التى أغلقها الخفير لاقتحموا الحديقة ، لكنهم ظلوا على الطوار حتى مطلع الفجر حين قال الدكتور بكير لمساعديه :

ـــ لولا بلسم .. لما عرفنا أن ننقذه بهذه السرعة !

ثم أمر ثلاثة من الممرضين بنقله إلى إحدى الغرف الخالية فى حين كانت بلسم تبتسم فى إعياء لكلمات الدكتور المطمئنة ! وبرغم إعيائها قفزت فى خفة الغزال خلف النقالة التى دفعها الممرضان خارجا فى حين خرج الدكتور بكير ليتصل بزوجته تليفونيا ليخبرها فى اقتضاب بما جرى ، ويطلب من نيرة أن تتصل ببهيرة فى الصباح لعل مجيئها يعيد الأمور إلى نصابها الصحيح ! ثم عاد ليصاحب إيهابا الذى بدأ يعود إلى وعيه مع خيوط الفجر المتسللة من النافذة . قبعت بلسم على المقعد المجاور تتابعه بعيون حانية قلقة ! فى حين كان لسان إيهاب الثقيل المتلعثم يهمس باسم بهيرة !

فجأة اقتحم الغرفة كبيرالغجر بقامته المديدة وعباءته السوداء الفضفاضة ليسأل عن صحة إيهاب ، ويخبر الدكتور بكير أنه قام بنفسه بتسليم جرحى إلى المركز بنفسه ، لكنه أنكر فى التحقيق نية الاعتداء بعد اعترافه بما وقع ، وقال إنه كان يرقص بالخنجر الذى وجده دون أن يدرى مغروسا فى كتفه حين اندس فجأة بينهما ، وإنه لا يعقل أن يحيل فرح ابن كبير الغجر إلى مأتم ، ولو كان ينوى الإنتقام فعلا لسبب فى نفسه لانتقم فى فرصة أخرى وبطريقة أخرى ! بل إنه قابل إيهابا منذ ثلاثة أيام عند الهويس وكان بمفرده فى الطريق الخالى ، وكان من الممكن أن ينتقم منه ثم يفر بعيدا دون أن يراه أحد ! لكن لماذا الانتقام الدموى ولا توجد ثمة عداوة بينهما؟! وهل يعقل أن يحيل أهالى البلدة كلها إلى شهود إثبات فى جريمة يرتكبها أمامهم جميعا؟! ثم أردف كبير الغجر قائلا :

ـــ وعلى كل حال جرحى محبوس فى المركز .. واحنا فى الخدمة دايما يا سعادة البيه الدكتور .. ده أنا عمرى ما انسى فضلك على ابنى .. وما كانش الود أبداً إن ده يحصل فى فرحه .. لكين المكتوب ع الجبين لازم تشوفه العين !! واحنا دايما فى خدمة

الحكومة !! اللى تؤمر بيه ننفذه حالا !! ما حناش مجرمين ولا حاجة زى ما ناس كتير بتفتكر !! إحنا زى كل الناس .. فينا الكويس وفينا الوحش ! وأنا عموما فى البيت أى حاجة تطلبها إحنا فى الخدمة !! سلامه عليكم !!

أجابه الدكتور بكير فى اقتضاب وإعياء :

ـــ شكرا يا معلم .. مع السلامة !

انحنى الرجل ليخرج . التقط الدكتور بكير لغة النظرات بين إيهاب وبلسم فضحك ونهض قائلا له :

ـــ لولا بلسم يا إيهاب .. لما عرفنا كيف ننقذك بهذه السرعة !! إنك الآن أصبحت غجريا بالفعل .. فدماؤها تجرى فى عروقك !

ابتسم إيهاب ابتسامة واهنة فى حين غادر الدكتور الغرفة لتخلو لهما ، ونظرات بلسم تتمسح بوجه إيهاب :

ـــ سلامتك ألف سلامة يا سى إيهاب .. ما كنتش عارفة إنى غالية عندك كده ! أنا فداك ألف مرة !

خرجت ألفاظه ضعيفة مترددة لكن واضحة :

ـــ لماذا لم تقولى لى إن الغيرة بلغت به حد الجنون ؟!

ـــ خوفى عليك بعدنى عنك على عينى .. بعدما شعرت بالذل اللى حط على جرحى .. ما كانش بيصارحنى بحاجة لكين عينيه كانت بتقول كل حاجة ! صعب علىّ هو كان وهو اللى عاش عمره يحلم بجوازى !! وحسيت فى النهاية إنى مهما حبيتك يا سى إيهاب فانت مش لىّ .. كل طير بيلوف بطيره !!

ابتسم إيهاب مربتا فى ضعف على يدها :

ـــ كيف يا بلسم ودمك يجرى فى عروقى ؟!

ـــ دى كانت أكبر مكافأة على حبى ليك يا سى إيهاب !! ربنا برضه عوض صبرى خير !! ما هو ده جواز الدم اللى أنت عارفه !! لكين جواز الدنيا ده مش لىّ .. ده لازم يبقى لواحدة من توبك زى الست بهيرة كده !

ـــ أشعر أنك تحبين جرحى بالفعل !

ـــ ما أكدبش عليك .. ده جرحى جدع طيب وابن حلال .. وقلبه أبيض زى العيال .. لكين لما الغيرة بتدب فيه بيبقى زى التور الهايج !

ـــ أكاد أصدق كلام جرحى أمام المحقق !

ـــ قلبك كبير ياسى إيهاب ! وربنا عنده العفو ! بدل ما يروح فى شربة ميه وهو لسه فى عز شبابه ! ده برضه الضفر ما بيخرجش م اللحم ! والحمد لله اللى رسيت على كده ! أهى برضه جت سليمة !

ـــ من أجلك يا بلسم .. مستعد أن أفعل أى شئ !

ـــ تسلم لى ياسى إيهاب !.. كان كل أمل جرحى إنه يقطع الألسنة .. لكين الناس ما بترحمش .. عاوزين جنازة يشبعوا فيها لطم !

ابتسم إيهاب وسرح ببصره عبر النافذة المفتوحة التى تخللتها نسمة حانية رقيقة لم يشعر بمثلها منذ بداية ذلك الصيف الطويل الساخن . كانت الشمس قد افترشت الحقول والمزارع الممتدة حتى خط الأفق ، وعلا دبيب الماشية ، وخوار الثيران ، ونهيق الحمير ، ونباح الكلاب فى بداية يوم جديد ! ابتسمت بلسم هامسة فى تساؤل :

ـــ نفسك فى حاجة يا سى إيهاب أجيبها لك !! بدى أخدمك العمر كله !!

ـــ لو قلت لك ما فى نفسى .. ستندهشى .. لأنك لن تستطيعى إجابة هذا المطلب العزيز !!

ـــ عارفة يا سى إيهاب .. عارفة .. نفسك فى الست بهيرة .. لكين ما فيش حاجة تكتر على ربنا !

ـــ لم أر يا بلسم فى مثل ذكائك !

ـــ كنت حاسة دايما إنها فى قلبك .. أنا برضه ست وفى الحاجات دى قلبى دليلى .. مستعدة أروح وأجيبها لحد عندك !

ـــ أحيانا أشعر أن قلبك كبير جدا لدرجة أنه يمكن أن يحتوى الدنيا كلها داخله!

— ما حدش واخد منها حاجة .. وما دايم إلا المعروف والكلمة الحلوة !

ظهر الدكتور بكير عند الباب مداعبا بلسم :

— ممنوع الكلام الكثير مع المريض يا بلسم !! أريد أن يدخر قوته لوكيل النيابة القادم فى الطريق لأخذ أقواله !!

— بعد الشر يا سعادة البيه ! ده مش عيان ولا حاجة .. كلها يوم أو يومين ويقوم زى الحصان تانى !

— طالما أن هذا هو تشخيصك الدقيق فلا خوف عليه !

تبادل ثلاثتهم ابتسامات رقيقة فى أعقاب ليلة عصيبة ، فى حين أسرعت بلسم بالخروج تاركة الدكتور بكير ليحتل مقعدها . خارج الغرفة كان هناك جمع من الغجر الذين رابطوا فى الممر للاطمئنان على إيهاب أو على جرحى بمعنى أدق ! انهالت عليها الأسئلة لكنها اقتصرت على ترديد قولها : ربنا حايجيب العواقب سليمة بإذن الله ! فى حين شق الممر رجل أنيق توجه إلى الغرفة فورا حيث نهض الدكتور لتحيته مغلقا الباب على ثلاثتهم ، فعرفوا أنه السيد وكيل النيابة ! وسرعان ما لحق بهم رجل يحمل دفترا كبيرا !

جاء ثلاثة من الممرضين الأشداء ليطردوا الغجر بما فيهم بلسم التى حاولت التشبث بالانتظار ، لكن سرعان ما خلا الممر منهم ، لكنهم تمسكوا بحديقة المستشفى وباءت كل محاولات اجلائهم بالفشل ! قتلوا الوقت فى لف السجاير ، والثرثرة ، والتخمين ، والتساؤل ، والتعليق ، والتفاؤل ، والتشاؤم ، فى حين انتحت بلسم ركنا قصيا بالحديقة حيث تعلقت عيناها السوداوان الواسعتان بالسماء الفسيحة الصافية لدرجة الشفافية ! وصلت سيارة بيضاء جديدة لامعة إلى بوابة المستشفى حيث دار حديث بين راكبتها الجميلة والبواب الذى أفسح لها الطريق لتدخل وتنحرف يمينا تجاه الركن القصى الذى قبعت فيه بلسم ! هبطت الراكبة الجميلة التى تربع القلق على عينيها الحائرتين اللتين التقيتا بعينى بلسم التى انتفضت واقفة ! فقد رأتها قبل ذلك مرة ورأت صورتها عدة مرات ! تقدمت نحوها لكن شيئا داخلها جعلها تحجم

عن محادثتها . وسرعان ما ابتلع المدخل الزجاجى بهيرة التى رأت الدكتور بكير وهو يودع وكيل النيابة فى حين انطلقت نيرة هابطة على السلم لتحتويها بـالأحضان والقبلات والكلمات الحانية التى تطمئنها على إيهاب ! والنظرات المركزة على إصبعها حيث اختفى خاتم الزواج !

انتهى الدكتور بكير من توديع ضيفه ليرحب ببهيرة سعيدا بمقدمها ، ويصطحبها إلى غرفة مكتبه وكله شوق إلى معرفة ما تم فى شأن زواجها أو طلاقها ! جلس ثلاثتهم بعد أن أغلقت نيرة الباب ! تصفحت بهيرة عيونهما لتتأكد من حقيقة الأخبار المطمئنة التى سمعتها منهما على السلم ثم تساءلت :

ـــ وأين إيهاب الآن ؟! أريد أن أراه !!

أجابها الدكتور بكير باسما :

ـــ وبأسرع ما يمكن ! لكن قبل ذلك أريد أن أطمئن على ....

قاطعته بحدة ليست من طبيعتها :

ـــ بالأمس فقط تخلصت من الكابوس الذى بدأ منذ انفصالى عن إيهاب ! طلقنى زوجى العزيز ! إلى غير رجعة !!

تدخلت نيرة فى الحوار وهى سعيدة بالنبأ :

ـــ وأنا أيضا تأكدت بالأمس فقط أنه لم يرتبط بغيرك .. كل ما سمعته كان مجرد شائعات وأوهام وسوء تفاهم !

أضاف الدكتور بكير بابتسامة أوشكت أن تتحول إلى ضحكة :

ـــ لم يتوقف لسانه عن ذكر اسمك عندما بدأ يفيق من المخدر !

لمعت بوادر الدموع فى عينى بهيرة :

ـــ أرجوك يا دكتور بكير ! أريد أن أراه الآن !

ـــ لابد من التمهيد للقائك حتى لا يتصور نفسه أنه يحلم أو يهذى ! فالسعادة الجارفة المفاجئة قد تكون أشد خطورة من صدمة الحزن ! دقائق وسأعود إليك !

أسرع الدكتور بكير فى الممر المؤدى إلى غرفة إيهاب حيث وجد جدلا حاميا بين

اثنين من الممرضين من ناحية ، وكبير الغجر وبلسم من ناحية أخرى ! هرع كبير الغجر إلى الدكتور بكير بمجرد أن لمح طلعته :

— عاوزين يا دكتور بعد إذنك نشوف سى إيهاب دقيقة واحدة بس .. والجدعان بتوع سعادتك مش عاوزين يدخلونا !

— ولماذا تصر على لقائه ؟!

— عشان أبوس إيده أنا وبلسم !! بلسم حكيتلى كل حاجة !! وأنا كان عرفت اللى قاله فى المحضر ! مش ممكن ننسى فضله علينا !!

— وكيف عرفت ما فى المحضر والسيد وكيل النيابة لم يترك المستشفى إلا من دقائق ؟!

أجاب كبير الغجر بتلقائية شديدة وهو يزيح شاربه الكث فوق شفته :

— اللفندى اللى كتب المحضر قال لنا إن سى إيهاب قال تقريبا نفس أقوال جرحى فى التحقيق .. وإن الموضوع مافيهش جريمة ولا حاجة .. وإن شاء الله حايطلع جرحى صاغ سليم .. وأول حاجة حا يعملها بعد الإفراج إنه جاييجى عشان يبوس ايد سى إيهاب .. ده راجل وللا كل الرجال !

أمر الدكتور بكير أحد الممرضين بفتح الباب فنفذ الأمر فى الحال ! ودخل الدكتور ليجد إيهابا ممسكا مكان الجرح بقبضته والألم على وجهه :

— لا تقلق .. ستشعر بالألم كلما زال أثر المخدر !! ولذلك لابد من المواظبة على المسكن مع المضاد الحيوى والفيتامين .. وبعد أسبوع ستصبح كالحصان مرة أخرى !

ابتسم إيهاب نفس الابتسامة الواهنة متسائلا عن سبب الضجيج خارج الغرفة فأخبره بالموضوع . طلب منه أن يدخلهما وسرعان ما كان كبير الغجر ينحنى بقامته المديدة ليقبل يد إيهاب الذى سحبها مستغفرا الله ، فى حين انتهزت بلسم فرصة انشغاله وقبلت يده الأخرى . قال الرجل :

— وليه ما طلبتش يا سى إيهاب من الأول تعيش فى وسطينا ؟!

إحنا مش وحوش يا سعادة البيه ؟! ده احنا ناس لينا قلب برضيك !! وإن شاء الله أما تقوم بالسلامة .. حا نبقى كلنا عيلة واحدة حواليك .. تصور يا بيه وتسجل زى ما انت عاوز !! إحنا ما عندناش حاجة نخبيها ولاننكسف ولانخاف منها !! إحنا ناس أشراف .. عايشين على عرق جبينا !! ولو واحد فينا أجرم ولاغلط مش معناتها إن إحنا كلاتنا مجرمين !! وكل الكلام اللى سمعته يا بيه من بره عننا كلام فارغ ! الناس يا بيه بتحقد علينا عشان احنا ناس أحرار وجدعان .. واحتقارهم لينا هو فى حقيقته حقد علينا !

ربت إيهاب على يد الرجل الأسمر العملاق :

— فلنؤجل الكلام إلى ما بعد خروجى من المستشفى بإذن الله !

لهج لسان الرجل بالشكر :

— وإن شاء الله أول ما يفرجوا عن جرحى .. حاييجى عشان يبوس إيد أخوه الكبير ! ويشكر فضله عليه !

— أستغفر الله يا معلم ! الفضل فضل الله !

على الطرف الآخر من الفراش ومضت عينا بلسم وهى تقول :

— فيه حاجة يا سى إيهاب لازم أقولها وأجرى على الله !

استدار إيهاب برأسه متسائلا بعينين باسمتين فأضافت :

— ست بهيرة هنا فى المستشفى .. جت عشان تشوفك ! أنا مش عاميه ولاعبيطة !

تحول الوهن على وجهه إلى ذهول ممزوج بعزم جديد وهو يتساءل :

— هل هذا كلام صحيح يا دكتور بكير ؟!

استوعب الدكتور المفاجأة الغجرية وانفجر ضاحكا :

— جئت لأحمل إليك النبأ فسبقتنى إليه بلسم !

انتصب إيهاب جالسا فى فراشه :

— وأين هى الآن ؟! لماذا لم تأتِ ؟!

نهض الدكتور بكير واقفا :

— ستكون أمامك بلحمها وشحمها فى لحظات ! عن إذنك !

اختفى الدكتور بكير وبعده انسحب كبير الغجر مستأذنا ، وكانت بلسم على وشك الانسحاب إلا أن إيهابا استبقاها :

— ليس قبل أن أقدمك إليها !

وقفت بلسم فى ركن قصى والحرج يمسك بتلابيبها ، فى حين تعلقت عيناه بالباب المفتوح الذى سرعان ما بدت منه بهيرة كالبدر المنير : وميض العينين العسليتين الواسعتين كالبللور الصافى وسط الوجه الأبيض المشرب بالحمرة ذات النمش الخفيف ، والذقن بغمازتـه الدقيقة ، والأنف الدقيق الشامخ إلى أعلى ، والأذنان اللتان تحاولان القبض على الخصلات المتمردة ، والشفتان المكتنزتان المنطبقتان على إنفجار وشيك بعد أن عاد من أدمن خمرهما !

لهج لسانه متسائلا فى حلم النشوة :

— بهيرة ؟! بهيرة ؟! لا أكاد أصدق عينى !!

— إيهاب ؟! أخيرا يا حبيبى !!

حاولت بلسم التسلل خلسة لكن إيهاب لمح شبحها :

— بلسم !! هذه هى الست بهيرة التى طالما كلمتك عنها وعن صورتها فى جيبى !!

مدت بلسم يدها فى حياء دون أن ترفع عينيها :

— أهلا وسهلا بالست .. شرفتى ونورتى البلد !! ياما قلت له مصيركم لبعض ما كانش مصدقنى !!

أشار إيهاب إلى بلسم بمنتهى الفخر :

— وأتشرف أن أقدم إليك بلسم مساعدتى فى التحضير لرسالة الدكتوراة !!

شـدت بهيرة على يدها ثم احتضنتها وقبلتها فى وجنتيها ، فإذا بالدموع تنهمر غزيرة على وجه بلسم وهى تنسحب فى رفق :

— ما ليش قعاد هنا دلوقت ؟! عن إذنكم !!

ثم وقفت بالباب لتستدير قائلة بصوت متهدج :

— ربما يسعدكم ببعض العمر كله !

واختفت خارجا لتتركهما وجها لوجه لأول مرة منذ ذلك الحفل المشئوم الذى انفصلا فيه ! مد ذراعه ليمسك بيدها ويجلسها على المقعد المجاور وهو يقلب فى أصابعها بحثا عن خاتم الزواج ! ابتسمت فى نشوة حانية :

— عادت إلىّ حريتى أو عدت أنا إليها بالأمس فقط !!

— لا أكاد أصدق أذنى !! عجيب أمر هذا الإنسان فى هذه الدنيا ! بالأمس فقط تصورت نهاية عمرى فى هذا الجرح و لم أعرف أنه بداية حياتى الحقيقية !

— بعد الشر عليك يا حبيبى ! هل يؤلمك الجرح ؟!

— لم أعد أشعر به منذ أن رأيتك ! بل أشعر بأن فى إمكانى فك الرباط والخروج معك الآن !

ربتت على يده ورفعتها إلى فمها لتقبلها برغم الباب المفتوح وهى تقول :

— أكاد أموت شوقا لمعرفة تفاصيل حياتك المثيرة هنا !

— ستظل هذه التفاصيل زاد عمرنا كلما أصابنا الملل !

— لن يعرف الملل طريقه إلينا !

— هل تعرفين ماذا أتمنى الآن ؟!

سلطت نظراتها الحبيبة القديمة على عينيه فقال :

— أريد أن أضمك بين ذراعى وأحتويك فى أحضانى لولا هذا الرباط اللعين ! أريد أن أشهد الدنيا كلها على حبى لك ! أريد أن أتجول معك فى البلدة مثلما فعلنا أول مرة أتيت فيها إلى هنا !

— سأعوضك يا حبيبى عن كل ما فات !

— على كل حال .. لم تضع الأشهر الماضية هباء !! كنت دائما معى بروحك الحلوة العذبة !! كما أننا تعلمنا فيها درس العمر !!

سرحت بهيرة بعينيها العسليتين الواسعتين عبر النافذة حيث طارت جماعة من

أبى قردان بأجنحتها الناصعة البياض تحت القبة الزرقاء ، ثم قالت وهى تتأمل المشهد بألوانه المتناغمة الشفافة :

ــ فعلا .. تعلمت أنا على الأقل أن الحياة بلا إرادة وجود بلا معنى !!

هبت من النافذة المفتوحة نسمات عليلة حانية داعبت خصلات بهيرة المتمردة ، وتمسحت بقطرات العرق على جبين إيهاب برغم أن الصيف لم يكن قد انتهى بعد .

مؤلفات الأستاذ الدكتور نبيل راغب

- تـوابل الحـب
- جبروت امرأة
- سـور الأزبكية
- سـوق الجوارى
- الجيل الضائـع
- عصر الحريم
- غرام الأفاعى
- المذاهب الأدبية (فى النقد ـــ يدرس فى الجامعات)
- قلعة الكبش
- شـق الثعبان
- درب الشوك
- الكوديـة
- النقد الفنى
- بحر الظلمات
- معالم الأدب العالمى المعاصر
- فن التأليف الروائى
- البصرة حبيبتى
- أبنـاء الرعـد

رقم الإيداع ١٠٠٣٦ / ٩٣
الترقيم الدولى 4 - 0834 - 11 - 977